الثورة

فى وجدان المصريين



لنشر وتوزيع الكتب
0452211495-0121151237

أ / محمود القلينى

الثـــورة
فى وجدان المصريين

الأستاذ
محمود القلينى

2012

مكتبة بستان المعرفة
لطباعة ونشر وتوزيع الكتب
☎: 045/2211495&012/ 1151237

العنوان	الثورة فى وجدان المصريين
اسم المؤلف	محمود القليتى
رقم الإيداع	2012/7564
الترقيم الدولى	I.S.B.N 978 -977-393-173-8
الناشر	**مكتبة بستان المعرفة**
	كفر الدوار - الحدائق - 86 ش الحدائق أمام أبراج الحلواني
	☎ : 045/2211495 الإسكندرية 0121151237
	Email: Bostan _ elma3rafa @ yahoo.com

إهداء

إلى تلك الأم – الصابرة – التي خرج ابنها من حـضنها ذات صباح، وعاد إليها شـهيدا ذات مـساء، تزفـه الملائكة، وتحملـه مـصر بـين ضـلوعها...طـاهرا مطهرا....خالدا مخلدا.

المقدمة

ألا تكتب عن الثورة ؟

سئلت كثيرا بهذا السؤال، ووجه إلى من أكثر من شخص.

وفي الحقيقة لم أكن أجيب عن السؤال، وإنما كنت أدخل أنا والسائل في حوارات كثيرة، خاصة بالثورة وما أحدثته والآمال المعلقة عليها والأخطار المحدقة بها.... إلخ.

حينئذ كان السائل لا ينتظر إجابة عن سؤاله ؛ لأننا –أنا والسائل – قد رجعنا إلى البحر الزاخر الهادر بأمواجه الهائجة الثائرة، وعمقه المخيف الغامض، واتساعه الممتد اللانهائي، فما جدوى أن ننزوي وراء صخرة بعيدة عن البحر لنسمع عنه، ونحن في استطاعتنا أن نقف على شاطئه، بل نبلل أرجلنا من مياهه المالحة، بل نغوص فيه ؟!

وبعد مرور أيام وليال وأسابيع وشهور على أحداث الثورة، وتكشفت وتبدت نتائج كثيرة من أهداف الثورة، لم يسألني أحد السؤال مرة أخرى، ولكن أنا – في تلك المرة – الذي سألت نفسي... لماذا لم تكتب عن الثورة ؟

وتذكرت أنى في بدايات الثورة أسرعت إلى القلم وجهزت الأوراق، ولكني عجزت أن أكتب جملة واحدة مفيدة، للأسباب التالية:

– الوتيرة السريعة لأحداث الثورة، بل أن الأحداث تعدت السرعة المسموح بها، ودخلت في معايير للسرعة لا قبل لنا بها، في مكان كان كل شئ يسير فيه كالسلحفاة، وتحت نظام حكم جعل إيقاع حياة الناس يسير وئيدا وئيدا، بل يكاد يكون متوقفا وجامدا ومتحجرا، وأصبح التغيير بكل مشتقاته مرفوضا، بل يكاد يكون مدانا، فالمكان كالمقابر يهيمن على جو المكان الصمت والسكون، وإن كانت هناك حركة فلمواراة ميت وما يتبع ذلك من أصوات مبتورة، وأشلاء كلمات، وفي أنحاء متفرقة قد ينبت نبات أخضر، ولكنه نبات

((الصبار)) الذي يدعو – هو الآخر – في سكون وصمت ورهبة وخشوع إلى مزيد من الهدوء والتأمل الأزلي.

في مثل هذا المكان يكون المشي المتئد كأنه عدوٌ، والحركة الهينة كأنها انتفاضة،والصوت الهامس كأنه صرخة تزلزل جدران الصمت الرهيب، والإشارة الذليلة كأنها مدفع يفتت أسوار السكون.

نعم، كانت وتيرة أحداث الثورة سريعة، والذي زاد من إحساسنا بتلك السرعة وعدم قدرتنا أو عجزنا عن ملاحقتها ما تعودناه وألفناه وما تم ((تضبيط)) و ((برمجة)) أعصابنا وحواسنا وعقولنا ووجداننا عليه، لا أحد ينكر أن سرعة الأحداث وتلاحقها قد أدارت رأسه وجعلته يقف لحظات بل أياما وشهورا عاجزا مشلولا عن أن يواكب بفكره وحواسه الأحداث. نعم أنها ثورة حدثت في هذا العالم الذي نعيش فيه – ومحال أن تحدث ثورة في غير هذا العالم – وبالسرعة التي يسير بها عالم اليوم، وما كان لثورة أن تستمد سرعتها وإيقاعها إلا من أزمنة هذا العالم... ولكن من قال إننا كنا نعيش في عالم اليوم، ومن قال إننا كنا متوائمين ومنسجمين ومتفقين مع إيقاع سرعات هذا العالم ؟

أي ثورة تستمد سرعتها من ذاتيتها، وكانت ذاتية ثورة يناير تحتم عليها أن تكون سريعة لتستثمر وتوظف هذا الاجماع وهذا الاتفاق وهذا التوافق وهذا الضغط وهذا الدفع وهذا الاشتعال والتوهج ، إن البطء والتلكؤ والتمهل والتردد، كفيل أن يقضي على كل شيء، لو انطفأت شرارة الثورة أو شعلتها – ولابد أن تنطفئ مع مرور الوقت – فلن يستطيع أحد بعد ذلك إشعالها. وإذا توقفت ثورة في نصف الطريق، أو لم تصل إلى هدفها ولم تحقق ما قامت من أجله، فهي كارثة بكل المقاييس.

– غربة الثورة، هذا الجيل والأجيال السابقة عليه، قرأت كثيرا عن الثورات ودرستها نظريا، ولكن لم يقدر لأحد من تلك الأجيال أن يخوض غمار ثورة

من قبل، ولم يحدث تلامس بين جيل شهد وخبر وقام بثورة وجيل لاحق له، أخر ثورة كانت ثورة ١٩٥٢، وتلك لم يقم بها الشعب، وإنما تولى الجيش عنه القيام بها، ولم تشهد ما تشهده الثورات – عادة – من فوران وغليان واشتعال وتوهج، كانت ثورة رزينة ووقورة، وعاقلة وحكيمة، لذا لم يعتبرها البعض ثورة وأنها قد ينطبق عليها كثير من الأوصاف إلا وصف الثورة، أيا ما كان الأمر، فلم يقدر للشعب المصري أن يمر ويعيش ويتعايش مع تجربة الثورة ويعاني مآسيها، ويسعد بنتائجها ويألفها ويتآلف معها، أضف إلى أن الثورة في وجدان وعقل وضمير الأمة المصرية لها وضع خاص لا يماثله ولا يشابه عند الأمم الأخرى، بسبب مكونات وطبع ونسيج الشعب المصري،ونوعية الحكم والنظام الذي حتمته وأوجبته وفرضته وشكلته وكونته ظروف وضرورات ومؤثرات منها ما هو جغرافي ومنه ما هوتاريخي ومنه ما هوثقافي ومنه ما هو عقائدى ومنها ما هو نفسي، تعرض لها منذ الآف السنين،وظلت تلك المؤثرات تفعل فعلها على مدى تاريخه الحافل الطويل، كل هذا وغيره جعل مفهوم وفكرة الثورة محاصرة وإذا كانت موجودة ففي أضيق نطاق وهي من المحرمات التي يستوجب تحريمها مبررات كثيرة، وإن كانت تلك المبررات لا تخرج عن مصلحة نظام الحكم في أغلب الأحيان، وفي مصلحة الأمة في أندر الأحيان. لكل تلك الموروثات وطبائع وخصائص النسيج الجيني،كانت تحتوينا الثورة في يناير ولم نكن ندري أنها ثورة في الأيام الأولى، وكيف لنا أن نعرف أن تلك هي الثورة ولم نقم بثورة من قبل ولم نشهد ثورة من قبل ؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الثورة لا يتقدمها إرهاصات أو مقدمات، أو توقعات، فهي حدث يحدث فجأة خارج سياق ما قبله وما بعده،يأخذ الجميع في دوامته مهيمنا مسيطرا، فارضا قدريته وصيرورته على كل ما ومن حوله،لحظة كونية لأنها سيتم فيها تقرير مصائر ملايين من البشر، وترسل وتنشر تأثيرها

وإشعاعاتها إلى جميع الأنحاء، ولأبعاد عميقه وممتدة من الزمن، حدث بتلك الضخامة والثراء والغرابة والندرة، من العسير أن ترصده أو تسجله أو تتمكن منه أو تحتويه فكريا أو وجدانيا،قد يكون هذا ممكنا، ولكن بعدأن تتخلص من أسر وتأثير وسيطرة وهيمنة الحدث عليك.

– الحالة التي كان عليها الشعب المصري قبل ثورة يناير، كان كأنه شخص مضروب على رأسه، فقد اتزانه وأخذ يترنح يمينا ويسارا، أماما وخلفا،فعلى مدى أربع عقود أو أكثر أخذ النظام الحاكم هذا الشعب إلى عوالم ومناطق مجهولة وخطرة وغريبة وعجيبة، ثم عاد به، ولا ندري لم ذهب به ولا لم عاد به، ثم بعد ذلك يغير ويبدل ويحول في ثوابت ورواسخ هذا الشعب العريق والعظيم، لقد تحول النظام الحاكم على مدى السنين الماضية كطفل جن وفقد صوابه، فلم يترك شيئا في مكانه إلا وعبث ولعب به، ولم يترك شيئا قيما وثمينا ألا ومزقه او أتلفه أو دمره وأفسده، ولا شيئا معتدلا وصحيحا ألا وزوره وزيفه، إن حال النظام الحاكم مع الشعب المصري يذكرني بأبيات لشاعر تونس العظيم أبي القاسم الشابي

ألا أيها الظالم المستبد   حبيب الفناء عدو الحياه
سخرت بآنات شعب ضعيف   وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تدنس سحر الوجود   وتبذر شوك الأسى في رباه

لقد كان الشعب المصري يمد يده أمامه وهويسير، خوفا أن يصطدم بشئ وجد ولم يكن في الحسبان أن يوجد،وأصبح متوجسا حذرا قلقا لأن هناك أشياء كثيرة اختفت بدون مقدمات وبدون مبررات من عالمه، وما كان في يوم من الأيام يتخيل أو يتصور أنها تختفي أو تزول، لقد رصد تلك الحالة

الدكتور أسامه الغزالي حرب في كتابه القيم ((مصر تراجع نفسها)) " وفي الواقع فإن التشويش والاختلاط هما أبرز سمات الخبرة السياسية لذلك الجيل بشكل عام: إنها خبرة الانسلاخ عن عصر عبد الناصر إلى عصر أنور السادات، ومن الإشتراكية إلى الانفتاح. ومن الحزب الواحد إلى التعدد الحزبي، ومن العلاقة الخاصة بالاتحاد السوفيتي إلى العلاقة الخاصة بأمريكا، ومن الحرب مع إسرائيل إلى السلام معها، ومن العلاقة الوطيدة بين مصر والعرب إلى القطيعة شبه الكاملة ! تلك هي سمات ذلك العقد العجيب من حياة مصر – عقد السبعينيات الذي تغير فيه اقتصاد مصر، وسياستها ومجتمعها.. وثقافتها.وانعكس كل ذلك على ثقافة هذا الجيل وأفكاره وهزها بقوة، ولذلك لم يكن غريبا أنه الجيل الذي أفرز أكثر ((أمراء)) الجماعات الدينية وجماهيرها المتشددة، التي رأت في أفكار السلفية الدينية الحصن الأخير في مواجهة تلك العواصف التي هبت على مصر، ولذلك يمكن القول أيضا بأن الوقعة الأساسية التي أثرت على حياة هذا الجيل هي واقعة الانفتاح الاقتصادي بكل ما لابسه من تطورات قاسية ورد الفعل لهذا الانفتاح هو المحور الأساسي لسلوكيات هذا الجيل وتوجهاته " [1]

وكأن النظام الحاكم هانت عليه مصر، وهان عليه الشعب المصري، وكأن النظام الحاكم وحزبه تشكيل عصابي إجرامي، ساقته الأقدار والمقادير أن يكون متحكما في مصير الشعب، فكل ما على أرض مصر خرب ودمر وأفسد وأبطل وبيع وزور وزيف، اللغة الوحيدة التي يجيدها ويعرفها ويخاطب بها النظام الحاكم الشعب هي لغة القوة والبطش والقتل والإرهاب والتخويف والسجن والتعذيب والكذب والتضليل والتشويه، وياليته اكتفى

[1] مصر تراجع نفسها – د اسامه الغزالي حرب – صفحة (٦٥)

بإفساد حاضر الأمة، بل كان لهذا النظام وحزبه خلايا تخرج – بدرجة امتياز مع مرتبة العار – لصوصا وبلطجية وقوادين وخونة وجهلة وأغبياء وبلهاء وأبالسه وشياطين، صور لهم خيالهم المريض السقيم أن مصر وشعبها تراث من الممكن أن يرثه الابن عن أبيه،وأن من الممكن مصادرة وحجز ورهن والمقامرة بمستقبل هذا البلد كما فعل بحاضره !

ومصر تلك حالتها، ومصر هذا وضعها، لا ينتظر أن ترى شيئا ما وتصدقه، ولاينتظر أن تشعر بشئ ما وتستيقنه، ولا ينتظر أن تلهم بشئ ما وتؤمن به،ولا ينتظر أن تحلم بشئ ويتحول هذا الحلم إلى واقع وحقيقة، لقد سيطرت عليها حالة من عدم الثقة حالة من الشك والارتياب، حالة من الضبابية، حالة نفسية من اليأس والحزن والاكتئاب والأسى، في أحلك لحظات تاريخها الحافل الطويل، وفي أشد أزماتها القاتلة، وأمر مآزقها الخانقة لم تمر مصر بمثل تلك الحالة الغريبة والعجيبة والنادرة والخطيرة، لذلك قلت في أحد فصول هذا الكتاب لو لم تفعل الثورة شيئا سوى إخراج مصر من تلك الحالة لكفى الثورة فخرا وعزا وشرفا، لأن لا ندرى ما الذي كان سيصيب مصر لو امتد بها الزمن وهي على تلك الحالة،فالأمم تصاب بما يصاب به الأفراد من أمراض نفسية،والفرد المريض نفسا في حاجة إلى طبيب وجلسات استماع وجلسات علاج وأدوية، وفي حاجة إلى معاونة من المريض نفسه إلخ...... أما الأمم فهي في حاجة إلى الثورة كي تشفي بما ألم بوجدانها وضميرها من أمراض.

– حالة مصر بعد الثورة: لقد فزعت مصر وإرتاعت بما تكشفت عنه الأحداث عن كم الفساد والدمار والتخريب الذي لم يترك شيئا على أرض مصر إلا وقد وصمه ودمغه، نعم، كانت تعرف أن هناك فسادا وهناك دمارا

وهناك... وهناك... ولكن الحقيقة كانت مرعبة ومخيفة بكل المقاييس، إذن أين كان الشعب المصري؟ وأين كانت مؤسساته ؟ وأين كانت دولته؟ إن الفساد متغلغل إلى الجذور، معشش في الخلايا موجود في التلافيف. وكيف لمصر أن تتخلص من كل هذا ؟ كجراح بيده مبضعه ويريد أن يتخلص من ورم سرطاني لعين ممتد بأزرعته الإخطبوطية إلى كل أعضاء الجسم حتى الدماء، لذلك فمصر في حاجة إلى تنقية وتكرير دمائها، و مصر في حاجة إلى عمليه جراحية بيد أمهر الأطباء، وأعظمهم خبرة ودراية، ليس هذا فحسب، بل الأكثر حبا وإخلاصا وتفانيا لهذا البلد.فقد قامت مصر بثورة، والثورة لا تراد لنفسها، حتى لو أُريدت فقد لا تحدث، ولكن الأمم تريد بل تعشق الحرية والتغيير، كل شئ في هذا الكون مفطور ومطبوع على التغيير، والتغيير – عادة – يتم في بطء وعلى مراحل متعددة، ولكن قد تحول عقبات وموانع بين الأمة ورغبتها في هذا التغيير، وتظل مبررات ومطالب التغيير تتراكم، حينئذ لا تجد الأمة مناصا من الثورة، وهي السبيل الأوحد والمتاح والمقبول لكي تزيل الأمة تلك الموانع والمعوقات لتستأنف مسيرة التغيير وتنعم بثمار التقدم والتطور.

إذن على الناس إلا يفرحوا ويسعدوا – وإن كان من حقهم الفرح والسعادة – أنهم قاموا بثورة وأتوا بنظام غير النظام، وببشر غير البشر، وأصبحوا في حل من قيود وتشدد وتعنت النظام السابق، فما بعد الثورة أصعب وأكثر عسرا مما قبل الثورة، وأقصد بالصعوبة والعسر انفساح المجال وفتح الأبواب على الخيارات والبدائل المتاحة أمام الناس، فالثورات في حياة الشعوب أحداث فارقة وأوقات فاصلة، وأزمنة توتر وقلق وحيرة وتردد، منطقة انعدام وزن، الجاذبية لأي شئ ولأي جهة انعدمت، ولأول مرة تشعر جموع الشعب أن الأصفاد والقيود تكسرت، والحبال التي كانت تقيد حريتها

تمزقت، وأن الطرق والسبل والدروب التي كانت مؤصدة ومغلقة ومسدودة قد فتحت وتفجرت نورا وحرية بقدرة قادر، وما حدث له نفع وخطر في نفس الوقت، نفعه: أن ردت الروح أو عادت بعد طول غياب، وتصور كائنا رجعت إليه الروح، وخطر: أن بعد الثورة هناك سؤال محير، وماذا بعد ؟

كل الطرق والسبل مفتوحة.

كل الاحتمالات مطروحة.

كل البدائل في متناول اليد.

حرية الاختيار - اختيار أي شئ - مضمونة ومكفولة، بل هو الشئ الوحيد المضمون والمكفول في تلك اللحظة، وهذا ما يجعلها من أخطر اللحظات في حياة الشعوب، لا سيما تلك الشعوب التي سلبت الحرية منها طويلا، ونهب منها حقها في تقرير مصيرها، وقديما كان العبيد - أحيانا - لا يحبذون الحرية، ويؤثرون أن يبقوا في أسر العبودية، فهناك من يحمل عنهم مسئوليتهم ويكفيهم مشقة وعناء تحمل عبء وجودهم في تلك الحياة، لأن الحرية وإن كانت حلم وحق كل حي يدب على تلك الأرض خصوصا الإنسان، وأنها أعز وأسمى شئ إلى الدرجة أنها تتساوى والحياة، إلا أنها لها ضريبتها ولها أعباؤها ومسئولياتها، والفرق بين الأمم المتقدمة الراقية وغيرها من الأمم، أن الأولى قد أجادت استخدام أو أحسنت التصرف ووظفت تلك الحرية في مجالات عادت عليها بالنفع، وصانت وحفظت تلك الحرية، بأن قضت على أي صورة أو شكل أو وضع أو ظرف ينتقص من تلك القيمة، فالجهل ينتقص من قيمة الحرية والفقر والتخلف والظلم والاستبداد والبطش والقمع، فالأمة الجاهلة أو التي لا ترفع من قيمة العلم وتعمل على أن تأخذ به في جميع أنشطتها وتفكيرها، أمة منتقصة في حريتها، وكذلك الأمة الفقيرة، والأمة التي لا يسود فيها حكم القانون وترتفع فيها راية العدل أمة منتقصة الحرية، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "المؤمن

:

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير "، أظـن أن الخيرية هنا مناطة بالحرية فالفائدة العظمى للقوة هي الحرية، ولن تكون حرا إلا إذا كنت قويا، والجوهر الحقيقي للإيمان هو التحرر من كل قوى الشرك، وكل ما من شأنه أن يخرج الإنسان من دائرة العبودية المطلقـة لله الواحـد الأحد، واكتمال إيمان الإنسان مرتبط باكتمال حريته، وحينما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – "وفي كل خير" كان هذا ترغيب وحث وحض للمؤمن أن يكتمل إيمانه باكتمال حريته، وإذا اكتملت حريته فقد صار قويا ليس لأحد سلطان عليه.

:

حينما تنظر إلى حالة مصر قبل الثورة. وحالتها بعد الثورة، من العـسير أن تمسك القلم لتكتب، ولو حاولت ونجحت في المحاولة، أظن أن الكتابـة لـن تكون – بأي صورة من الصور – على مستوى الأحـداث، لأن الأحـداث المتجددة المتغيرة المسريعة المفاجئة التي لا عهد لمصر بهـا هـي سـيدة الموقف، وهي – الأحداث – إن تعطي ولن تسلم ناصيتها لأي كاتب أو مفكر أو محلل، لأن تلك الأحداث لاتملك من أمرها شيئا، وإن كنا نشك أن كثيـرا من الأحداث التي تحدث – لا سيما السيئ منها – عن تـدبير وقـد أعـدت وجهزت وأحكمت بليل وليل مظلم كئيب .

ومع كل ذلك فإنه يعز على الكاتب – أي كاتب – أن يقف أمام هذا الحـدث العجيب النادر العظيم القدري الذي يدفع ويثير ويحرك ملايين البـشر فـي زمان محدد ومكان محدد أن يفعلوا فعلا واحدا ويقولوا قولا واحدا ويفكـروا تفكيرا واحدا ليحققوا هدفا واحدا. إن لم يكتب عن هذا الحدث، فـلا عرفـت الإنسانية الكتابة، ولا عرفت الإنسانية القراءة، ولا عرفت الإنـسانية جـنس الكتاب.

وهنا الحيرة التي يشعر بها الكاتب، أن الحدث أكبر من أن يكتب عنه، وفي نفس الوقت لعظمة هذا الحدث يجد الكاتب نفسه مـدفوعا للكتابـة، ويجـد ضميره يؤنبه وقد يوبخه ألا يوفي هذا الحدث حقه، لقد فرضت الثورة حقها على الشهداء أن يقدموا دماءهم رخيصة عن رضا وطيب خاطر، ألا تفرض على الكتاب أن يكتبوا عنها ولو تحملوا المشاق، وتكبدوا المعاناة،والكل يعلم أن تحمل مشاق الكتابة أهون بكثير وأيسر من التضحية بالروح ؟!

وحينما نكتب عن ثورة حدثت في مصر، فأنت لا تكتب عن حـدث محـاط بزمان ومكان ومألوف للناس، إنها حدث لا يشابه كل الأحداث، ولحظـة لا تماثل كل اللحظات، فهو حدث فريد في نوعه، ولحظة لا تتكرر ولا تحـدث إلا مرة واحدة، فالوسائل والأدوات التي يستعان بها في الكتابة تختلـف – أو يجب أن تختلف – عن تلك الوسائل والأدوات التي يستعان بها للكتابة عن أي حدث آخر، أو على الأقل هذا الحدث في حاجة إلى نظـرة ورؤيـة وفكـر مختلف، وإلا فنحن نهجن الحدث، نستأنسه، نقلمه، نعقلنه، وإذا فعلنـا ذلـك فنحن لا نكتب عن الثورة، كما تمت وحدثت ووقعت، وإنما نكتب عن أنفسنا وليس عن الثورة، نكتب عن وقع الحدث في نفوسنا وعقولنـا وضـمائرنا، ومعروف أن الخروج عن محيط الذات جد عسير، وليس بالأمر الهين، حتى ولو بدأت نكتب بموضوعية، فجأة ستكتشف أنك بدأت – وبـشكل حلزونـي ناعم وزلق – تدلف إلى محيط الذات.

فالكتابة بموضوعية مطلقة عن الثورة – كما قلنا – جد عسيرة، وتـستدعي رقابة دائمة ومراجعة ويقظة، وقد يجد الكاتب صعوبة ومشقة، ولكن كل هذا يهون في سبيل أن تكتب، ومثل تلك الكتابة – بهذه المواصفات – قد تغضب أول ما تغضب صاحبها، لأنه وهو يكتب لا سلطان له على الكتابة، وإنما هي شئ يتكون ويتخلق ويتبدى ويتكشف، متحديا رغبة وإرادة الكاتـب نفـسه،

بدليل أن بعض الكتاب يكتبون ثم يمزقون ما كتبوا، وبعض الكتاب يكتبون ثم يتبرأون مما كتبوا، وبعض الكتاب يكتبون ويتعجبون ويستغربون مما كتبوا.
وإذا كانت الكتابة قد تغضب صاحبها فمن باب أولى تغضب الآخرين،وإذا أغضبت الآخرين فما العجب في ذلك ؟! فنحن – الآن في مصر – في مواسم الغضب، فالجميع غاضبون، وشئ محمود أن يكون الناس غاضبين، طالما يوجد مبرر للغضب، والشئ الأكثر حمدا أن يكون هذا الغضب نبيلا، أي يدفعنا لنتغير إلى الأفضل وإلى الأحسن، وأن يكون سبب الغضب – النبيل – تعرض المصلحة العليا للبلاد للتهديد والخطر، فهذا الغضب خرج بنا عن النطاق الضيق إلى النطاق الواسع الأرحب، وإذا غضبت الأمة المصرية – ولابد لها أن تغضب – واستفرغت هذه الشحنات المدمرة من الغضب في الإصلاح والتغيير، فهي أمة سوية عفية ؛ لأنها لم تكظم ولم تكبت ما يشتعل تحت الضلوع، ولم تحبس ما يغلي في الضمائر والصدور، وإنما عبرت عن نفسها بكل حرية وانطلاق، وهذا يحقق ذاتها، وطالما شعرت بذاتها حرة منطلقة، فسوف تبني وسوف تعمر وسوف تتقدم وتتطور، إذن لنغضب وليغضب المصريون ولتغضب مصر، طالما هو غضب نبيل راق يليق ويتناسب مع عظمة أبناء هذا الوطن وعظمة الوطن نفسه.

وتلك فصول كتبت عن الثورة أو في الثورة، الدافع لكتابتها، أني رأيت أن هناك دينا للثورة في عنق كل مصري يجب أن يوفيه ويؤديه – كل على حسب طاقته – وبالفعل البعض قد أدى الدين مستوفيا في ذلك وهم الشهداء، والبعض يفكر في تأديته، والبعض لم يفكر والبعض لا ينوى أن يفكر في كيفية التأدية، ولكن يبقى الدين مرفوعا على رؤوس الجميع، وكما قال شوقي – رحمه الله –

وللأوطــان في دم كل حر يد ســلفت ودين مستحق

وللحرية الــحمراء باب بكــل يــد مضــرجة يدق

ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يحق

الشباب والثورة

جيل جديد

هما أمران متلازمان، أي منهما يستدعي الأخر، فحينما يأتي ذكر الشباب فمن أول لوازمه الثورة والتمرد، وحينما تذكر الثورة يتبادر – أول ما يتبادر – إلى الذهن الشباب، فلا ثورة بدون شباب، ولا شباب إذا لم يكن هناك ثورة.

والأمران – في مصر – لهما عجب الأعاجيب.

فالشباب لا يظفر بشئ مما يظفر به الشباب عادة، ولا يساهم بشئ مما يساهم به الشباب، وليس له من صفات وسمات وخلال تلك المرحلة سوى الاسم فقط، حتى الاسم فرغ من كل معانيه، وحمل معاني اليأس والاحباط والحزن والهزيمة والضياع والتهميش.. إلخ.

وإذا كان الشباب– كما يقولون – هو العمود الفقري لأي أمة، ولقد قام الشباب في فترة مبكرة من العصر الحديث بواجبه خير قيام، وأثبت وجوده، وأكد حضوره، وأعلن بكل قوة وصدق وجرأة عن تأثيره المباشر في مجريات الأمور في وطنه، حتى أصبح تواجد الشباب على الساحة ظاهرة يمكن رصدها " **يمكن أن نرصد ظاهرة نوعية خاصة بالتاريخ المصري الحديث ألا وهي الفعالية البالغة للشباب في الحلقات المتتابعة للحركة الوطنية المصرية وهو ما يمكن أن نلاحظه في الثورة العرابية وحركة**

مصطفى كامل وثورة ١٩١٩وفي المرحلة ما بين ثورتي ١٩١٩ و١٩٥٢ ثم المرحلة التي تلت هزيمة ١٩٦٧ وتعبر الأجيال الشابة عن نفسها مـــن خلال الحركات الطلابية والاحتجاجية، وقد دفعت ضخامة دور الطلبـــة فـــي الحركة الوطنية كاتبا مثل والت لاكير لأن يقرر فـــي كتابـــه ((الـــشيوعية والوطنية في الشرق الوسط)) أن التاريخ لا يعرف مجتمعا لعب فيه الطلبة دورا طليعيا مثلما حدث في مصر، وتلك حقيقة يؤكدها استقراء تاريخ مصر المعاصر "[2]إلا أن هذا لم يدم، فإذا كان الشباب هو العمود الفقري للأمة فإننا أمة لا فقرية ؛ لأنه تم إقصاء وإبعاد متعمد مع سبق الإصرار والترصد، من كل المواقع والمراكز الهامة والمؤثرة، وترتب على ذلك أمران:

- أن فقد الشباب ثقته في نفسه، وفقد الرجاء في أمته.
- أن الأمة أصابها الهرم والعجز والشيخوخة، جمـــدت الـــدماء فـــي العروق، ولم تعد العروق شـــرايين الحيـــاة التـــي تـــضخ النـــشاط والحيويةإلى أجزاء الجسم، فضعف الجسم ووهـــن وتكالبـــت عليـــه الأمراض والعلل والآفات من كل حدب وصوب.

وأنت إذا أردت أن تحدد جيل الشباب الآن في مصر، أو أجيال الشباب فيما مضى سيعجزك الأمر أيما إعجاز، لأنك لا تحدد جـيلا مـــا إلا بكـــم مـــن الإنجازات، أو بسمة أو علامة فارقة ترتب عليه تغير أو تطور في مـــسار أمة، والأمر يكون في غاية السخف لو تم تحديد جيل ما بالشريحة العمريـــة، لأن هنا فكرة الأجيال ستصبح لا معنى لها وليست لها أي دلالة على حـــدث أو فعل أثر في السياق التاريخي لأمة ما " ((الجيـــل)) بـــالمعنى البـــسيط المجرد يقصد به شريحة عمرية من البشر وعادة ما يجرى الحـــديث عـــن الأفراد الذين ينتمون إلى سنوات متقاربة في نطاق عشر سنوات باعتبارهم

[2] الأجيال في السياسية المصرية – دراسة حالة جيل السبعينيات – أحمد التهامي عبد الحي- صفحة (٢٢)

أبناء ((جيل واحد)) ففي لحظة معينة يعتبر الذين هم في العشرينات من عمرهم أبناء جيل واحد يختلف عن جيل من هم في الثلاثينيات أو جيل من هم في الأربعينيات.. إلخ "[3]

الجيل يجب أن يكون خطا فاصلا له ما قبله وله ما بعده، ينسب إليه عمل عظيم، أو ينتسب إلى عمل عظيم، أو عاصر أحداث وظروف وأحوال كان لها تأثير في إحداث تغيير جوهري في مسار الأحداث، حينئذ يكون مرجعنا في تحديدنا لمفهوم الجيل الفعل أو الحدث المنجز، أو ظروف وأحوال غير معتادة **" غير أن فكرة ((الجيل)) تصير أكثر تعقيدا، عندما تنسب إلى أحد مجالات النشاط الإنساني، مثلما يمكن أن يتم الحديث عن الأجيال المتعاقبة من ((الأدباء)) أو ((المفكرين)) أو ((العلماء)).. إلخ وفي هذه الحالات فإن المسألة لا تقتصر على اشتراك أبناء الجيل الواحد في سن متقاربة وإنما على اشتراكهم في خبرات واحدة، أيضا ودعوتهم لأفكار وقيم متناسقة أو تعبيرهم بأساليب مميزة، وبالتالي فإن المرحلة العمرية التي تجمع بين أبناء الجيل الواحد قد تتجاوز السنوات العشر أو تقل عنها حسب الأحوال "**[4]

عواصف وأعاصير

وطالما أبعد الشباب عن المراكز أو المواقع الهامة والمؤثرة، وسلبت منه الفرصة واغتصبت منه إمكانية القيام بدور ما، فسوف نستعيض عن هذا بظروف وأحوال أو صفات وسمات تجمع أو تستغرق فئات معينة من الشباب، وخط أو ملمح التأثير والتأثر متواصل ومطرد بين الأجيال، وإن

[3] مصر تراجع نفسها – د. أسامة الغزالي حرب – صفحة (٦٠)
[4] المرجع السابق – صفحة (٦٠)

كان ملمح التأثر غالبا، فالأجيال أغلبها متأثر بما يحيط بهـا مـن ظـروف وأحوال، الشباب مستقبل أكثر منه مرسل، متلق أكثر منه متصدر، مقلد أكثر منه مبدع، تابع أكثر منه متبع، وجيل هذا شأنه تكون قدرته على المقاومة والصمود ضئيلة، ولسوء حظة أن التغيرات والمستجدات والتحولات كانـت أكبر من قدرته ليس على المقاومة فحسب، بل على الفهم والاستيعاب، والذي يجسد تلك الصفات، جيل من الأجيال المصرية وهو ما يطلق عليه الباحـث جيل أنور السادات " **الجيل الخامس الموجود على ساحة السياسة المصرية الان هو ما يمكن أن نطلق عليه بحق ((جيل أنور السادات)) وهو يشمل أولئك الذين ولدوا بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الـستينيات تقريبـا، أكبر أبناء هذا الجيل لا يتذكر سوى القليل عن جمال عبد الناصر لذلك فإن معرفته به جاءت بطريق غير مباشر من خلال أحاديث الأهـل والأصـدقاء ومن خلال وسائل الإعلام، وهي كلها معلومات تراوحت بين أقصى الإشادة وأقصى الإدانة وفي الواقع فإن التشويش والاختلاط هما أبرز سمات الخبرة السياسية لذلك الجيل بشكل عام: إنها خبرة الإنسلاخ عن عصر عبد الناصر إلى عصر أنور السادات، ومن الإشتراكية إلى الانفتاح، ومن الحزب الواحد إلى التعدد الحزبي، ومن العلاقة الخاصة بالإتحاد السوفيتي إلـى العلاقـة الخاصة بأمريكا ومن الحرب مع إسرائيل إلى السلام معها، ومـن العلاقـة الوطيدة بين مصر والعرب إلى القطيعة شبه الكاملة ! تلك هي سمات ذلـك العقد العجيب من حياة مصر – عقد السبعينيات الذي تغير فيه اقتصاد مصر وسياستها ومجتمعها.. وثقافتها وانعكس كل ذلك على ثقافة ذلـك الجيـل وأفكاره وهزها بقوة، ولذلك لم يكن غريبا أنه الجيـل الـذي أفـرز أكثـر ((أمراء)) الجامعات الدينية وجماهيرها المتشددة، التـي رأت فـي أفكـار السلفية الدينية الحصن الأخير في مواجهة تلك العواصف التي هبت علـى مصر، ولذلك يمكن القول أيضا بأن الواقعة الأساسية التي أثرت على حياة**

هذا الجيل هي واقعة الانفتاح الاقتصادي بكل ما لابسه من تطورات قاسية ورد الفعل لهذا الانفتاح هو المحور الأساسي لسلوكيات هذا الجيل وتوجهاته"[5]

كل الندوب والتشنجات والسجحات والتشققات والانشقاقات والتصدعات التي أصابت الوجدان المصري كانت في تلك الفترة، وكالنجوم التي تندثر أجرامها ولكن يظل ضوؤها يصل إلينا، انقضى هذا العقد – السبعينيات – وتوالت بعده عقود، ولكن ما زالت آثاره ترفد الحاضر وتلقي ظلالها على المستقبل، والخطير في الأمر أن تلك الأحداث والظروف والأحوال – والتي كانت في نطاق السيطرة، وأغلبها خرج من نطاق السيطرة والتحكم فيه، وبدأت تفعل فعله الشيطاني في خلايا المجتمع المصري متلفة ومدمرة – صاغت وشكلت وكونت عقول وضمائر شرائح لا يستهان بها من الشباب، وللأسف افتقدت تلك الصياغة الجمال، والتشكيل افتقد التناسق، والتكوين افتقد الأساس المتين، وإذا بتلك الشرائح – وهم ثروة مصر وحياتها ومستقبلها – أشكال بلا مضامين، أدمغة بلا عقول، قلوب ولكنها لا تنبض بالحيوية والنشاط، ضالين تائهين حائرين متخبطين ضائعين، وكان هذا هو حال الشباب في الثمانينيات **"غير أن السمة الأساسية لأبناء هذا الجيل هي ((القلق)) بفعل ضغط مطالب الحياة التي يعانيها ذووهم وشبح البطالة الذي يؤرقهم، كما أن التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة بينهم تجعل منهم ((عوالم)) مختلفة مشتتة ثقافيا وفكريا، والذكريات التي يستمعون لها عن عبد الناصر والأفكار التي تعرض عليهم عن البدائل السلفية أو الاشتراكية للوضع القائم**

---

[5] المرجع السابق – صفحة (٦٥)

تجعلهم رصيدا محتملا لاتجاهات سياسية متباينة خاصة في ظل تـشتتهم – منذ اللحظات الأولى – على قيم التعددية السياسية وحرية التعبير"[6]

إذن هناك أخطاء متراكمة، تنتقل من جيل إلى جيل، تراث يتضخم بمـرور الأيام، أجيال جديدة تظهر إلى الوجود ترث تلك التركة، ولـيس هنـاك أي مبرر يجعلها تقبل هذا الوضع المأزوم والواقع المخنوق، ورفضها أكثر راجع أن الدولة فقدت السيطرة في تنشئته وتكوينه عقليا ووجدانيا، تكـون خـارج رحم النظام، فلم يعد يشعر بأي انتماء لهذا النظام، والذي أصـل مـن هـذا الوضع أمور منها:

- تراجع وضعف وانصراف الدولة عن مسألة التنشئة والتكوين للشباب.
- الثورة والانفجار المذهل والهائل والتقدم غير المسبوق فـي وسـائل الاتصال التكنولوجي، الذي يضعف ويقوض سيطرة وهيمنة أقـوى الدول على شبابها، فما بالك لو كانت تلك الدولة ضعيفة، ومنصرفة أصلا عن أن توجه شبابها أي وجهة تريد.
- تخلي وتراجع وانسحاب الدولة المصرية عن دورها التاريخي إقليميا وعالميا، وهذا أحدث ما يشبه الزلزال الصامت في نفـوس الـشباب وبالأخص إبان اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، وموقف الدول العربيـة السلبي والمتخاذل لا سيما مصر، وأيضا أثنـاء الغـزو الأمريكـي للعراق واحتلاله " **ويلاحظ أن بداية القرن الحادي والعشرين تـشير لظهور جيل سياسي جديد بدت ملامحه في الظهـور منـذ انـدلاع الانتفاضة الفلسطينية والعدوان الأمريكي على العراق، كما بـرزت قطاعات جديدة من هذا الجيل تتفاعل مع السياسة وتمارسها ولكن بطريقة مختلفة عن تلك التي مارستها التيارات الأيدلوجية، وانبرى قطاع واسع من الشباب في استخدام الوسائل الإليكترونية والإنترنت**

---

[6] المصدر السابق – صفحة (٦٥- ٦٦)

وشارك طلاب المدارس في معركة الإنترنت، وارتبط ذلك بتفريغ الأحزاب السياسية وكثير من التنظيمات الحزبية من أعضائها وأصبح من الوارد أن تجد شباب يكتسبون مهارتهم السياسية عبر الإنترنت وعبر الحوار الإلكتروني العابر للقارات وليس عبر الانضمام إلى خلية حزبية وهيكل تنظيمي. ولا زالت هذه الصور الشبابية في طور التكوين إلا أنها بلا شك تحمل فرصا هائلة للتطور والتواصل مع ما يجري في العالم الديمقراطي وفي صياغة صورة جديدة للعمل السياسي " [7]

هذا الجيل أعرض أن يمارس السياسة بالشكل العتيق والذي أصلا كان لا يجيده ولا يهواه، فقد أقيمت بينه وبين السياسة أسوار وجدران، فهي بالنسبة له نوع من العبث ولا جدوى منها حتى وهو يستخدم الوسائل التكنولوجية وآليات الاتصال الإليكتروني لم يكن في ذهنه أي هدف سياسي، وإنما كان يعبر عن نفسه كإنسان ومواطن في مكان ما وفي زمان ما، في هذا العالم الذي بدأ يكتشف مدى اتساعه وأمتداده، وكذلك مدى تطوره وتقدمه، واحتضانه لقيم العدل والحرية، وبعدما اطلّع على كل تلك التجارب الناجحة للشعوب المتقدمة تاقت نفسه أن يجد هذا متحققا في بلده، ووجد السبيل إلى ذلك أن يكون إيجابيا متفاعلا مشاركا متحاورا مفكرا مقارنا، وبدون أن يدري بعمله هذا كان مغموسا في بحار السياسة المتقلبة، ووجد في سماوات العالم الإفتراضي مساحات شاسعة في التعبير بكل انطلاق وحرية وإيجابية، ولأول مرة في التاريخ يجد الشاب المصري عالما لا يصادر حريته في أن يعرف كل ما يريده بدون رقابة وبدون حظر وبدون منع، ولا يكبت انطلاقه، لا ظلم لاستبداد لا قهر لا حرمان لا فقر، إنه عالم إفتراضي ولكنه عالم قائم بذاته، وجد الشباب المعادل الموضوعي لعالمهم الحقيقي، وبطول المعايشة ودوام

---

[7] الأجيال في السياسة المصرية – دراسة حالة جيل السبعينيات – أحمد التهامي عبد الحي (٣٢)

الخبرة، ولأن كل ما يطلبه الشباب في هذا العالم متحقق بصورة أو بـأخرى أعتبر الشباب أنفسهم أفراد من هذا العالم، نمت علاقة تشبه علاقة المواطنـة بينهم وبين هذا العالم، العلاقة أصبحت وثيقة، ومن ناحية أخـرى ضـعفت ووهنت علاقتهم بعالمهم الواقعي ووطنهم الحقيقي، وبذلك تحول الواقعي إلى افتراضي والافتراضي إلى واقعي، أو هم – الشباب – حـاولوا بكـل نبـل وإخلاص وحب أن يجسدوا ملامح وسمات وصفات هذا العالم، في البدايـة أرادوا أمراً ما، وفي النهاية اكتشفوا أن تنفيذ هذا الأمر وتجسيده وتحقيقه لن يتم إلا بعملية إزاحة وإبدال وتغيير، فشمروا عن سواعدهم لإنجاز هذا العمل وتنفيذ ذلك المشروع، وفي الحقيقة لم يكن هناك هدف واضح كل الوُضـوح يسعى هؤلاء لتحقيقه، وفي العادة يكون هناك هدف تضعه أمامك وتسخر كل الطاقات والإمكانات لتحقيقه، وقد يتحقق أو لا يتحقق، وفي حالة أخرى يكون هناك هدف مبهم وغامض ليس له ملامح أو اسم، قوة ما تدفعك للعمل وتجد كل متعتك وسعادتك في هذا العمل، وفي وقت ما يتحقق هذا الهدف، أنت لم تسع سعياً لتحقيقه، ولكنه تحقق، هنا يتوافر عنصرا اللاقصدية واللاعمديـة، هنا أنت لا تحقق هدفاً، وإنما تجسد حلماً، وإذا تجسد الحلم فقد تحقق عالم ما. ربما كل جهد هؤلاء لا يخرج عن العالم الإفتراضي، وإن كان هذا – في حد ذاته – يرضيهم ويحقق لهم اتزاناً نفسياً، ويروي ظمأهم إلى العدل والحرية، إلا أنه له جانب غير محمود، أنه ينمي لديهم إحساساً بالانعزال أو التغريـب أو التغييب عن عالمهم الواقعي، ولكن لحسن حظهم أن الوضع في مصر أو النظام في مصر كان متهالكاً مهلهلاً، نخر السوس في دعائمه، وبدأت أركانه تتهاوى، ولا ينبغي أن نقول هذا لتبرير نجاح هؤلاء، لأنه قد تكـون الأرض ممهدة ومجهزة لاحتضان بذور الثورة، ولكن لا تهب رياح تحمل في ثناياها تلك البذور، وقد تحمل رياح تلك البذور وتلقيها للأرض ولكن لا يكون هناك مناخ يوفر لتلك البذور الفرصة للإنبات، وقد تكون الأرض ممهدة والبـذور

متوافرة والجو مناسب، ولكن لأمر ما لا تثمر تلك البذور أي ثمر، ولا تلقي بأي ظل، فهناك عوامل قدرية تتدخل في إحداث الثورة، وعلى كل ذلك فنحن نرصد ونسجل واقعا بكل ملامحه وتضاريسه، لنقول إن هؤلاء لو لم يحركوا أو يثيروا الثورة لجاءت من أي جانب أو أي جهة، فكل هؤلاء عوامل مساعدة في إحداث الثورة، وهذا في حد ذاته لا يقلل من عملهم وجهدهم ودورهم، ولئن أردنا أن نضع أيدينا وأعيننا على سمات وملامح وخصال الجيل الذي حدثت الثورة على يديه، أو تفجرت الثورة في زمنه أو دفعته الثورة ليثور، فلن يتسنى لنا ذلك إلا بمعرفة المؤثرات والعوامل والضغوطات التي ساهمت بشكل أو بآخر في بلورة وصياغة عقل ووجدان هذا الجيل الذي لا نريد أن نسرف عليه أنه مفجّر الثورة أو القائم بها، فعلى الأقل أنه أوتي ذكاء وحنكة وخبرة وإخلاص وإيمان في كيفية التعامل مع الثورة،وأنه أجاد استغلالها واستخدامها واستثمارها، ووصل بها إلى غايتها وهدفها، فأي خطأ مقصود أو غير مقصود، أو سوء تصرف في تلك الأيام الهامة والحرجة والعصيبة والخطيرة في تاريخ مصر الحديث، كفيل أن يقضي على الثورة قضاءا تاما. هذا الجيل من الشباب الذي لا نملك إلا أن نقف أمامه بكل إجلال واحترام، ونتعجب ونتساءل من أين أوتي بهذا الإيمان الراسخ في زمن فقد الأمل في أي تغيير ؟ من أين أوتي بهذا التصميم والإرادة القوية الجبارة، في زمن انصهرت وذابت مراكز المقاومة ومواطن الإرادة ؟ كيف تحمل الجيل هذا الكم الهائل من الإرهاب والتخويف وكل تلك الحيل والأساليب والوسائل التي أخرجها النظام السابق بكل وقاحة وفجاجة ليعزل الثورة عن وقودها فتنطفئ في أيامها الأولى، أو يمنع عنها الهواء والنفس فتموت خنقا ؟ كنت أقول دائما إن الإنسان لن يخرج أعظم وأقوى طاقاته المدخرة، ولن يفجر رصيده من الإرادة والقوة إلا إذا تعرض وجوده للخطر. وحياته للتهديد المحقق، حينئذ يستحيل هذا الإنسان إنسانا آخر، فإن كان

ضعيفا واهنا متخاذلا مستسلما، نجده قويا صلبا مقاوما محاربا. وهذا ما حدث لمصر، تعرض وجودها للخطر ويقاؤها للتهديد، وفي لحظة أرادها وقـدرها الله، أخرجت مصر مكنونها وذخرها، فجرت آخر ما لديها من طاقة، دفعـت من قلبها الحار كل ما لديها من دماء، وإما أن تتحول – بعد ذلك – مـصر إلى كائن قوي يتفجر نشاطا وحيوية ممتلئ بالصحة والعافية والفتوة، وإما أن تصاب بجلطة دماغية أو سكتة قلبية، بعد المجهود الجبار الذي بذلته، وكـان ما أراد الله.

- العوامل المساعدة أو المهيئة لحدوث الثورة: .

– وصف حالة ورصد أعراض

لا نبالغ إذا قلنا إن الشعب في مصر في السنين الأخيرة كـان كأنـه نـائم واستيقظ فجأة، كأنه كان مخدرا وانتهى مفعول هذا المخدر، كيف وصلنا إلى تلك الحالة ؟! ما هذا الوضع الذي صرنا إليه ؟! ما الـذي جعلنـا نـصبر ونستكين ؟! ما الذي جعلنا نرضى ونستسلم ؟!

ولا ندري أهذا راجع إلى مدى قوة وهيمنة وسيطرة النظام الحاكم، بحيـث سلب من الشعب حواسه، وأجرى له عملية جراحية استأصل فيهـا مراكـز الإرادة والمقاومة والرغبة في التغيير والأمل في التطور والتقدم، وأوهمه أن ما به عيوب خلقية، وينبغي أن يعيش ويتكيف ويتلائم مع عدم وجـود تلـك المراكز، ونجح النظام في اقناع الشعب بذلك واقتنع الشعب ؟.

أم أن الشعب المصري قد أصيب بحالة من اليأس والإحباط بعدما تكـسرت أغلب أحلامه الكبرى وتحطمت معظم أمانيـه العظمـى، وسـقطت أكثـر مشروعاته ؟

أم أنه أصيب بحالة ضعف ووهن بعد كل تلك المعارك ومراحل الكفاح والنضال التي خاضها على مدى طويل من الزمن، ورأى أن يركن ويخلد إلى الراحة والدعة، وينعم بغفوة، للأسف طالت وأمتدت ؟

أراد النظام أمرا، وصادف هذا الأمر هوى من الشعب، أو كان الشعب مجهزا ومهيئا ومتوافقا مع هذا الأمر، فحدث ما نسميه التوافق والإتفاق مع أغراض النظام، ومع ميول ورغبة وهوى الشعب، إذن هنا عملية رضا وتراض، اتفاق وتوافق تآلف وإئتلاف، وهذا يفسر حال الشعب طوال العقود الثلاثة الماضية، أنه كان هناك حالة من التغافل والتخادع، أو أن النظام يستغفل الشعب والشعب لا يمانع، والنظام يستخدع الشعب والشعب لا يعارض، والنظام يستذل الشعب والشعب لا يقاوم.

هنا اللوم لا يقع على النظام وحده وإنما على الشعب أيضا، لأن الشعب كان في إمكانه أن يمانع ويعارض ويقاوم، وإلا فمن قام بالثورة غير الشعب المصري ؟! الذي كان يعيش في هذا العالم، وفي تلك البقعة من الأرض، لا أظن أن هناك مخلوقات غريبة هبطت علينا من القمر أو من أي كوكب آخر، ولا أظن أن الناس تبدلوا وتغيروا بين عشية وضحاها، أو نزل عليهم وحي من السماء آمرا لهم بالثورة فثاروا.

ما قام بها الشعب المصري في يناير ٢٠١١ كان من الممكن أن يقوم به قبل ذلك، ولكنه لم يقم به.

إذن كان الشعب المصري راضيا عن أحواله وأوضاعه وظروفه طوال الثلاث عقود الماضية.

أو لم يكن راضيا، ولكنه لم يكن راغبا في التغيير.

أو كان راغبا في التغيير والثورة، ولكن تلك الرغبة لم تكن من القوة والإلحاح بحيث ينفذها اليوم قبل غدا.

أو كان يخشى من الثورة ويهابها.

أو أن طبيعته لم تكن تطاوعه فهو يميل إلى الهدوء ويعشق الاستقرار، ولكن ما كان لهذا الميل وهذا العشق أنْ يجعلاه يؤثرهما على عزته كرامته

أو أن تركيبته الكيماتية النادرة، ومزاجه العجيب قد نالهما شئ من الاختلال والتغير لأسباب كثيرة.

أيما كان الأمر فإنه كانت هناك حالة للشعب المصري دفعته أن يعد للثورة؛ وإن لم يكن في نطاق العمل والفعل، فقد كان في نطاق الضمير والعقل.

- خطيئة نظام وسقطة حزب.

ولأن النظام أو الحزب الحاكم أفلس بعدما تحلل كيانه وتآكل، وأصبح وجوده في جميع أنحاء مصر مجرد هياكل ولافتات تشير مجرد إشارة عن وجود شكل من الأشكال المنقرضة التي لم تعد متوافقة مع الزمن ولا متلائمة مع مطالب أمة، تلك المطالب التي تتراكم وتترسب كل يوم بدوون أن تبحث بحثا عقليا، ومشاكل وقضايا لا توجد نية لحلها، ولأنه عجز عجزا شنيعا عن إصلاح نفسه فقد أراد أن يجمد كل من وما حوله، بل أراد أن يلقي عباءة الجمود والظلام على مصر كلها، ليس هذا فحسب بل يجرها جرا إلى الوراء، فبدأ بالتخريب المتعمد للحياة السياسية من خلال تقويض الأحزاب للقضاء عليها، وتجريف طبقة النخبة، بتزوير الانتخابات وإقصاء وإبعاد والقضاء على أي رمز من رموز الحركة الوطنية، والدفع دفعا بشخصيات جاهلة غبية حمقاء وقحة ليس لها ولاء أو أي انتماء للوطن أو مصلحة مصر، كل ولائها للحزب الحاكم، وذلك نظير الحصول على مكاسب شخصية، إلى درجة أن انتخابات ٢٠١٠ كشفت وعرت وفضحت الوضع السيياسي، وأن الأمر ليس فسادا سياسيا فحسب، بل وصل الأمر إلى درجة الفجور والفسق الإخلاقي، ولأول

مرة في تاريخ مصر يصل الأمر بحزب يتحدى جهرا وعلنا مصر كلها، ليس هذا فحسب بل يخرج لها لسانه، ويدير لها ظهره غير مكترث ومستهتر ومستهزئ وساخر ومستهين " فإن تجنيد أعضاء جدد في الحزب الحاكم والدولة وتجنيد النخبة إنما يأتي من غير المسيسين أساسا، فمنطق الدولة المصرية هو عدم الاستعانة السياسية بالناشطين سياسيا في شبابهم خصوصا إذا كانوا من قادة حركات الاحتجاج إلا بشروط معينة، وبالاضافة إلى ذلك فإن هناك العديد من رموز الجيل الوسيط والشباب ممنوعة من دخول دوائر النخبة الحاكمة بسبب انتمائها للتنظيمات المعارضة، ويلاحظ أن أعضاء لجنة السياسات ووزراء الدكتور أحمد نظيف يأتون من فئة التكنوقراط الذين ليس لهم علاقة بالعمل السياسي ويعد هذا استمرارا للتقليد الذي ارتبط بثورة يوليو، وهو الاستعانة بفئة التكنوقراط غير النشطة سياسيا والاعتماد عليها حتى صارت عنصرا أساسيا في الحكم، فالنظام في مصر عندما يلجأ لتطوير نفسه لا يلجأ إلى أصحاب التوجهات السياسية وبالتأكيد فإن هذا يترك آثارا مهمة على فكرة العمل السياسي الذي يصبح أكثر تكلفة وخطورة ويجعل التركيز على العمل البيروقراطي وتنمية المهارات التقنية أكثر جدوى فهي مهارات مفيدة لأي نظام.

ومن جهة ثالثة ترتبط الأزمة بطبيعة الأحزاب السياسية والديموقراطية الداخلية فيها والتي يؤثر فيها القانون الحديدي للأوليجاركية كما تتأثر عملية التجنيد السياسي بالنمط التنظيمي للأحزاب، وتؤثر بدورها في العلاقة بين الأجيال، ففي ظل ضعف الديموقراطية الداخلية فإن الجيل

المسيطر يميل إلى تجنيد وترقية الأعضاء الأكثر ولاء وسمعا وطاعة وتهميش الأعضاء الأكثر قدرة على التمرد" [8]

الخوف من الشباب.

ليس هناك من تفسير لإقصاء الشباب من سيناريو الحكم وكيان وبنيان الدولة، إلا لأنه يوجد فزع وخوف من فكرٍ ودماء وحيوية الشباب، وأي أمة في حاجة أن تجدد دماءها، تنشط خلاياها، تفعل مراكز الحركة تزيد من وتيرة التقدم والتطور، ولكن في فترة ما تكون تلك الأمة هرمة، أو أريد لها أن تكون كذلك، كل شئ فيها يتفق مع منطق كبار السن، ثبات، استقرار، بطء، جمود، تحجر، تخلف، لا اندفاع لا انطلاق لا تغيير لا مسايرة لمنطق الزمن أو العصر،عالم يستمد فكره وتوجهاته من عصور موغلة في القدم، وأي شئ يخالف ذلك تحل عليه اللعنة، لأنه يخالف ويعارض المنطق الذي يسير عليه هذا العالم الفاسد المتخلف، أما أحلام الشباب وحماسهم واندفعاتهم ومشروعاتهم وأمانيهم وطهارتهم ونقائهم وإيمانهم وإخلاصهم، فهي من المحرمات والممنوعات شرعا وقانونا، ويعتبر الذي ينادي بذلك أو يدعو إلى ذلك من الخائنين الذين ارتكبوا الخيانة العظمى في حق وطنهم، والعجيب أن هذا المنطق لم تكن ترعاه الدولة والنظام فقط بل انتقلت عدواه إلى الأحزاب التي كانت من المفروض أن تعارض النظام في كل شئ، فإذا كان يقصي ويبعد الشباب من صفوفه، فكان يجب أن تدفع بالشباب في الصفوف الأولى، وأن يتصدروا واجهات الأحزاب ويكونوا هم الذين يضعون البرامج وهم الذين يتحدثون وهم الذين يهيمنون، ولكن أبت الأحزاب إلا أن تنافس النظام، عن إبعاد الشباب عن كل المراكز المؤثرة والهامة

---

[8] الأجيال في السياسة المصرية – أحمد التهامي عبد الحي (٢٥٣)

" ويلاحظ أن متوسط أعمار الوزراء في الحكومة المصرية في ١٩٩٤ كانت ٦٣عاما، وكانت هذه الحكومة الأطول عمرا في تاريخ مصر الحديث وقد حدث نوع من الثبات والاستقرار في عملية الجمود السياسي سواء في الدولة أو المعارضة حتى أن ما تدعيه المعارضة على الحكومة تقع فيه المعارضة، فرؤساء الأحزاب لا يتغيرون، وهناك غياب لتداول السلطة وقد بدأ النظام يدرك المخاطر المترتبة على هذا الجمود، فبدأت عملية حراك جيلي مرتبطة بعملية التغيير وتجديد النخبة مازال أمامها الكثير من الوقت حتى تكتمل " [9]

مصفاة عملاقة تتحكم في كل نواحي وأنشطة الحياة السياسية وغير السياسية، تمرر وتسمح لكل شئ وأي شئ إلا الشباب، هم كالشوائب ينبغي فرزهم وإبعادهم، وتنقية وتطهير وتنظيف المجتمع منهم، فلا استقرار ولا أمان ولا هدوء إلا وهم مبعدون في أودية الإهمال والنسيان وفي سجون سوء الظن وإنعدام الثقة، بعد أن أصدر عليهم النظام ووسمهم بالغباء والجهل وسوء التصرف وعدم الأهلية والكفاءة لتولي أي منصب في الدولة.

" ومن الملاحظ أن النظام السياسي هو الذي يضع القيود القانونية على الممارسة السياسية، وله دوره المؤثر في تشكيل النخبة السياسية الحاكمة بل والمعارضة، حيث يسمح لنخبة معينة بالحركة والنشاط في حين يقوم بفرض قيود على الأخرى، وذلك من خلال التحكم في لجنة الأحزاب على سبيل المثال، وهذه القيود من أهم أسباب أزمة هذا الجيل الذي دخل في أطر حزبية مخنوقة ومقيدة.. وتتصل الأزمة في عمقها بحقيقة اضمحلال السياسة والمجال السياسي في مصر خلال السنوات

[9] المصدر السابق (٢٥٢- ٢٥٣)

الماضية، وتراجع حركة الأحزاب بعد أن امتد أثر قيود النظام السياسي واحتكار السلطة إلى أحزاب المعارضة، وقد أدى احتكار السلطة في الحكومة والأحزاب إلى محاولات إقصاء جيل الوسط السبعيني الذي يتمتع بالحيوية والديناميكية، وتتجلى أبعاد الأزمة في ثلاث عناصر: جمود وشيخوخة النظام، والاتجاه نحو التجديد والتجنيد من الجيل غير المسيس في الغالب، وعزل نشطاء الجيل من اليسار والإسلاميين." [10]

الوضع الحزبي في مصر – الطيور تهجر أعشاشها.

تعتبر الأحزاب الأمل الباقي والوحيد الذي يعلق عليه الشباب أي أمل في التغيير والتطور، وهي بمثابة الرئة التي يتنفس من خلالها الشباب ويعبرون من خلالها عن ذواتهم، أو هي الحضانة التي تحتضنهم حتى يستوى عودهم ويستغلظ ليكونوا مؤهلين علميا وفكريا ونفسيا كمواطنين صالحين ينتمون إلى هذا البلد العظيم، أو هي بمثابة مصنع يتم إعداداهم وتجهيزهم ليكونوا قادرين على تحمل عبء ومشقة مسئولية حكم وقيادة الوطن، وهي – الأحزاب – لن تستطيع تأدية هذا الدور الهام والخطير إن لم تفتح أبوابها على مصراعيها أمام أجيال الشباب،وتمهد درجاتها على اتساعها أمامهم ليتدرجوا ويرتقوا ليصلوا إلى قمة تلك الأحزاب وقيادتها، طالما أثبتوا جدراتهم وبرهنوا على كفاءتهم،ولكن الواقع يخالف ذلك كل المخالفة، فلا الأحزاب في مصر هي الرئة، ولا الأحزاب في مصر هى الحضانة، ولا الأحزاب في مصر هي المصنع، وهجر الشباب تلك الأحزاب، وخرج منها بلا عودة، فالفلسفة التي تحكم العمل الحزبي في مصر هى نفسها الفلسفة التى تحكم العمل في نظام الحكم في الدولة، فالشيوخ وكبار السن والعجزة هم الذين يوجهون الأحزاب، ويفرضون

[10] الأجيال في السياسة المصرية (٢٥٢)

عليها نظرتهم وفكرهم، وهم ليسوا على استعداد تحت أي ظـرف مـن الظروف أو وضع من الأوضاع أن يتنازلوا عن مقاعدهم أو مناصـبهم للشباب، أو يقوموا بعملية إحلال جيلي، أو الدفع بدماء جديدة شـابة، أو إعداد كوادر تكون مستعدة ومهيئة ومجهزة أن تستلم المهمة بعـدهم، أو تشاركهم في العمل الحزبي، لذلك شعر الشباب أنهم مجرد ((ديكور))، زينة تزين واجهة الحزب لا أكثر، أو مجرد أعداد في قائمة الحزب يتيه ويفخر الحزب بها على بقية الأحزاب، والذي زاد مـن أزمـة ومـأزق الأحزاب في مصر أن هؤلاء – قادة الأحزاب – سمحوا للحزب الحـاكم بمساحة يتواجد ويتدخل من خلالها في عمق وجوهر الحزب، وأهم شئ كان الحزب الحاكم حريص عليها ألا تحتوي تلك الأحزاب على عناصر شبابية، أو رموز قيادية للشباب، كي لا يفضح نفسه من ناحية، وخوفا أن ينجح هذا الشباب الحزبي – إذا التقوا على فكرة واحدة أو علـى رجـل واحد أو على عمل واحد أو على خطة موحدة – فـي إحـداث تغييـر جوهري وحقيقي في الحياة السياسية في مصر، ولا أحد يختلف سواء من قادة الحزب الحاكم أو قادة الأحزاب الأخرى علـى قـدرة واسـتطاعة وإمكانية الشباب على فعل وإحداث ذلك بكل مقدرة وكفاءة لـذلك اتخـذ الشباب موقفا من الأحزاب هو نفس الموقف الذي اتخذوه مـن النظـام، لأنهم أعتبروهما وجهين لعملة واحدة، أو أن الأحزاب وسـائل معينـة ومساعدة للحزب الحاكم في تنفيذ خطة واحدة وهي تجميد وخنق وإماتة الحركة الشبابية في مصر

" ولا يقتصر النقد والرفض على الحكم ولكنه يشمل الأحزاب السياسية باعتبار أنها مثقلة بأزمات وقيود واختيارات النظام السياسي والـصفوة الحاكمة، وحدود مهاراتها ومناوراتها وأيضا مستوى الفكـر الـسياسي

والحزبي ومهارات وكفاءات قادة الأحزاب. وهي تعاني من شـيخوخة جيلية وسياسية وتنظيمية، فهناك جمود جيلي داخـل الأحـزاب نظـرا لسيطرة قانون القلة الأوليجاركية التي أسست الحـزب علـى معـايير خاصة في تجنيد العضوية واختيار القادة ونوعية الأنشطة الحزبية ومن هم الذين يـديرون شـئون الحـزب بـالتوافق مـع أجهـزة الأمـن والبيروقراطية والحزب الحاكم حتى لا تظهر عناصر راديكالية إسلامية تؤثر في تحديد حركة وقرارات وسياسات الحزب، والأحـزاب المهمـة القديمة تجمدت هياكلها وضمرت مع الوقت وهجرتها الأجيـال الـشابة فصارت جميعا كما أظهرتها الانتخابات أسيرة أجيال كهلـة وعجـوز لا يمكنها أن تتلامس مع هموم وتطلعات شباب الـوطن وهـم الأغلبيـة الساحقة بل أن الشيخوخة السياسية أصبحت سائدة لدى بعض الباحثين والكتاب والإعلاميين، ممن يعيشون في عالمهم القديم ويتفيأون ظـلالا حيوية ما تمثل مزيجا من تجارب ما، وأيديولوجيات ما، ولغة سياسية ما، وأحلاما مجهضة وفوبيا من نوع ما إزاء الفكرة والنقـد الجديـد، وشراسة في الدفاع عن مواقع داخل الخطـاب المـسيطر الرسـمي أو المعارض أو القادم من مواقع إسلامية "[11]

إذن مصر تمر بأزمة حزبية مزمنة ومأزق سياسي خانق، فلا الحـزب الحاكم بقادر أن ينهض بوجباته القومية ولا بمسئولياته الوطنية، ليس هذا فحسب بل هو أصبح عبئا ثقيلا في حاجة إلى من يعينه في ذلك، وفـي حاجة ملحة وماسة إلى من يصحح له أخطاءه المتواصـلة والمـستمرة، والتي تشكل تهديدا وخطرا ليس على مستقبل البلد فحسب بل على الأمن القومي على المدى القصير والمدى الطويل، وهو ليس على استعداد لتقبل النقد، وليس على استعداد لإدخال إصلاحات جوهرية على عمله وأساليبه

[11] الأجيال في السياسة المصرية (٢٤١)

وآلياته، وليس على استعداد أن يتنازل عن مكانه ومركزه الذي يحتله قسرا ورغما عن إرادة الشعب، بل هو ليس على استعداد أن يشرك معه أحدا في تحمل المسئولية التي أثبتت الأحداث والمواقف والأزمات والمآزق أنه فشل فشلا تاما في قيادة البلد إلى بر السلامة والأمان، ونجح نجاحا منقطع النظير أن يقود البلاد – بكل مقدرة وكفاءة لا مثيل ولا نظير لها – إلى المصائب والكوارث التي أخذت تنزل على أفراد الشعب كالسيل المنهمر، وليس على أستعداد أن يتوقف عن التخريب المتعمد والتدمير المقصود لكل شئ صالح وجميل ونافع على أرض هذا الوطن، إن مصر كانت تحمل فوق ظهرها الواهن الضعيف ديناصورا لا ينفك يغرس بكل قسوة وشراسه وَقاحة أنيابه ومخالبة ليقطع من جسدها ليشبع نهمه وجوعه، ويمص من دمائها ليروي ظمأه وعطشه. أما أحزاب ما تسمي نفسها بالمعارضة فكانت تؤدي عملها، ولكن عملها هذا كان – ولا شك – يصب في مصلحة الحزب الحاكم، لأنها كانت تؤدي له خدمة جليلة القدر فقد كانت تقوم بعملية ((التنفيس)) ليس أكثر، وهذا من شأنه أن يؤجل عملية الانفجار، وهي في نفس الوقت عملية كاذبة وخادعة ومضللة للشعب؛ لأنها عاجزة عن إحداث أي نوع من التغيير، بل وتؤدي إلى مزيد من الإحباط واليأس والمرارة

*** فليس بمقدور أحد أن يدعي أن النظام الحزبي التعددي في مصر أفلح في تقديم عدد من الكوادر والقيادات الموهوبة الجديدة إلى حلبة العمل السياسي، ولا يزال تجنيد الكوادر السياسية واختيار القيادات التنفيذية، يعتمد على معايير متباينة وغير واضحة، ففي الحزب الحاكم ((تهبط)) القيادات على الحزب من جهاز الدولة أكثر مما تتكون في ظروف العمل الحزبي، ولكن الأهم من ذلك أن الكوادر التي تنشأ في داخل الحزب، تؤول في النهاية إلى مجموعات من الأشخاص التي تتزاحم لتقديم**

نفسها لقيادات الدولة، أكثر مما تمارس عملا حزبيا حقيقيا، وهو ما يؤدى - في نفس الوقت - إلى نفور - أو - ابتعاد كثير من العناصر القادرة والمتميزة، ولا يبدو أن الوضع في أحزاب المعارضة أفضل منه في الحزب الحاكم، فوجود شخصيات ((تاريخية)) على رأسها، وسيادة نمط القيادة ((الأبوية))، وتفشي الشللية والعلاقات الشخصية والعائلية.. لا تزال أسباب قوية تحول دون ظهور كوادر سياسية جديدة، وهكذا في حين تذخر مصر بالعقول والكفاءات المتميزة في جميع المجالات، فإن ذلك لا ينعكس على نمط القيادات والكوادر السائدة فيها.

من ناحية ثانية، يصعب التدليل على أن النظام الحزبي التعددي حمل معه نمطا من السياسيات العامة أكثر فعالية مما عرفته مصر قبل ذلك، من حيث وضع السياسات أو تنفيذها، وفي واقع الأمر، فإن الكثير من أوجه النقد التي توجهها أحزاب المعارضة للسياسات العامة لا تصب في اتجاه تحسينها أو تطويرها، بل يجري التعامل مع هذا النقد وكأنه مجرد ((تنفيس)) عن السخط والغضب، فضلا عن أنه يصعب القول إن أحزاب المعارضة تمتلك دائما سياسات عامة متكاملة بديلة، كذلك فإن الأوضاع الدستورية والفعلية الحالية للنظام السياسي في مصر لا تعرف آليات يمكن بمقتضاها بسهولة تغيير أو إقالة الوزراء أو المسئولين التنفيذيين بسبب ضعف الأداء، حتى من خلال السلطة التشريعية، ونتيجة لذلك فإن أخطاء المسئولين لا تظهر - عادة - إلا بعد تركهم لمواقعهم الرسمية ! وبعد أن تكون السياسات الخاطئة قد نفذت بالفعل.

ومن ناحية ثالثة، فإن عجز النظام الحزبي عن بلورة إجماع قومي عام حول المشكلات والقضايا الأساسية، جعل من الأسهل على النظام السياسي التعامل مع كثير من المشكلات بروح الحفاظ على الأوضاع

القائمة، وتفضيل الحلول المؤقتة والسهلة على الحلول الدائمة الأكثر صعوبة، بل إن كثيرا من المسائل أو القضايا ذات الطابع ((الفني)) مثل استخدام الطاقة النووية، وجدوى إنشاء الصوب الزراعية والآثار المختلفة للسد العالي، وترميم الآثار القديمة، ونقص مياه النيل.. إلخ، كلها قضايا جرى ((تسييسها)) بسرعة، بحيث أصبحت محلا للمساجلات الحزبية، وغابت النظرة الموضوعية السليمة عن الرأي العام، وعرضت هذه المسائل وكأنها مجال للآراء والتفضيلات السياسية والأيديولوجية، بدون توفير قاعدة ((المعلومات)) السياسية التي يفترض أن تسبق أي أحكام عنها.

وبعبارة واحدة، فإن النظام الحزبي في مصر يفتقد الآليات والقنوات التي تضخ نتاج عمله ونشاطه في شرايين النظام السياسي، وتمده بالقوة والكفاية "[١٢]

شرعية متآكلة... وعقد باطل

البعض يعتبر العقود بين أي طرفين لها صفة الديمومة، ومن الممكن أن تستمر إلى الأبد طالما لم يجرأ أحد من الطرفين على نقد العقد صراحة،وهذا خطأ، لأن أي عقد لا يقوم إلا بشروط ومواصفات محددة ومؤكدة يلتزم بها الطرفان، وأي إخلال بتلك الشروط والمواصفات هو إبطال وإفساد للعقد حتى لو لم يظهر أحد الطرفين رفضه وعدم رضاه عن العقد، فقد لا يستطيع أحد الطرفين أن يعلن تحلله من هذا العقد خوفا من قوة وبطش وانتقام الطرف الأخر، وقد يقوم طرف بالإخلال بشروط العقد،ويلزم الطرف الأخر بأن يلتزم بالعقد قسرا وجبرا، مستخدما في ذلك الإرهاب والتخويف كي لا يجعله يلجأ إلى النقض لهذا العقد، هنا

[12] مصر تراجع نفسها ــ د. أسامه الغزالي حرب (١٦٨ وما بعدها)

العقد باطل ؛ لأن قاعدة الرضا تقلصت وأصبح يتمتع بهـــا طـــرف دون الطرف الأخر، بل ان تلك القاعدة لم يعد لها وجود، لأنها إما أن توجـــد من الطرفين أو لا وجود لها، لا وجود للعقد هنا بين الطـــرفين، وحـــل محله نوع من العلاقة الغريبة والعجيبة القائمة على غلبة وقهر طـــرف على طرف، ونحن نقول إن هذا العقد باطل لأن عنصر الرضـــا غيـــر متوافر، وهو في نفس الوقت فاسد، لأنه مرتبط ومتوقف على مدى توافر الإرغام والقسر من الطرف الأقوى على الطـــرف الأضـــعف، وحالمـــا تنصرف القوى عن هذا الطـــرف، أويـــزول الـــضعف عـــن الطـــرف الأخر،سيختفي العقد، ولن يعد هناك مبرر لوجود العقد الذي هو أصـــلا وحقيقة لا وجود له إلا في أذهان البعض، وهذا ما كان عليه الوضع بين النظام الحاكم والسلطة من طرف والشعب المصري من طرف أخر، فقد أخل النظام بكل واجباته، وفرط في حقوق الـــشعب، وأســـاء اســـتخدام السلطة في القهر والتخويف والترهيب، ولم يقم بصيانة حرية وكرامـــة وعزة الشعب، بل صادر حريته، وزور إرادته وباع مكتسباته، وأضـــاع مكانه التاريخي ومكانته العالية ، وعبث بثوابته وخرب دعائمه، هنا فسخ وأبطل وفسد العقد بين هذا النظام والشعب، أصبح نظاما بـــلا شـــرعية، وليس أمامه إلا خياران إما أن يرحل إلى غير رجعه غير مأسوف عليه، وإما أن يبقى مستخدما ما يتوافر في يديه من وســـائل وأدوات الـــبطش والقمع والإرهاب والتعذيب والسجن لكل من تسول لـــه نفـــسه أن ينقـــد عجزه وقصوره، أو يفضح عيوبه وعواره، ومع لجوئه إلى الخيار الثاني فإن هذا لم يوقف تيار النقد الهادر، بل زاد من قوته وحدته، والتـــشهير بخطله وغبائه وغشوميته ورعونته " **أصبح خطاب رموز جيل الوســـط السبعيني من النشطاء والكتاب أكثر حدة ورفضا واحتجاجـــا، وحـــدث تقارب بين مفردات ومقولات الخطابين الأكاديمي والإعلامي لهذا الجيل**

من حيث سيادة نبرة نقدية واحتجاجية عالية الحدة قد تصل إلى حد الهجاء والصخب، فرموز هذا الجيل يلعبون دورا مهما في الإتجاه النقدي المستقل عن السلطة وهو الإتجاه الذي ينزع نحو نقد الاختلالات البنائية في النظم الدستورية والسياسية والحزبية والإدارية والأمنية وفي السياسات العامة على اختلافها، والمشترك الرئيسي في الخطاب هو التقييم السلبي لما آل إليه الوضع في مصر، ونقد سياسات النظام التي جعلت من مصر ((الرجل المريض في الشرق الأوسط)) فيما النظام يعاني من أزمة ((شرعية جمهورية الخوف)) فقد تآكلت مصادر الرضا العام على النظام وصفوته الحاكمة، وأصبحت العلاقة بين الحكام والمحكومين تقوم على الغلبة. إن شرعية النظام تتآكل والناس تشعر بالأسى وعدم الرضا، فالوطن محجوز التطور وحالته العامة مثيرة للشفقة، ويصل الأمر إلى حد وصف السلطة بأنها ليست شرعية قانونا لأنها قامت تاريخيا على تزوير الانتخابات على كل المستويات، فالنظم وصلت عبر تزوير إرادة الناخبين، ومستمرة في الحكم من خلال آليات القمع وعنف جهاز الدولة الوحشي، ويسود النفاق داخل النخبة لدرجة أن مصر أصبحت مدرسة كبرى للنفاق السياسي والمداهنة والمسكنة والمذلة، والرئيس لم يستطع أن يلهم أكثرية المصريين أو يدعوهم لمناصرته بشكل إيجابي، وهي مشكلة تتجاوز بكثير الأسلوب البيروقراطي والإشكاليات المتعلقة بالحريات العامة وحكم القانون إلى النطاق الواسع لإشكالية التلامس مع المصريين وشحنهم بالحماس وإطلاق طاقاتهم في إطار مشروع وطني قومي " [13]

---

[13] المصدر السابق (٢٣٩)

مخطئ من يظن أن زيادة جرعات البطش والقمع والاستبداد، وتنوع وتعدد أنواع وأساليب الإرهاب والتعذيب؛ كل هذا كفيل على أن يقضي على مراكز ومواطن المقاومة في الكيان المصري أو يخرس أصوات المعارضة، فكلما زاد البطش والقمع والاستبداد زادت المقاومة شراسة وضراوة، وازدادت المعارضة بجميع صورها وأشكالها حدة، لأن المبالغة في البطش تستفز وتستفز وتستدعي كل ما لدى الأمة من رصيد المقاومة،ومكنون المعارضة " **فإن الخوف يستحيل إلى غضب عندما تقوى المقومات الخارجية المهددة، أو عندما يقع في روع الكائن الحي أن تلك المقومات قد اشتد عودها وأنها صارت أكثر تهديدا له** "[14]؛ وكان النظام الحاكم أتى بآخر ويكل ما في جعبته ليقضي على المقاومة والمعارضة، والشعب استنزف آخر ما لديه ليظل محافظا على كيانه ومتمسكا بوجوده، ولم تشهد مصر في تاريخها الحديث معارضة وطنية مثل التي شهدتها في السنوات الأخيرة، فقد كانت معارضة فريدة في جرأتها وشجاعتها واقتحامها مناطق محرمة، وتجاوزها خطوط حمراء كان لا أحد يجرؤ على تجاوزها، ولأول مرة تجمع وتتجمع وتتفق وتتوافق كل رموز وأشكال الوطنية المخلصة على كلمة واحدة ورأي واحد وتقف صفا واحدا لمقاومة ومعارضة ومهاجمة وفضح وكشف وتعرية النظام الحاكم الذي كثرت وتعددت وتنوعت صور فساده وتفسخه وتحلله وتآكله، وقامت الصحافة المستقلة بالدور الرئيسي في تلك الانتفاضة والتي تحدت النظام بكل جبروته وسطوته وسلطانه ولم تتأثر رغم الوعيد والترهيب.

[14] سيكلوجية الغضب ـ د. يوسف ميخائيل اسعد (٩٤)

ولم يتردد الصحفيون والكتاب الأحرار من كتابة وقول كلمة الحق رغـم تعرض الكثير منهم للسجن والغرامات المالية الفادحة والفاضحة لنظام فقد رشده وصوابه.

" فهناك هجمات شرسة في عدد من الجرائد المعارضة والمستقلة، فالنقد في الصحافة خصوصا في الدستور وصوت الأمـة والعربـي أشد حدة، فصحيفة الدستور بعد عودتها في أعقـاب انقطـاع دام حوالي عشر سنوات، عادت أكثر جرأة وتحديا لتعبر عـن الأجيـال الشابة في الصحافة، وهي تهاجم الأوضاع بصورة شديدة القـسوة وتركز سهامها على الرئيس وأسرته، حيث يرى إبراهيم عيسى أنه تم اختزال الأمة في الدولة واختزال الدولة بمؤسساتها فـي إطـار الحكومة واختصار الحكومة في مؤسسة الرئاسة، ويضيف أن أسوأ ما حدث لمصر في الأربع وعشرين سنة الماضية أن تحول الرئيس إلى نبي أو ولي لا يجوز نقد سياسـته ولا مهاجمـة قراراتـه ولا الطعن في صوابها، وبينما كان أيمن نور يصر على انتقاد الرئيس أثناء حملة الانتخابات الرئاسية فقد ازدادت حدة النقد بعـد الحكـم عليه بالسجن، في حين يشير إبراهيم عيسى إلى أن النظام اشترى الذمم والضمائر لكثير من شيوخ السياسة الذين شـاخوا وزعمـاء الأحزاب وكثير من المثقفين الذين دخلوا الحظيرة إلا أنه يـرى أن جيلا جديدا من التيار الوطني يولد ويناضل من أجل الحرية ويتفاعل بقوة مع حركة القضاة وتأييد قوى المجتمع المدني لها قائلا: هاهم قضاة مصر الشرفاء والعظام يقودون مصر للتغيير ويرفعون رايـة استقلال الوطن ليس القضاء فقط، وهاهم شباب مصر مـن أجـل التغيير يزينون الميادين بالتظاهر والمظاهرات من أجـل اسـتبداد الحكم، وهاهي جماعة الإخوان المـسلمين تـشارك مـع القـوى

السياسية النبيلة في الكفاح المشترك بلا حساسيات ولا مماحكـــات بين الطرفين بل هما ضد خصم سياسي يقود البلد إلى جحيم الفشل والفاشية والطغيان والفساد وإغراق الفقراء وإفقار المستورين "[15]

ولا استبعد أن الجيل الجديد قد تطعم بهذا المصل، وتناول جرعات كبيرة من صور المعارضة، بل قد حصل واكتسب جدته وحيويته من هذا المناخ، مناخ معارضة ومقاومة كل صور ورمـــوز وأســـاليب وآليات النظام الحاكم، لقد رضع كراهية ومقت هذا النظام، بل لقـــد وصل إلى قناعة ألا سبيل إلى الاصلاح إلا بإزالته والـــتخلص منـــه والثورة عليه، ونظرة على الحركات السياسية التي تكونت ما بـــين ٢٠٠٤ إلى ٢٠١٠ – وأغلب الداعين والمؤسسين لها من الـــشباب – تبين بزوغ وبداية ظهور فكر واتجهات وتوجهات راغبة عن وعي وإدراك في التغيير والتجديد:

١– شباب ٦ إبريل تاريخ نشأتها ٦ إبريل ٢٠٠٨.
٢– شباب من أجل العدالة والحرية تاريخ نشأتها إبريل ٢٠١٠
٣– الجبهة الحرة للتغيير السلمي، تاريخ نشأتها ١٠ سبتمبر ٢٠١٠
٤– حملة دعم البرادعي، تاريخ نشأتها ١٨ فبراير ٢٠١٠
٥– حملة دعم حمدين صباحي، تاريخ نشأتها ٢٠٠٩
٦– كلنا خالد سعيد، تاريخ نشأتها يونيو ٢٠١٠
٧ – حركة كفاية، تاريخ نشأتها ٢٠٠٤
٨– شباب حزب الجبهة، تاريخ نشأتها منتصف عام ٢٠٠٦

[15] الأجيال في السياسة المصرية (٢٤٣)

تلك هي الظروف والأحداث الطيب منها والسيئ، الحلو منهـا والمـر، المضيئ منها والمظلم، الدافع منها على التفاؤل والاستبشار، والمحـرض منها على التشائم والاكتئاب، الفاتح منها أبواب الأمل علـى المستقبل المشرق الوضاء،والمفسد منها والمخـرب ليـشيع الإحـساس باليـأس والاحباط، وينشر الظلام والظلم ليفقد الناس الأمل والطريق لتتفرق بهـم السبل، فيضلوا ويضيعوا وسط عالم لا يرحم الضالين ولاالضائعين. تلك الظروف والأحداث هي التي اسهمت في تشكيل وتكوين الجيل الجديـد، وأقول الجديد لأنه لم يسبق لجيلٍ تعرض لما تعرض له، ولم يسبق لجيل قاسى وعاني ومحص كما حدث مع هذا الجيل، فكان جيلا لا يماثـل ولا يشابه ولا يحاكي الأجيال السابقة عليه وهذا راجع إلى أمور منها:

– إن هذا الجيل لم يسهم في تشكيله وتكوينه وبرمجته أحد، وإنما كـان إفراز طبيعي ونتاج واقعي للظروف السائدة، والأوضاع الراهنة، ربمـا تعرض لمؤثرات وهذا لا شك فيه، ولكن تلك المؤثرات لم تكن موجهـة لجهة ما أو لهدف ما أو ورائها أيديولوجية معينة،لذلك اتـسم بالتلقائيـة والعفوية ولكن يحكمهـا المنطـق – إلـى حـد مـا– أو الحـرص والحذرالمستمد مما تعرضوا له من أحداث وخبرات

اتسم هذا الجيل بوْعي وإدراك، بل تميز بنوع مـن الحـدس، أوصـله أوأرشده إلى قناعة واقتناع بعدم جدوى كل ما هوموجود على الـساحة السياسية، سواء فيما يخص النظام والحزب الحاكم الذى نجح في تحويل الوطن إلى مدينة نحاسة لا حركة ولا حياة فيها، أو فيما يخص الأحزاب السياسية التى تحولت إلى حدائق حجرية لا تنبت ولا تثمر ،ولا فائدة من أي دعوة للاصلاح أو الترميم أو الترقيع، الأمربرمته في حاجـة إلـى إزالة، أوبتر، أو استئصال، وأي محاولة للاصلاح أو الترميم أو الترقيع

هي نوع من التزوير، والتزييف والكذب والتضليل، فالنظام وصل إلى حالة متأخرة ومتدهورة من السرطنة، لذلك كان هذا الجيل من أول المؤمنين بالثورة والمتمسكين بها والداعين إليها والرافضين لأي حلول وسط، من شأنها أن تصادر الفكر الثوري أوتطيل من أمد وبقاء نظام فقد القدرة والمبرر على الحياة والبقاء.

- كان هناك توافق بين هذا الجيل والزمن الذي يعيش فيه، فهو بحق ابن زمنه، فقد أجاد التعامل وأحسن استغلال واستثمار وسائل الاتصال الأليكتروني، والتي مكنته من تجاوز تلك العقبات والموانع وكسر سور العزلة والتخلف والتأخر التي كان يفرضها النظام الحاكم على الأجيال المتعاقبة، وهذا في حد ذاته منحه إحساسا بالثقة، وتلك الثقة جعلته يستهين ولا يعبأ بأساليب القمع والإرهاب التي يستخدمها النظام الحاكم خصوصا ضد الشباب، لذلك فقد النظام الحاكم الكثير من هيبته بعد أن فقد مكانه ومكانته في عقل وضمير هذا الجيل.
- لم يحب أحد بوعي وصدق وإخلاص، مثلما أحب هذا الجيل وطنه، ربما لأنه كون نظره شامله وعامة وصادقة بدون تهويل أو تضخيم، للعالم الخارجي وخصوصا المتقدم، سواء بسفرياته إلى دول هذا العالم، أو من خلال التعمق في خباياه من خلال شبكة الاتصالات العالمية او القراءة الموضوعية والواقعية عنه، فقد كانت الأجيال السابقة ولا سيما طبقة المفكرين والكتاب والمثقفين مفتونة ومبهورة بهذا العالم وصلت إلى حد السلب الفكري والاحساس بالانتماء إلى هذا العالم على الأقل فكريا وارتباطهم به، أكثر من انتمائهم وارتباطهم بوطنهم، ولأمور كثيرة وأحداث حدثت عندهم وعندنا، زالت تلك الهالة المحيطة بهذا العالم الخارجي، وزال كذلك الافتتان والانبهار، ولم يعد جيل الشباب يولي وجهه شطر هذا العالم، فليس هذا العالم عالمه، ولا هو جزء منه ولا

ينتمي إليه، إذن عليه أن يتجه إلى عالمه، ويعكف عليه، ويدرسه ويبحثه ويفحصه، ومن خلال هذا لاكتشف كم هو عظيم وطنه، ولكنه في حاجة إلى أشياء، والأهم أن هذا الوطن في حاجة إلى أبنائه الذين هم من صلبه، الذين يتركون كل شئ ويحيطون به في المآزق والأزمات، يساعدونه على الوقوف إذا تعثر وسقط، يعاونونه في استئناف السير إذا وقف وتجمد، هؤلاء ولدوا على أرض مصر وحب وطنهم شئ فطري غريزي، كامن في خلاياهم، عادوا إلى وطنهم وهم لم يغادروه لحظة لأنه يعيش داخلهم، يتحركون وهو معهم، وفي لحظة التلاقي والتلامس حدثت الشرارة التي نتج عنها نار ونور.

قدرية الثورة

هل الثورة ضرورة ؟

لا.

بدليل أن هناك مجتمعات عاشت بدون ثورة.

وهناك مجتمعات تعيش بدون ثورة.

وهناك مجتمعات ستعيش بدون ثورة.

وليس ذلك راجعا إلى أن تلك المجتمعات خاضعة أو خانعة أو لا تقدر على دفع تكاليف وضريبة الثورة، ولكن لأن تلك المجتمعات تستجيب استجابة طبيعية لضرورات التغيير، بمعنى أن تسير وسنة الطبيعة، أو سنن المجتمعات الحية، فإذا كان كل شئ في الكون يخضع للتغيير بصورة أو بأخرى، فإن تلك المجتمعات لا تتعارض أو لا تعارض تلك السنة، بل هي تستدعي وترحب وتأخذ بأسباب التغيير إيمانا منها بأن هذا شئ طبيعي، وإيمانا منها بجدوى ونفع التغيير، وإن لم تفعل هي ذلك بإرادتها وقناعتها فهي تعارض وتتصادم مع الطبيعي، وأيضا تخسر كثيرا، بل هي تخسر كل شئ؛ ولتتجنب ذلك، فهي في ثورة دائمة، وتحصل على ثمار الثورة، ولكن بدون طفرات أو قفزات أو مصادمات، هي كالكائن الحي المتوافق والمنسجم مع نفسه أولا ومع من حوله ثانيا، ومع سنن الكون التي يعيش تحت حكمها وضرورتها ثالثا.

تلك المجتمعات عاقلة راشدة واعية مدركة، لذلك ليست في حاجة إلى الثورة لترد لها العقل، أو تعيد لها الرشد أو ترجع إليها الوعي أو تزيدها إدراكا، أو قل لأنها في حالة ثورة دائمة، تلك الثورة الدائمة منحتها وأعطتها العقل والرشد والوعي والإدراك، فهي تسير سيرا وئيدا على هدى وبصيرة، آخذة بأسباب التقدم والتطور، مستجيبة لكل وأي داع يدعو إلى التغيير استجابة رزينة، لا هي بالمتسرعة المتعجلة، ولا هي بالبطيئة المتلكئة، لأن أضرار التسرع والتعجل كأضرار البطء والتلكؤ، كلاهما يعارض سنن التغيير.

ولكن هناك مجتمعات تتعارض مع نفسها، وتخالف من حولها، وتتصادم مع سنن الطبيعة، وتخرج عن كل ما يخضع ويستجيب له الكائن الحي مِن قابلية للتغيير كي ينمو ويكبر، فلا نمو بدون تغيير وتبديل، فالثعبان – مثلا – في حاجة إلى أن يخلع جلده ويغيره ويبدله استجابة للنمو، بدون هذا سيظل حبيسا سجينا داخل هذا الجلد أو الغلاف، فإما أن يختنق ويموت، وإما أن ينفجر مدمرا وممزقا هذا الوعاء الذي يعيش داخله، وكلاهما يمثل ضررا وخطرا على الكائن، ولكن الذي يحدث، أنه ببطء وهدوء وبحركة إنسيابية ناعمة آمنة يبدأ في التغيير ، وهي في حقيقة الأمر عمليتان وليست عملية واحدة للتخلص من هذا الجلد المهترئ الضيق الذي لم يعد مناسبا للمرحلة الجديدة من النمو التي يدخل فيها الكائن، وفي نفس الوقت وللحظة ظهور وبروز وإنماء لطبقة جديدة من الجلد، فالثعبان لا يتخلص من الجلد القديم وينتظر أياما وشهورا لينمو الجلد الجديد، وإلا سيأتي وقت على الثعبان يعيش بدون جلد !

هناك مجتمعات لا تريد التغيير ولا التبديل، ليس هذا فحسب، بل تقف أمام التغيير وتقاومه، وتضع العراقيل والحواجز أمام ذلك، ولنكن أكثر تحديدا ولنقل إن الأنظمة الحاكمة لتلك المجتمعات أو الضابطة والمتحكمة في حركتها إلى الأمام هي التي تقاوم هذا التغيير .

أما لماذا تقاوم تلك الأنظمة التغيير ؟

ولماذا لا تكون من أحد أسبابه وتزيده فاعلية ونشاطا ؟

ذلك لأن تلك الأنظمة – كما قلت – حاكمة للمجتمع، وهي لذلك معقدة ومركبة بأجهزتها وأدواتها ووسائلها وآلياتها، لذلك في ثقيلة في حركتها وبطيئة لاستجابتها لأي تغيير، بل ليس لديها استعداد للتغير؛ لأن التغيير – في مفهومها – خلل وتوقف لتلك الأجهزة والآليات، وتغيير في كيفية ونوعية أداء عملها.

وهي – الأنظمة – أيضا ضابطة لإيقاع حركة وتطور وتقدم تلك المجتمعات، هذا الضبط بمرور الوقت وبثقل وتعقد أجهزة النظام يتحول من كونه ضبط حركة إلى ((كلبشة)) حركة المجتمع.

وهي تقاوم التغيير ؛ لأن هذه هي معركتها الأخيرة، التي سيتحدد على نتيجتها مصير النظام... أما النظام أو التغيير. ولا يوجد نظام حاكم – مستبد – يسمح بالتغيير الشامل، لأن أول تغيير سيشمل النظام نفسه، وهنا لا نقصد بالنظام المعنى اللغوي، ولكن نقصد القوة الحاكمة الضاغطة المقيدة المعطلة لحركة المجتمع، ليس هذا فحسب بل هذا الشكل أو الجهاز الذي يتغلغل إلى جميع أجزاء وخلايا ونواحي المجتمع مستنزفا وممتصا قدرته وإمكاناته وطاقاته على التغيير، وهذا ما قصدته الجماهير الهادرة في أثناء الثورة بقولها: ((الشعب يريد إسقاط النظام)).

والناس لا يثورون في كل آن وحين، بل هم لا يثورون طواعية واختيارا، بل هم يدفعون إلى الثورة دفعا، وهم يساقون إلى الثورة كارهين ومكرهين ؛ لأن الثورة نار ونور، وقد يكونون أول وقودها المستعر، وقد لا ينعمون بنورها القدسي، ولأن الثورة شهداء وقتلة، قد يكونون أول الشهداء، ولأن الثورة

ضحايا يخسرون كل شئ مع أنهم ضحوا بكل شئ، وصائدو جوائز لم يقدموا أي شئ مع أنهم ينهبون كل شئ.

ولأن الثورة قد تفشل، ولا يقدر لها النجاح – وهذا لا يقلل من شأنها – يكونون أول من يتحمل نتائج فشلها من قتل وتعذيب وتنكيل وسجن.

ولأن أمد الثورة قد يطول ويمتد، يكونون أول من يدفعون ضريبة تلك الإطالة من جوع وخوف.

لذلك نستطيع أن نقول إن الثورة قدر مقدور، لا مهرب ولا مناص منه.

ومع ذلك فهناك مبررات أو مسوغات أو مهيئات للثورة:

١- أمور متعلقة بالحكام.

٢- أمور متعلقة بالمحكومين.

٣- أمور متعلقة بطبيعة الأمور.

- **الحاكم:**

– مدة الحكم – شخصية الحاكم – خطورة المنصب

– مدة الحكم

الحاكم قد يتطرق إليه الفساد شأن أي شئ، فطبيعة الأشياء الفساد، بل أن الحاكم أكثر عرضة من غيره للفساد، وأقصد بالفساد هنا عدم القيام بمهامه على الوجه السليم أو المرجو أو المنتظر منه، فنظرا لكثرة تلك المهام وتعددها وتشابكها وتعقدها، فالشئ الطبيعي أن يكون هناك تقصير، وهذا ليس راجعا إلى عدم قدرة الحاكم أو التشكيك في كفاءته، ولكن لأن المهام والمسئوليات والأعباء أكبر من قدراته وخارج طوقه، ويزيد الأمر سوءا وفسادا مع أنظمة الدول والأمم التي تجعل الحاكم هو المتحكم والمسئول

الأول والأخير، الملقى على عاتقه كل شئ هاما أو هينا، كبيرا أم صــغيرا، وقد يكون طبيعة النظام تقتضي ذلك، أو رغبة وميول ومكونات الحاكم تريد ذلك أو أن المحيطين بالحاكم يشتهون ذلك، فهذا – فــي نظــرهم – يحقــق مصلحة النظام ورغبة الحاكم وطموحات بطانة الحاكم، هنا تجد نسبة الفساد مرتفعة جدا إلى حد لا يطاق ولا يتصور، بينما في النظم التي تجعل الحاكم محدود الصلاحيات، مقصورة مهامه على الأمور الهامة والخطيــرة فقــط، مراقب من جهات أخرى، وجهات أخرى تقيم أعماله وقراراته وتــصرفاته، هنا تجد نسبة الفساد منخفضة، وليست في مستوى الأنظمة الأخرى.

كذلك طول مدة مكوث الحاكم في الحكم، صلاحيات أي شئ موقوتة بــزمن محدد لا يتجاوزه، قضت بذلك طبيعة الحياة التي نحياها، لا شئ يتجاوز حينه وأوانه ومدته وعمره، ذلك لأن هناك إمكانيــات للكــائن موجــودة داخلــه ومطمورة بالقوة، وإذا استنفدت تلك الإمكانات لم يعد الكائن يصلح لشئ، أو أن عطاءه وصل إلى درجة متدنية، هذا إذا لم يتوقف عن العطاء السخي أو الفعل المنتج، أو العمل المثمر.

وطبيعة عمل الإنسان هي التى تحدد المدة التي سيتم استنفاد تلك الإمكانات، مثل الألة التي تعمل ليلا ونهارا وبدون توقف، فإذا كان عمرها الافتراضي عشر سنوات فإنها بعملها المتواصل هذا ستنتهي صــلاحيتها بعــد خمــس سنوات، أما إذا كانت تعمل تارة، وتترك مدة للصيانة والإصلاح فإنهــا قــد تستمر في العمل إلى مدة عشرين سنة، لأنها لم تــستهلك خــلال عمرهــا الافتراضي استهلاكا شديدا، كذلك الإنسان فقد يكون في الثلاثين وينظر إليه فيظن أنه في الخمسين، ولا يعمل ولا ينجز من الأعمال أكثر ما ينجزه مــن في الخمسين، وقد يكون في الخمسين ويظن أنه في الثلاثين ويعمل عمل من هو في الثلاثين، فالأول استنفد كل قدراته وإمكاناته فتضاءلت تلك الإمكانات أو أوشكت على النضوب، والثاني لم يبدد الامكانات بشكل مفرط، بــل قــام

بعملية ترشيد ورعاية ومحافظة، فطال عمره الافتراضي أو طال أمد وعمر إمكاناته.

أما بالنسبة للحاكم فإن هذا المنصب – كما هو معروف – مهلك ومبدد لكل إمكانات وقوى الإنسان، تخيل المسئول الأول عن مئات الملايين من البشر، وتخيل القرارات التي يصدرها قد تسعد الملايين، كما قد تشقيها، وقد توفر لها الأمن والأمان في حاضرها ومستقبلها، وقد توردها موارد الهلاك والدمار في حاضرها ومستقبلها، وأنه مهموم ليل نهار، في نومه ويقظته، بأمور وشئون تلك المئات من الملايين، وهو لا يعمل لحاضرها فقط، وإنما لمستقبلها، فهو المسئول شرعا وقانونا وعرفا في تأمين الحياة الحرة الكريمة الآمنة المستقرة لتلك الملايين، وهذا شئ – في حقيقة الأمر – في غاية العسر، لذلك فالنهوض بهذا الأمر، وتأدية هذا العمل يتطلب مجهودا خرافيا، وعملا وتفكيرا دائبا ومستمرا على كل الجبهات وفي كل المجالات، ولذلك فكل طاقات الحاكم وإمكاناته وقدراته مستنفدة على المدى القريب، فما بالك على المدى البعيد، يفقد هذا الشخص كل قدراته وإمكاناته ويستنفد كل صلاحياته، هذا إذا فرضنا أنه حينما تولى المنصب كان كامل القدرات والإمكانات، وأن لديه ما يعطيه ويضيفه ويقدمه !

لهذا نجد بعض البلدان قد أصيبت بالشيخوخة وتأخرت وتدهورت حالتها، فقد انعكست حالة الحاكم على حالة البلد، ولتجنب هذا الأمر المؤسف فإن البلاد المتقدمة والأنظمة الرشيدة قد حددت مدة بقاء الحاكم في هذا المنصب بسنوات معدودة، فإذا كان لديه ما يقدمه وما يضيفه، سيقدمه خلال تلك المدة، وتستفيد البلاد، وإن لم يكن لديه ما يقدمه فلا يضار البلد أن تتحمل تلك السنوات القليلة، ويأتي غيره ليعوض البلاد ما تراجعت أو توقفت فيه خلال تلك المدة، هنا – أيضا – نجد أن نسبة الفساد تكاد تكون منعدمة، بينما في

البلاد التي يكون الحكم فيها أبديا وسرمديا نسبة الفساد تكون ((للرقـــاب)) كما يقولون.

- شخصية الحاكم

هناك من الحكام من لديه عتامة في الطبع، وغشاوة علي عينيه وختم علـــى قلبه، تسول له نفسه ألا يترك هذا المنصب مهما حـــدث، فيعبـــث بالقـــانون ويلعب بالدستور، ويفعل كل ما لا يتصوره إنسان ليظل قابعا في كرسيه، وقد يسفك من الدماء، وينهك من الأعراض، ويدمر ويحطم، كل هذا لكي يظـــل متمسكا بمنصبه، فهو لا يتصور أنه في يوم من الأيام تشرق عليه الـــشمس وهو بعيدا عن هذا المنصب أو نائيا عن هذا المقعد، وكأنه ما خلق ألا ليكون حاكما، وليس شيئا آخر، ونسى أو تناسى أن الأمر أمر منصب، وأي منصب محدود بمدة زمنية، إذا انقضت تلك المدة فلا مبرر لبقائه، وأن الأمر أمـــر قدرات وإمكانيات وصلاحيات، نضبت أو قلت أو انعـــدمت تلـــك القـــدرات والإمكانات فلا داع يدعو لبقائه على كرسيه.

أما لو أزيحت تلك القتامة والعتامة من طبعة وانزاحت تلك الغشاوة من علـــى عينيه، وتخلص من هذا الختم والقفل من على قلبه لسعى ســـعيا لكـــي يتـــرك المنصب ويتنحى عن المقعد، لأنه يدرك إدراكا حقيقيا ويؤمن يقينا لا يخالطـــه شك أن هناك من هو أصلح منه وأقدر وأحسن على تأدية هذا الفعل.

ووصل إلى تلك الدرجة الفاروق عمر بن الخطاب، حينما شعر أنـــه قـــد لا يستطيع أن يؤدي متطلبات هذا المنصب الخطير فقال **" اللهم كبـــرت ســـني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط..."**

أفضل إنسان يعرف ويدرك أنه يصلح أو لا يصلح لهذا الأمر هـــو الحـــاكم نفسه، ولهذا فلا ينال من مقامه الرفيع ولا يقلل من منزلته ولا يغـــض مـــن شانه أن يخرج على أمته بكل جرأة وشجاعة وشرف وأمانـــة معلنـــا لهـــا

ومكاشفا لها – الأمة التي ارتضت أن يكون حاكما عليها مسئولا عن أمنها وسلامتها وشرفها وحاضرها ومستقبلها – أنه يريد أن يترك المنصب، لأنه يرى أن هناك من هو أقدر وأكفأ وأصلح وأحسن، وأنه قد يفعل ما عجز عن فعله، وعلى الأمة أن تختار من ترى فيه الصلاحية والكفاءة والجدارة والأهلية لتولي هذا المنصب.

أظن أن الأمة التي ترى من حاكمها هذا المسلك النبيل الشريف ستضع اسمه في سجل الخالدين، وأنه قد لا تفرط فيه وتتمسك به، فقد أثبت بفعله هذا أنه يؤثر مصلحة الأمة على مصلحته، وأنه لم يفكر فيما ينفعه بل ما ينفع الأمة.

وقد حدث في الأمس القريب هذا، حينما خرج حاكم (عبد الناصر) على الأمة بعد أن هزم شر هزيمة وكسر كسرا لا جبر له، خرج بكل شجاعة وجرأة معلنا تحمل المسئولية عن كل ما حدث، وأنه سيترك المنصب لأنه حدث تقصير وإهمال وتسيب وتفريط وهزيمة، إلا أن الأمة غفرت له كل أخطائه، ربما الذي شفع له عندها – في تلك اللحظة – أن الرجل كان صادقا مع نفسه وكان صادقا مع أمته.

– خطورة المنصب

هناك مناصب خطيرة، تلك الخطورة راجعة إلى أنها توحي إلى صاحبها بالفوقية، وأن ما يخضع الأخرون له لا يخضع له، وأن ما يسير على البشر لا يسير عليه، وأنه يملك من أمور البشر ومقدراتهم ما لا يملكون، ويقدر على أفعال واتخاذ قرارات ولديه من الصلاحيات والتخويلات ما لا يتوافر لأحد غيره وإليه ترجع الأمور فيما يتخذ من قرارات مصيرية تمس البشر في صميم حياتهم وأمنهم واستقرارهم، لذلك فهو قبلة الأنظار، وكل القلوب والأفئدة معلقة به، والآمال والأماني مرتبطة به، يدعى له على المنابر وفي المحاريب أن يوفقه الله ويسدد خطاه، وأن تكون له بطانة صالحة تعاونه فيما

.يصلح أحوال البلاد وشئون العباد. هذا الأمر يفرض على الحاكم أن يكون مشفقا على نفسه، متخذا كل الإجراءات والإحترازات أن يضلل من هوى النفس، وأن يكون يقظا لنفسه أولا من أن يغتر ويداخله العجب والغرور، ويسير في دروب الظلم والاستبداد والانفراد بالرأي، ويكون يقظا – أيضا – لمن هم حوله أن يضللوه ويسيطروا عليه ويهيمنوا على قراراته وأقواله، ويزينوا له الباطل حقا، والحق باطلا، والصديق عدوا والعدو صديقا ويلبسوا عليه، وألا ينسى أنه في يوم من الأيام سيترك هذا المنصب شاء أو لم يشأ، إراديا أو قسرا، وسيحاسب من العباد ورب العباد.

- المحكومين

من قديم الزمان ارتضى الناس أن يكون هناك نظام ما، يتولى أمور الحكم، وتدبير شئون حياتهم اليومية والمستقبلية، ويسهر على راحتهم وأمنهم، ويوفر لهم كل ما يحتاجونه، ويجلب لهم كل ما يرضيهم ويسعدهم، ويدفع عنهم كل ما يغضبهم أو يثير نقمتهم، في سبيل أنهم يطيعون النظام ويؤيدونه، تلك الطاعة وهذا التأييد هما اللذان يصوغان إطار شرعية هذا النظام، ويعتمد النظام اعتمادا أساسيا في مبرر ومسوغ وجوده على تلك الشرعية – وأيضا – يستمد قوته وتماسكه وهيبته من تلك الشرعية، وتلك الشرعية نوع من التفويض من المحكومين، أن يشكل النظام أو يرتب أو ينظم أمور حياتهم، وفق ما يراه، والتفويض أو التوكيل من قبل المحكومين للنظام يتضمن أن يتنازلوا عن جزء من حريتهم، وكذلك عن جزء من عائد عملهم ومجهودهم ؛ لأن أي نظام في حاجة إلى هذين الأمرين ليستطيع ممارسة عمله وتأدية مهامه على الوجه الأكمل، شريط واسع أو مساحة من الحرية، هذا الشريط أو المساحة هي مجموع ما تنازل عنه كل فرد عن طيب خاطر ورضا

للنظام، ووفرة من الإمكانات والقدرات تعين النظـام وتـساعده فـي تنفيـذ المشروعات والخدمات والإصلاحات التي يراها النظام ضرورية وأساسـية للمحكومين، تلك الوفرة هي مجموع ما تنازل عنه كل فرد من نتـاج عملـه وفائض مجهوده.

أمران يتنازل عنهما مجموع الأفراد للنظام، ونلاحظ أن هذا التنازل لابد أن يكون عن رضا كامل وطواعية تامة، وهما لا يتوافران إلا إذا أدرك وشـعر الأفراد بحسن تصرف النظام في ما تنازلوا عنه من حرية ومال، الممنوحين له، بأن يعود النفع والفائدة على مجموع الأفراد والأمة جميعها؛ من خـلال الاستثمار الجيد لهذين الأمرين، هنا يكون النظام قد قام بواجبه خيـر قيـام ويشهد الشعب والأمة على ذلك، وبذلك تكون العلاقة بين الاثنين مبنية علـى الوفاق والوئام وتتأصل شرعية النظام.

ولكن قد تتكشف للناس مع مرور الوقت أن النظام بدأ يخل بشروط التفويض والتوكيل، بان بدأ يسئ استخدام الحرية والمال المتنازل عنهما له من الأمة، فلا هو أحسن استخدام الحرية المتنازل عنها من قبل أفراد الأمة، بدأ يستخدم تلك الحرية في صالحه الضيق والمحدود، وبدأ يتعدى على حريات الأفـراد، بأن ينتقص من مساحة حريات الأفراد، ويزيد ويتوسع من مساحة حريتـه، هنا تختلف المسميات، فما يتمتع به النظام من حرية أصبحت هيمنة وسيطرة واستبداد وتعذيب وتنكيل ومصادرة وسجن وعبث بالقانون واستهانة واستهتار وتكبر وعجب وصلف وغرور. والحرية المفروض أن يتمتع بها الأفـراد لا وجود لها، لأن تلك المساحة المحدودة والشريط الضيق رأى النظام أنهـا لا مبرر لها، إما لأنه رأى في أفـراد الأمـة أنهـم قاصـرون ولا يعرفـون استخدامها؛ أو يسيئون التصرف، فآثر أن يأخذها منهم ويحتفظ بهـا لنفـسه اعتقادا منه أنه أقدر منهم على استخدامها.... أفراد لا يتمتعون بأي مساحة –

ولو ضئيلة – من الحرية، ونظام يتمتع بكل الحرية، وأصبح لديه شراهة ونهم شديدان لامتصاص واستنزاف وابتلاع ليس النذر اليسير من جزية الأفراد بل الأفراد أنفسهم.

هنا يتحول الأفراد من كونهم مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات إلى عبيد ليس لهم حقوق، وليس لهم من حق بأن يطالبوا بتلك الحقوق، وإنما عليهم واجبات لابد أن يؤدوها قسرا وجبرا، وإن لم يؤدوها يعاملوا معاملة العبيد العصاة المتمردين.

وهنا النظام لم يعد نظاما يقوم على الشرعية وإنما يقوم على الاغتصاب والاستبداد والقهر والظلم، والقائمين عليه ليسوا خداما للشعب أو عاملين لتحقيق الأمن والاستقرار والتقدم والرخاء، وإنما هم أسياد ومالكون ومتجبرون.

مع هذا الوضع المذري تبدأ شرعية النظام تتقلص شيئا فشيئا إلى أن تنعدم، وفي تلك اللحظة – وليس بعدها – يبدأ المحكومون في إلغاء التفويض وسحب التوكيل، ويعلنون ذلك زمرا وفرادى، وفي العادة يصم النظام أذنيه دونهم ولا يعبأ بما يقولون، ولا يكترث بما يريدون ولا يهتم بما يعلنون، لأنهم – في رأيه – ليس من حقهم إلغاء التفويض وسحب التوكيل، كيف يفعلون ذلك وهم فاقدوا الأهلية، ولا يتمتعون بأي حرية أو صلاحية ! والتفويض والتوكيل اكتسبا – بالنسبة له أيضا – صفة الأبدية، فهم لا يملكون إلغائه وليس من حقهم أخذه منه، كذلك لا يملكون منحه أو إعطائه لأحد غيره، وهو – النظام – يصر على ذلك، وهم – المحكومين – يصرون على أنهم ما يزالون يملكون حق منع التفويض عمن يشاءون، ومنحه لمن يريدون.

هنا يصل الاثنان إلى نقطة التحدى، تتشابك الأيدي، كل منهما يريد التغلب على الآخر، يستعين النظام بقوته وجبروته وأدواته وأساليبه في القهر

والبطش والظلم والاستبداد ظننا منه أن القوة بديل عن الشرعية، والتخويف والارهاب والتنكيل بديل عن التفويض، وتستعين جموع الشعب باللافتات ورفع الصوت والمظاهرات والإضرابات والعصيان والشعارات، ولأن النظام في موقف الضعيف فإن تلك الوسائل السلمية الهادئة تقض مضجعه ويرى فيها تهديدا خطيرا لوجوده وبقائه، ويحاول أن يقمع ويبطش ويسجن ويقتل، يفعل ذلك وهو فاقد الشرعية، ويبالغ في استخدام أساليب القمع مبالغة تخرج عن كل الحدود، مما يسبب استفزازا لجموع الشعب واستنفارا لكل مواطن ومراكز المقاومة النائمة أو الساكنة، هنا لا أقول إن الشعب يلجأ إلى القوة، لأنه هو الذي يمثل القوة الحقيقية، وإنما يلجأ الشعب إلى تجريد النظام من أدوات وأساليب القوة أو بمعنى أدق وأوضح تنصهر وتذوب أدوات وأساليب القوة التي يستعين بها النظام، لأنك هنا تستعمل القوة ليس في مجالها ولا في مكانها ولا في زمانها، استعمال القوة هنا دليل على الغباء والإفلاس، دليل على الغرور والصلف والعجب والتكبر، دليل على الوهم والضلال، وأنك لا تعيش على الأرض ولا تتنفس تحت الشمس، دليل على أن النظام أصبح حقبة متحجرة ملفوظة من عصور التخلف والتأخر والظلم والظلام، تريد أن تصوب رصاصات صدأه وقنابل متعفنة ومصفحات متهاوية، تريد أن توجه كل هذا نحو الشمس لتطفئها، تريد أن تضع حواجز من أسوار مصنوعة من ورق سوليفان لتمنع سيلا هادرا أن ينحت طريقه ومساره في صخور المستحيل، وينحت طريقه في أحجار الصعب.

تبدأ شرارات الثورة ضعيفة واهنة خافتة متفرقة متقطعة في البداية لتنفجر – ليس في النهاية ولكن في البداية – نارا ونورا.... نارا تحرق رموز الظلم والقهر، وتدمر صور الاستبداد والقمع... نورا لعصر من الحرية والكرامة والإنسانية.

* **طبيعة العصر...المناخ.... الحالة.... المزاج.**

الشعوب والأمم كالأفراد، تخضع لما يخضعون له من مؤثرات، وتنتابها حالات وجدانية وشعورية ما ينتاب الأفراد، فقد تتوافر للفرد أسباب الغضب والثورة ومع ذلك لا يغضب ولا يثور ولا يتحرك، ولا يدري لماذا لا يثور مع أن الأسباب موجودة ومبررة ومسوغة للثورة ؟!

وفي أحيانا أخرى يغضب ويثور ثورة عارمة، ويتساءل: لماذا ثار تلك الثورة في هذا الوقت بالذات ؟ ولماذا لم يثر من قبل أم من بعد ؟ لماذا ثار في هذا الوقت بالتحديد، وربما لم تتجمع ولم تتكامل أسباب الثورة كما تكاملت في وقت آخر ومع ذلك لم يثر، لماذا ثار هنا ولم يثر هناك ؟

فقد توجد وتتوافر مبررات للثورة ومع ذلك لا تحدث ثورة فالأمر هنا ليس معادلة تتوافر عناصر تؤدي إلى نتيجة حتمية لتجمع تلك العناصر، وليست مقدمات ينتج عنها – بالضرورة – نتيجة، تستطيع أن تتنبأ – بما توافر لك من معطيات – أنه ستحدث ثورة في هذا المكان ولكن متى بالضبط وبالتحديد، لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك، نعم هناك نذر تظهر في الأفق، وهناك مقدمات وإرهاصات تجزم وتؤكد بحدوث ثورة، ولكن تحديد لحظة البداية، لا أحد يستطيع أن يصل إليها، إنها مثل زلزال مدمر، بركان ثائر لا تستطيع أدق الأجهزة العلمية التي توصل إليها الإنسان أن تتنبأ به، حتى – فرضا – لو استطاعت أن ترصد وتتنبأ به، فهي عاجزة عن معرفة قوته وحجمه، وعاجزة عن تقدير ما ينتج عنه من تغييرات وتبدلات وتحولات.

الأمر مع الثورات مثل ((الحمل)) ولكن حالة الحمل هنا غريبة وعجيبة ومثيرة في نفس الوقت، فغالبا أنت لا تعرف من الأب الشرعي، ولا تستطيع أن تحدد بالدقة أو تعين على وجه اليقين.... وبالتالي لا تستطيع أن تحدد

الوقت الذى بدأ عنده الحمل، وترتيبا على ذلك أنت لا تقدر أن تتنبأ أو تتوقع موعد الولادة.

كذلك ليس هناك من الدلائل أو الإشارات القطعية التى تجزم بأن هذا الحمل كاذب أم طبيعي، هل هو مجرد انتفاخ أو مجرد أعراض وظواهر عرضية لحالة حمل ؟ أم أن الأمر حقيقي وصادق.

هنا لا تستطيع أن تستعين بأي أدوات مهما كانت دقيقة ومتطورة لتنبئك، أو تستطيع من خلالها أن تتنبأ هل سيحدث إجهاض أم أن الحمل سيمضي في أمن وسلام إلي أن يخرج الوليد إلى الوجود ؟

كل ما تستطيع أن تجزم به أن هناك شيئا في الأحشاء موجودا وهناك دلائل وإشارات وعلامات تدل على أنه ينمو، هذا الحكم ((آني)) تشعر أنه موجود وينمو الآن، ولكن بعد ذلك لا يستطيع حكمك أن ينسحب على المستقبل، أو بعد وقت ((الآن)).

إنها كانتظار ظهور نبي، تتقدمه التوقعات والتمنيات والبشائر والمقدمات، ويستشرف قدومه البشر والسماء والأرض، وقد يطول هذا الانتظار، وقد يمتد هذا الاستشراف، ويشتد الشوق إليه، وتقوى الرغبة فيه، وتتقلب الوجوه في السماء، وتفتش العقول في الأرض،إلتماسا لهذا النبي، ولكن لا أحد يعلم متى بالضبط سيظهر هذا النور القدسي، فتلك الأحداث الجسام التي تغير وتحول وتبدل حال البشر لا يعلمها ولا يقدرها سوى الله عز وجل.

قد يقول البعض إنه إذا تم التخطيط الجيد والمحكم للثورة وحساب كل الظروف والأحوال، قد يتسنى تحديد وقت الثورة، لأن الأمر هنا بيد القائمين بالثورة، فهم يحددون ((ساعة الصفر)). ولكن التاريخ يسجل لنا أنه في مرات كثيرة تم التخطيط للثورة، وكان هذا التخطيط محكما والتنفيذ متقنا، ومع ذلك لم تقم ثورة.

كذلك يسجل التاريخ أن كثيرا من الثورات لم يسبقها لا إعداد ولا تخطيط ولا تنفيذ، ومع ذلك حدثت ثورة ونجحت، وقد يعجزنا أن نحدد القائمين والمنفذين والمخططين لها.

إذن الأمر في غاية الغرابة، وفي غاية التعقيد.

- قد توجد مبررات ومسوغات للثورة، ومع ذلك لا تحدث ثورة.

- قد يتوافر التخطيط الجيد والإعداد المتقن، ومع ذلك لا تحدث ثورة.

- قد يتوقع الجميع بين لحظة وأخرى حدوث ثورة ومع ذلك لا تحدث ثورة.

- قد لا يتوقع بأي حال من الأحوال حدوث ثورة، ومع ذلك تحدث ثورة.

- المشاركون في هذا الحدث يشاركون فيه وهم لا يعرفون أن الأمر سينتهي بثورة.

بداية هم يعبرون عن غضبهم ونقمتهم، يريدون أن يفتحـوا سـبلا وطرقـا للتعبير عما في داخلهم.

ولكن فجأة وبدون مقدمات، وبدون إعداد منهم أو مـن غيـرهم تحتـويهم وتتملكهم وتسيرهم وتندفع بهم الثورة، ومع ذلك هم لا يدركون ولا يعرفـون ماذا سيحدث في اللحظة المقبلة، ولا أحد يستطيع أن يدعي أنه يعرف مقدما عما ستسفر عنه الأحداث.

حالة مراوغة:

على هذا فنحن نتحدث عن حالة مراوغة تستعصي أن تخضع لأي محاولـة رصد أو تسجيل أو دراسة، لا نستطيع أن نتحدث عن قبل وإنما نتحدث عن الثورة بعد حدوثها، لا توجد لحظة قبل الثورة، لأنك بيدك أن تحـدد القبليـة والبعدية إذا أمكنك أن تحدد الآنية، وآنية الثورة مجهولة، ولا أحد يستطيع أن يحددها او يتنبأ بها، وإنما نتحدث عما حدث قبل الثورة بعد حدوثها.

معنى هذا أن الثورة حالة أو ظرف أو حدث أو فعل نقف أمامه عاجزين عن رصده أوتسجيله أو الإمساك به !!
بقولنا هذا بدأنا بالفعل في توصيف الثورة أو تعريفها، مستبعدين غرور الدارس الذي يريد أن يكون موضوع الدراسة خاضعا له خضوعا كاملا، وأن كل شئ لديه تفسير وتعليل وتبرير، ولديه إجابة لكل سؤال، وأن الأمر ليس فيه غموض ولا إيهام، بل هو واضح وضوح الشمس، وهو إذ يفعل ذلك مع موضوع الدراسة يكون قد ابتعد ابتعادا كاملا عن موضوعه. وكل ما يضعه من تعريفات أو توصيفات لا علاقة له بموضوع الدراسة، فإذا كان الموضوع صعبا وعسيرا ولا يخضع لأساليب وأدوات وطرق الدراسة العلمية الدقيقة المفصلة، فقولك هذا واعترافك به، لا يعني إعلانا بالعجز، وإنما عرفت الموضوع، ووضعت له توصيفا، ووضعت الموضوع في مكانه الصحيح، وأخذت موقفا أو زاوية حقيقية منه، فهو ليس كالموضوعات المعتادة القابلة للدراسة والفحص والرصد، ولأنه موضوع مختلف فهو في حاجة إلى أدوات ووسائل مختلفة لدراسته، في حاجة إلى نظرة واعتبار مختلف، نظرة لا تعتبر أن الموضوع خاضع للدراسة المعملية، بأن يأخذ عينة من الموضوع ويفحصها بالأدوات المعملية الدقيقة، ويضعها في حالات وأجواء مختلفة ليعرف مدى التأثر والتأثير، لا يعتبر أن الموضوع خاضع للدراسة المنهجية العقلية التي تتخذ أساليب الاستقراء والاستنتاج والاحصاء والدراسة الميدانية لتخرج بعد ذلك بنتائج مفصلة ومبوبة.

فالثورة فعل قام به مئات الألوف من البشر، بل الملايين، كل فرد من تلك الألوف المؤلفة والملايين حالة مستقلة ومختلفة، وحدة قائمة بذاتها، لها تاريخها الفكري والاجتماعي والنفسي والوجداني، لها طموحاتها وآمالها، لها مشاريعها وأهدافها، هناك خلافات واختلافات في الرؤى والأفكار، خلافات

في كل شئ؛ قد تضيق هوة ومساحة تلك الاختلافات، وقد تتسع، ولكنها في النهاية موجودة، والذي يؤكد وجود تلك المساحة – مع الاختلاف في تقديرها – الاختلافات الموجودة بينهم في السن والنوع والديانة والطبقة الاجتماعية والتعليم والتثقيف والمؤثرات البيئية إلخ....

كيف في لحظة أو في مدة زمنية تطول أو تقصر، تختفي وتذوب وتنصهر كل تلك الخلافات والاختلافات، والجدر العازلة التي تجعل كل فرد وحدة قائمة بذاتها ومنعزلة عن بقية الوحدات، كيف لهذه الجدر أن تتداعى وتنهار لا إراديا وفجأة، وبالتالي تزول الخلافات والاختلافات والتمايزات والاستقلالية والانعزالية، وتصبح تلك المئات من الألوف وحدة واحدة قائمة بذاتها، موحدة الرؤية والنظرة، متطابقة الطموحات والآمال والأهداف، تهيمن على الحشود روح واحدة هي روح الجماعة، تلك الروح هي التي تفعل وهي التي تتحدث وهي التي تفكر وهي التي تدفع وتسوق تلك الحشود في أي اتجاه تشاء، وهي التي تفجر مخزون الإرادة والشجاعة والجرأة والتصميم، هي التي تزيح وتزيل ما تراكم على معدن الأمة الأصيل من صدأ وتراب وغبار، حتى ظن أن هذا المعدن قد تآكل وفني، فإذا هو موجود متينا صلبا، لم تنل منه السنون، ولكن زادته العصور عبقرية ونبوغا وشرفا ونبلا.

ولكن متى تتهيأ لتلك الروح أن تمارس هذا الفعل المقدس والعمل النبيل المبارك ؟

حالة وجدانية مزاجية نادرة الحدوث، لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد ؛ لأنها من الأحداث التي لا تتكرر على نفس النمط والصورة، تفيض فيضا على أغلب أفراد الشعب أو الأمة، تلك الحالة لا تستطيع أن تدرجها داخل أي سياق، ولا أن تنظمها داخل أي منظومة ما، لأنها هي نفسها سياق رئيسي تندرج داخلها الأحداث، وهي منظومة أصيلة تنتظم داخلها كثير من الأمور والتطورات، هي الفعل والفاعل، والبشر هم المنفعلون بهذا الحدث المتوهج،

فليس البشر هم من قاموا بالثورة، كيف والثورة هي التي دفعتهم وسيرتهم وأثارتهم ؟

وليس البشر هم من قاموا بالثورة،كيف وهم لم يدبروا أمرها ولم يخططوا لها ولم ينظروا لها.

وليس البشر هم من قاموا بالثورة، كيف وهم لم يكونوا على موعد لا زمانا ولا مكانا معها.

لأنهم لو كانوا هم الفاعلين، وهم المدبرين والمخططين وحددوا الزمان والمكان لتحولت الثورة من ثورة إلى مشروع، كأي مشروع من تلك المشروعات التي قد يحالفها التوفيق أو لا... وما يتوافر في المشروعات لا يتوافر في الثورات كالتخطيط والتنفيذ والعمد، وفئة معينة ومحددة ومعروفة دون غيرها هي التي نهضت وقامت ونفذت، بينما الأخرون لم يفعلوا شيئا، وعلى هذا فمن قام بالعمل له الحق في أن ينسب الثورة له، وله الحق أن يجني ثمار الثورة دون غيره، وليس من نتائج الثورة أن يستجاب لطلب فئات معينة، لأن تلك المطالب كان من الممكن تحقيقها بدون ثورة، فالثورات لا تحدث كي تتحقق تلك المطالب، وإنما المطلب الرئيسي والأساسي للثورة هي الثورة، وما يحدث عقب الثورة وبعدها من إصلاحات وتبدلات وتغيرات ليست من الثورة بشئ، وإنما هي مطالب ورغبات وأهداف البشر، وهؤلاء لم يقوموا بالثورة – كما ذكرنا – ولكن الذين دفعت بهم الثورة في طريقها.

ورب معترض يقول: معنى هذا أن البشر لو أرادوا أن يقوموا بالثورة لا يستطيعون ؟

نعم، فعنصر الإرادة والقصد لا يتوافر في الثورة، سمه تمرد، عصيان مدني، اضراب احتجاج، اعتراض، انتفاضة... إنما ثورة.. لا. فأغلب تعريفات الثورة أنها تحدث فجاة

لا أحد يستطيع أن يحدد زمانهـا ولا مكانهـا، ولا أن يتنبـأ بأحـداثها ولا مسارها، ولا من قام بها

فالثورات التي حدثت وتردد صداها في سماءِ الإنسانية وعلى مدى تاريخها الطويل ومضات قليلة، ونستطيع أن نعدها ونحصيها، مع أن شعوبا وأممـا كثيرة رزحت تحت الظلم والقهر والعسف والاستبداد قرونا متطاولة، ومـع ذلك لم تثر، حتى وإن ثارت مرة أو مرتين، فهـذا لا يتناسـب وعـصور الخضوع والخنوع والاستكانة التي مضت عليها.

وليس معنى قدرية الثورة أن البشر لا دخل لهم فيها، أن إرادتهم مغيبـة أو مهمشة، وإن الثورة تحدث أرادوا أم لم يريدوا، وإنما أقصد من القدرية أنها شئ أكبر وأعظم من أن تدخل تحت إرادة البشر أو تتوقف على رغبـاتهم، دائما ننظر إلى القدر على أنه مصادرة لحرية وإرادة ورغبة الإنسان، مع أنه ينبغي أن ننظر إلى القدر أنه شئ متعلق ومرتبط بأساس الكـون وبجـوهر الوجود، بإرادة ومشيئة الله عز وجل.

أعظم وأهم وأخطر الأمور تلك التي لا تتدخل فيها إرادة البشر، نعم، بيـدك أن تشكل وجودك وتختار أمورا متعلقة بهذا الوجود، ولكن أن توجد أنت أو لا، أن تحيا، أو تموت فهذا شئ قدري، وأن يوجد هذا الكون بهـذا الـشكل والتنظيم والتقدير، فهذا شئ قدري لا دخل للبشر فيه، وإن كان الأمر يمسنا ويعنينا ويهمنا في المقام الأول، ونحن جزء منه منتظمين فيه وقد خلق الكون لنا وخلقنا له، بل نحن والكون شئ واحد، فلا يتصور الكون بدون بشر، ولا يتصور البشر بدون كون.

كذلك الثورة، فليس معنى أنها قدر أننا لا دخل لنا فيها، وأن الثورة قد تحدث والناس يلعبون لاهون، أو هم قائلون، فلا نتصور أن تحدث ثورة بدون بشر، ولا نتصور البشر لا يثورون على المدى الطويل، فلابد للبشر أن يثوروا لا

لشيء إلا لأن الثورة أساس من أسس هذا الكون، فالكون ثائر، في حال تبدل وتغير، وأحداث وظاهرات وأمور قد تحدث بدون سابق تمهيد أو تحذير، قد تغير وجه العالم وشكل الأرض وملامح الكون.

مصر خائفة !!

مرت أيام على مصر لم تكن تنام إلا غرارا، وإذا ذهبت إلى مضجعها لتنم لم تكن تدري عما ستستيقظ، أو أي طارق سيوقظها، وإذا استيقظت في الصباح لم تكن تدري على أي حال من الأحوال ستكون عليه حينما يـأتي المـساء عليها، وقد انتابت كل شئ حالة غريبة ونادرة وعجيبة من الخوف، وقد مسح الخوف بيده المرتعشة الوجلة وجه كل شئ في مصر، حتى النبات والطيـر والحيوان، وكان الخوف موجودا في كل حدب وصوب إلى درجة أن الناس كان يتنفسون خوفا ويقتاتون فزعا.

ذكرى تلك الأيام ستظل ماثلة بكل ملامحها الكئيبة وأنفاسها المقيتة، وأظـن أنها لن تمحى من ذاكرة مصر فيما يمحى من ذكريات وأحداث.

نعم كانت مشاعر من الفرح والسعادة والنشوة، ولكن كل تلك المـشاعر مـا تكاد تظهر حتى تختفي، وما تكاد توجد لحظات حتى تتبدد أياما، وما تلبث أن تأخذ مكانها من قلب وصدر مصر حتى تهرب مولية الأدبار، تاركة أماكنها شاغرة حين تسمع أصوات أقدام الخوف الثقيلة، وتشعر بأنفاس الفزع يكاد أن يحرق وجهها المشرق الوضاء النبيل، وتظل – المشاعر – متوارية مترددة لا تريم، فلا هي تركت أماكنها إلى غير رجعة، ولا هي تجرأت وأصـرت أن تشغل أماكنها الشاغرة !

مم كانت مصر خائفة ؟

وعلام كانت مصر خائفة ؟

كانت مصر خائفة من المجهول.... نعم كانت على أعتاب وبدايات المجهول، ولا تدري أتتخطى تلك العتابات وتلف من تلك البوابات ؟ أم ترجـــع إلـــى الوراء ؟ أم تقف مكانها ولا تتحرك ؟

أما أنها تتخطى تلك العتابات، وتلف من البوابات، فهذا عبارة عن قفزة في الظلام، قد يصادفها التوفيق وتجد قدميها واقفة فـــوق أرض ثابتـــة آمنـــة. وتستأنف مسيرتها وسيرها الآمن، وقد تتعثر قدماها وتسقط – لا أحدثه الله – ولو سقطت مصر قد يتزلزل العالم كله، وتسقط أشياء كثيرة تبعا لـــسقوطها، فمع المجهول لا شئ مضمون، كل الاحتمالات واردة ووقائمة.

وأما أنها ترجع إلى الوراء، كيف ؟! وهي قد أصدرت قرارها بملء حريتها وكامل إرادتها أن تطلق – إلى غير رجعة – تلك العقود التي عانت وعـــانى شعبها فيها الأمرين، لقد– أهينت عن عمد وقصد وإصرار – إهانة بالغـــة، وخدعت وكذب عليها، زورت إرادتها، ونهبت وسرقت وضللت، واســـتهين بمكانتها، واستهتر بوزنها، وعبث بثوابتهـــا، وحـــاولوا تقـــويض وتحطـــيم دعائمها.... والرجوع معناه الاحتراق أو الانتحار، وهي قد قطعت عهدا على نفسها وأعطت وعدا ألا تخضع وألاتستكين وألاتـــسكت وألاتـــصمت، ودأب مصر وديدنها ألا تنكث عهدا ولا تخلف وعدا.

وأما أنها تقف مكانها لا تتحرك، فهذا أسوأ قرار تتخذه أي بلد، ناهيك عـــن مصر، والوقوف وعدم التحرك إلى الأمام معناه الاستقالة من العالم والخروج من التاريخ، ولا نقول إن مصر قد وقفت، ولكنها في الأونة الأخيرة تلكـــأت وأضاعت الكثير من الوقت والجهد، وربما لم يكن لها ذنب في كـــل هـــذا ؛

لأنها كبلت وقيدت ووضع أمامها الكثير من العقبات والحواجز والموانع، تارة من أعدائها وتارة من أبنائها الجاحدين لفضلها ونبلها معهم.

إذن مصر خائفة أن تتقدم، فالطريق لم يختبر من قبل.

وخائفة أن ترجع إلى الوراء لأنها ودعت ما مضى غير مأسوف عليه.

وخائفة أن تقف مكانها، لأن الوقوف يعارض سنن الطبيعة ويخالف العقل ويجافي المنطق.

وكانت مصر خائفة على مستقبلها وعلى مكتسباتها التي اكتسبتها على مر القرون، وقد خبرت من تجربتها الطويلة، وما مرت به من مآزق وأزمات وهزائم وانتكاسات، أن أي خطأ في الفعل والتصرف – ولو كان بسيطا – سيكلفها الكثير والكثير، وهي قد ضحت مرات كثيرة، وضحت بالكثير، وأي تضحية أخرى قد لا تقدر عليها، لأنها – وبحق – قد أجهدت واستنزفت واستهلكت وامتصت حتى النخاع. مصر – اليوم – ليس لديها استعداد وليس في إمكانها – بحالتها الآن – أن تكرر أو تعيد أو ترتكب أي خطأ في مسيرتها واندفاعها إلى المستقبل... أظن أن قدرتها على تحمل أخطاء أو خطايا، تلك القدرة – التي كانت مشهورة وتمتاز بها قديما – قد نفدت وتبددت، وربما يكون هذا من سوء الحظ، ومن حسن الحظ في نفس الوقت.

من سوء الحظ ؛ لأن مصر لا أقول ضعفت أو وهنت، ولكن مزاجها تغير، طرأت على شخصيتها – من كثرة وتعدد وتنوع ما مرت به على مدار تاريخها الطويل – تبدلات وتغيرات وتحولات، فما كانت قادرة عليه بالأمس قد لا تقدر عليه اليوم، وما كانت تصبر عليه بالأمس، قد لا تجد في صدرها سعة أن تصبر اليوم، وما كانت تطيقه الأمس وتسمح به وله، وفقا لتطلعاتها وطموحاتها، قد لا تسمح به وله، لاختلاف تلك التطلعات والطموحات.

ومن حسن الحظ ؛ لأن هذا سيخلق لديها حذرا وحرصا، والتفكير طويلا وبعمق قبل أن تخطو أي خطوة، أو تهم بأي عمل أو تدخل في تنفيذ أي مشروع من المشروعات التي تمس مصيرها وتشكل وجودها وترسم مستقبلها، مصر تعدت وتخطت مرحلة الاندفاع والتهور والرعونة، مصر لم تعد تسير وراء عواطفها – مثلما حدث في مرات كثيرة – وإنما يجب أن يكون العقل رائدها والتفكير مرشدها والمنطق هاديها.

وخوف مصر هذا ليس عن جبن، ولكنه نابع من إحساسها بضخامة المسئولية، وثقل العبء وخطورة الموقف، فلا يجب أن يستخفها شئ حتى لو كانت ثورة، تتحسس طريقها وتبلوه قبل أن تسير فيه، تضع على جانبيه العلامات والصوى قبل أن تتوغل فيه، ترسل بصرها الحاد لترى نهاية الطريق قبل أن تطأ قدماها بدايته، تفكر أكثر من مرة قبل أن تحزم رأيها، وتراجع نفسها قبل أن تتخذ قرارها.

نعم، مصر خائفة، وجرى إخافتها، واتخذت من الاجراءات الشيطانية والأفعال الجهنمية ما يجعل الفزع والرعب يتسللان إلى قلبها الآمن المستقر.

بؤر الخوف.... مراعي وحظائر الذئاب.

إذا كانت المجتمعات قد ابتكرت وتوصلت إلى فكرة السجن لتحجز وراء جدرانه هؤلاء النوعيات من البشر الذين يمثل وجودهم أحرارا خطرا على المجتمع، فرأت أن تعزل هؤلاء عن المجتمع أو تعزل المجتمع عنهم ؛ لتكفيه شرورهم وأخطارهم وجرائمهم، فقد ارتكبوا – أو أعداد منهم – جرائم بشعة كان من شأنها نشر الفساد والفوضى والدمار في المجتمع، وهم على استعداد أن يرتكبوا المزيد لو تهيأت لهم الفرصة.

وتنفق المجتمعات على تلك السجون الكثير من المال والجهد والاهتمام، ولكن كل هذا يتضاءل أمام الفائدة العائدة على المجتمعات أو الضرر المرفوع عن المجتمعات من جراء عزل وسجن هؤلاء، والمجتمعات في خير وأمن وسلام، طالما هؤلاء خلف الجدران، لا يملكون أن ينفثوا سمومهم في أوردة المجتمع، ومعنى أن يتم تحريرهم وإطلاقهم من سجون مصر، فهذا بمثابة إطلاق قطعان من الذئاب الشرسة المتوحشة الجائعة المسعورة على قطيع من الحملان التي ترعى وهي غافلة عما يحدق ويحيط بها من خطر داهم قد يكلفها حياتها.

مصر في بداية الثورة كانت خائفة كما ذكرنا من قبل، ويأتي هذا الحدث البشع – فتح أو تحطيم أو تدمير السجون في جميع ربوع مصر وتحرير من فيها – ليزيدها خوفًا وفزعًا ورعبا، علها ترتدع وتهرب الحملان الوديعة إلى حظائرها، وتأوي الطيور الآمنة إلى أعشاشها، وتوأد الثورة أو يقضى عليها، فلا تنتظر من خائف أو مفزوع وجل أي حركة أو خطوة للأمام.

المخيف أكثر، والمفزع أكثر، والمرعب أكثر، أنه قبل تحطيم جدران سجون مصر أو موازاة لها أو بعدها، ذابت أو انصهرت أو تبخر جهاز من أقوى أجهزة الأمن في العالم... جهاز الشرطة في جميع ربوع مصر من أكبر مدينة إلى أصغر قرية، أظن – على حد علمنا – لم يحدث هذا في تاريخ مصر القديم أو الحديث، وبين تواجده على الأرض واختفائه ساعات أو أقل من ذلك في نفس الحيز الزمني تقريبًا يتم حرق واقتحام أقسام الشرطة في جميع محافظات مصر، وفي بعض المحافظات يتم – أيضا – حرق واقتحام مباني مباحث أمن الدولة، وفي بعض المحافظات يتم حرق وتدمير مباني المحاكم وإتلاف ما بها من سجلات. وتظل تلك الحرائق سواء كانت في

أقسام الشرطة أو مباني مباحث أمن الدولة أو المحاكم مشتعلة لعدة أيـام لا يقترب منها أحد !!

- مصر تشب فيها ثورة.
- يختفي جهاز الشرطة بكاملة فجأة وبدون مقدمات ولا يبقى له أثر.
- تفتح أو تكسر أو تـدمر أبـواب وجـدران الـسجون، ويحـرر المسجونون.
- تحرق وتدمر جميع مراكز الشرطة في جميع أنحـاء الجمهوريـة، ويستولى على ما فيها من سلاح.
- يتم حرق واقتحام بعض مباني مباحث أمن الدولة، وحرق وإتـلاف والعبث بالوثائق والمستندات والسجلات.
- يتم حرق واقتحام بعض مباني المحاكم وحرق وإتـلاف الـسجلات والوثائق.

أحداث متعددة، لو حدث أي منها منفردا في أي بلد آخر غير مصر لزلزلهـا من الأعماق، ولكن الغريب والعجيب والنادر أن مصر خرجـت مـن تلـك الأحداث سليمة معافية ؛ ذلك لأنها – رغم كل ما مر بها وحدث لها – ثابتة الدعائم، قوية الأركان، متماسكة الأواصر.

ولكن هل هناك علاقة بين تلك الأحداث ؟

هل هي أحداث متسلسة، كل حدث أنتج الحدث الذي يليه ؟

وهل إذا كانت هناك علاقة بين تلك الأحداث، هـل هـيَ علاقـة طبيعيـة ومنطقية، أم أن هناك من استغل هذا الظرف الحرج وحاول تنفيذ أمر مـا، ودفع بالأحداث إلى وجهة لتحقيق مآرب ما ؟

هل حدثت الثورة في وقت أو في ظرف كان يعد فيه لصياغة أو تشكيل وضع معين، فانفرط العقد من يد هؤلاء وخرجت الأمور عن سيطرتهم ؟

هل استبقت الثورة ترتيبات وإعدادات كانت ستنفذ في وقت لاحق، فحاول المخططون والمعدون مسارعة الثورة، وتجاهلها ومضوا في تنفيذ ما خططوا وأعدوا له ؟

هل كل ماحدث كان من الممكن أن يحدث – مستقبلا – بغض النظر عن نشوب الثورة، وأن الثورة جاءت بمثابة انفجار، أخرجت كل الأمور والأحداث عن سياقها الطبيعي أو نظامها المنطقي ؟

ولو قبلنا بنظرية المؤامرة – ولها مؤيدوها – هل تم هذا من الداخل فقط، أم من الخارج فقط، أم من الداخل بمعاونة من الخارج ؟

ستجتمع اللجان وتحقق وتتقصى وتدقق وتفحص وتبحث وتدرس وترصد وتسجل، ومع ذلك لن تصل إلى حقيقة ما حدث بالضبط، وذلك لأمرين:

- أن القائمين على تلك اللجان بشر، وهم يريدون عقلنة كل شئ، كذلك يريدون أن يخضعوا كل شئ للمنطق، يريدون أن يكون كل شئ واضح وجلي، ويضعون أمام الناس المقدمات ويقنعونهم بالنتائج التي ترتبت – حتما – عن المقدمات، والأمور قبل الثورة وأثناء الثورة وبعد الثورة خرجت عن كل عقل وكل منطق،هناك مسارات كثيرة ومتعددة ومختلفة، وطرق ودروب وسبل تداخلت وتقاطعت واختلطت، كذلك هناك قوى ومراكز ومناطق تصارعت، وتسارعت، وتسابقت، وتنازعت، وأخرى اتفقت وتوافقت وتعاهدت وتواعدت، – أيضا – هناك أيادى موجودة ومعلومة وظاهرة، وهناك أيادى متوارية ومجهولة وخفية، وهناك من يريد الخير كل الخير لمصر وشعبها، وهناك من يريد الشر كل الشر لمصر وشعبها، وهناك من

ظاهره كباطنه، وهناك من يخالف ظاهره باطنه، هناك الصديق الحق، وهناك العدو الذي ارتدى مسوح الصديق والناصح الوفي. وأن تكلف بشر أن يخرج من كل هذا بحقيقة ما حدث، أظن أن هذا فوق طوق أي بشر.

- مصر بلد الأسرار، منذ فجر التاريخ اتسمت حضارتها وتسربلت واتشحت بالأسرار والطلاسم والألغاز والغموض، فما زلنا بعد هذا الزمن المديد نجهل الكثير عن تلك الحضارة، أعظم رموز تلك الحضارة من أهرامات ومعابد، كيف تم تنفيذ تلك المباني الضخمة، وما هي الأسس والقواعد الهندسية التي اتبعوها ؟ كيف أمكنهم أن يحنطوا الجثث لتبقى الآف السنين لا يتسلل إليها أنامل الفناء ؟ ما مصير ونهاية بعض الملوك الذين كانوا لهم بصمات واضحة وسطور عظيمة في سجل تلك الحضارة ؟ مع أن المفروض أن يكون كل شئ مسجلا ومكتوبا، فهم قوم أهل كتابة وتسجيل، لقد انطقوا الحجر الصوان ! ولكن كل هذا كان مغلفا بالأسرار، فالكهنة وحدهم هم الذين يعرفون ويعلمون، وكان علم تلك الأشياء محرما على غير الكهنة، وليس كل الكهنة، فهناك ما يسمى بكاتم الأسرار، وكان الكاهن يموت ويموت السر معه، وتبقى كثير من الحقائق مجهولة محجوبة، وكل ما توصلنا – نحن – إليه عن أسرار تلك الحضارة مجرد تكهنات وافتراضات لكي نرضي غرورنا العلمي.

وعلى ما يبدو أن هذا الماضي ألقى بظله على الحاضر، واتسمت كثير من الأمور والأحداث في الحاضر – كما اتسمت كثير من الأمور والأحداث في الماضي – بالغموض، وعدت من الأسرار، وحجبت ومنعت عن كل وأي إنسان، فكثير من أحداث تاريخنا

الحديث والقريب لا نعرف حقائقه، ومازلنا نجهل بواعثه ودوافعه، ولا أمل في أن يصل أحد إلى الحقيقة، ولا رجاء أن يتفضل أحد أو يتطوع بكشف أي حقيقة، ولو ظهر أحد معلنا أنه كاشف لحقيقة ما ستجد العشرات ينقضون قوله ويبطلون دعواه، ويرمونه بالكذب والافتراء، ويبينون أنه صاحب هوى، ويريد تحقيق أغراض ما من وراء عمله هذا، وتحار أنت من تصدق ؟ ومن تؤيد ؟ ومن تشايع ؟ لذلك لا أظن أنه في يوم من الأيام سنعرف حقيقة ما حدث بالضبط، لا لشئ إلا لأنك في مصر، بلد الأسرار....

وتمضي مصر لياليها المظلمة – أثناء الثورة – وعواء الذئاب يتردد في الطرق والدروب، وتجوس الذئاب لتنشر الرعب والفزع، وتزداد الذئاب توحشا وشراسة حينما لا ترى رادعا يردعها، أو وازعا يزعها.
ولكن كل هذا ما كان ليخمد نيران الثورة، بل يزيدها اشتعالا، ويزيد نورها و توهجا وسطوعا، وتتفتح براعم وزهور الثورة حينما ترتوى بدماء الشهداء الذكية الطاهرة.
ويزداد خوف مصر من الثورة وعلى الثورة !
في تلك اللحظات العصيبة والمتأزمة والحرجة والتاريخية والفارقة، كانت مصر الثورة أو ثورة مصر عارية ومكشوفة وعزلاء.
كانت في حاجة إلى من يغطيها.
كانت في حاجة إلى من يسترها.
كانت في حاجة إلى من يحميها.
ولم يكن ثمة إلا قلب مصر الصلب.
الجيش النبيل.
وإلى من تلجأ مصر في تلك اللحظات إن لم تلجأ إلى جيشها ؟

وإن لم يقف الجيش بجوار مصره في تلك اللحظات فمتى يقف ؟

وجدت الثورة غطاء ومظلة وسترا وحماية، وأوت إلى ركن شديد، أو أواها ركن شديد.

مصر آمنة

الثورة والجيش

منذ اللحظة الأولى للثورة، وبعدما تبين موقف الجيش من الثورة، أو أظهــر الجيش موقفه من الثورة، بأن بسط عباءته حاميا ومؤيدا وراعيا، تبــدى أن حركة الثورة لابد أن تتمشى وتتوافق وتنسجم مع رؤيــة ونظــرة واتجــاه الجيش، وإلا سيحدث بينهما لا أقول صراع أو شد وجذب، ولكن نوعا خفيــا من الاستحواذ الذي ظهر للأعين بــصورة الأســتهواء والاسترضــاء مــن الجانبين.

فالجيش يرى – وقد حمى ورعى وأيد – أن تنزل أو تتنازل – عن رضــى وطيب خاطر – الثورة عن آلياتها وطرقها وأساليبها، وتترك الجيش ينفذ ما تطلبه ولكن وفق آلياته وطرقه وأساليبه، بمعنى أن ((تجييش)) الثورة.

والثورة ترى – وقد قبلت ورحبت واستجابت لعرض الجيش بالحمايــة – أن يتبنى الجيش ويتخذ أساليبها وطرقها في سرعة وعمق وشمول إحداث التغيير الذى تنشده الثورة، بمعنى ((تثوير)) الجيش في هذا الوقت بــصفة خاصــة وأظن أن كل منهما يطلب من الآخر شيئا عسيرا، وليس هينا، بــل أن كــل منهما يكلف الآخر من أمره شططا.

فالجيش – كما هو معروف – مؤسسة رسمية من مؤسسات الدولة، بل هــى اقوى مؤسسة، وإذا قلنا أنها العمود الفقرى للدولة لا نبالغ، تــؤدي مهامهــا الوطنية في حسم وحزم وصرامة، بنيانها الداخلي متماســك متــضام متــين صلب، لا تسمح تحت أي ظرف من الظــروف بــالتراخي أو التهــاون أو التفريط في حق من حقوق الوطن، لذلك لم يتطرق الفساد ولم يجد له موطئ

قدم في تلك المؤسسة، مع أنه تربع واستشرى وعشعش في مؤسسات أخرى من الدولة.

والجيش في مصر له وضع خاص، فهو ليس ببعيد ولا بغريب ولا منعـزل عن الشعب، والشعب ينظر إليه نظرة ملؤها الاحترام والتقدير والتوقير، ومع أن الجيش – منذ البداية – قد حدد دوره ومهامه، فليس له أي دور يذكر في الحياة السياسية، ولا دخل له فيما يحدث في الداخل، إلا أنه هنـاك وشـائج وأواصر وثيقة تربطه بالشعب ؛ لأنه – منذ محمد على – هذا الجـيش مـن نسيج المجتمع المصري، وتاريخه المشرف المجيد جعل الشعب لا ينظر إليه نظرة الحامي والمدافع ورد أي اعتداء خارجي فحسب، بل جعـل الـشعب ينتظر من الجيش ويتوقع بل يرحب أن يطل على الداخل لتقويم المعوج، إذا عز على الشعب فعل ذلك، وما حدث من ((عرابي)) وما حدث من الجيش في ١٩٥٢، جعل الشعب – حينما تتأزم الأمور داخليا ويعجز عن معالجـة الوضع – ينتظر من الجيش أي نوع من التدخل، وإن لم يكن فلـيس علـى الأقل ألا يقف الجيش ضد أي تغيير أو يقمع أي تبديل يهدف إلى الاصلاح. فالجيش المصري وجهه ونظرته وفكره متجه إلى الخارج وظهره إلى الداخل لحماية الوطن، ولكن الأخطار التي قد يتعرض لها الوطن قد تأتي هذه المرة من الداخل، ومفهوم الحماية عنده ليس ضيقا ولا جامدا، فليس هـو مكلـف بالدفاع عن الوطن ضد أي اعتداء خارجي ولكنه مكلف بالدفاع عن الـوطن ضد أي خطر يتعرض له الوطن داخليا أو خارجيا، فليس دائمـا التهديـدات التى تتعرض لها الأوطان من الخارج فحسب، وإن تصادف وحدث تهديد من الداخل، فعلى الجيش أن يغير وجهته – ولو مؤقتا – ليطل على ما يحدث في الداخل ويتدخل، فهو لا يعطي ظهره للوطن ووجهـه للخـارج إلا إذا كـان

مطمئننا لما يحدث في الداخل، وإلا كان عمله لا جدوى منه، إذا كان يحمي الخارج والداخل مستنقع من الفساد والإفساد !

وقد أثبتت الأحداث الأخيرة أن الجيش المصري مع مباشـرة مهامـه فـي التعامل مع أي خطر يأتي من الخارج، كان يضع عينا عمـا يحـدث فـي الداخل، وإنه كان على علم ومعرفة ودراية بكم الفساد والانحراف والتدهور الذي أخذ يدب في أجهزة الدولة، وعدم رضا الشعب، بل وتململـه وضـيقه بالعبث والتفريط في مقدرات ومكتسبات كانت محل افتخاره وسجل اجتهـاده وإنجازاته، – وأيضا – تزوير وتزييف لإرادته، وتغييب لوعيه وتعتيم لفكره، وتهميش لدوره الإقليمي والعالمي، ليس هذا فحسب، بل أبعد عن دوره الذي يفرضه تاريخه الحافل بالمواقف الوطنية والقومية، وموقعه الملهم لزعمائـه على طول التاريخ بأن يتخذوا – عن شجاعة وجرأة – قرارات تكون لها أثر كبير في مصير الإقليم والعالم.

لا شك أن المؤسسة الوطنيه، بل عنوان الوطنية، لم تكن راضية عما يحدث في الداخل، فالوطن يضيع ويتبدد ويذوب كيانه وقوامه شيئًا فشيئًا، وأظن أن الجيش كان في مأزق حرج وموقف مقلق، فليس أمامه إلا أمران:

- أن يتدخل لتقويم المعموج، ولكن قد يساء فهم تصرفه، ويطلق علـى هذا التدخل نوع من الانقلاب على السلطة الشرعية، ويظهر الجيش أنه طامع في الحكم وراغبا في السلطة، وهذا أبعد ما يكون عن فكره واهتمامه
- أن يصم أذنيه ويغمض عينيه، ولكن هذا ليس من دأبه ولا ديدنه، فلم يكن من قبل منفصلا عن شعبه ولا متخليا عن وطنه.

وأظن أن هذا المازق قد ازداد تأزما، والموقف قـد ازداد حرجـا، ووقـف الجيش يرقب عن كثب ما يحدث على الساحة السياسية، لا هو بالمطمئن ولا

هو بالمستريح، ولولا أنه مؤسسة عاقلة رشيدة رزينة تعلو بمصلحة الـوطن فوق كل اعتبار لاتخذ موقفا لا يلام عليه، بل قد يجد تأييدا وترحيبا، لأنه كان يطوف بخيال الشعب ويدور في ضميره مثل هذا الموقف.

وحيناً حدث ما حدث في ٢٥ يناير، لا أظن أن الجيش قد فوجئ أو أن هذا لم يكن يدور بخلده، أو أنه لم يحسب له حسابا، ولم يعد له إعدادا، وربما لو لم يحدث ما حدث في ٢٥ يناير – أقول ربما – لجاءت الخطوة من الجيش نفسه !

وإنا لا ندري هل نحاز الجيش للثورة بسبب تخليه وفقده كل أمل ورجاء في النظام ؟

أم تخلى عن مساندة النظام والوقوف بجانبه بسبب إيمانه وتأييده للثورة ؟

وهناك فرق.

ففي الأولى رأى الجيش أن النظام قد تداعى وانهار، وأصبح هناك فـضاء، وكان لابد وأن يشغل هذا الفضاء، ولأنه المؤسسة التي لـم يتطـرق إليهـا الفساد، فكان يرى واجبا عليه تاريخيا وحـضاريا أن يتواجـد بـصورة أو بأخرى لملئ هذا الخواء، وإذا لم يقم هو بهذا، فهو لا يمانع – إن لـم يؤيـد ويساند – أن تتولى أي جهة وطنية القيام بهذا الدور وتلك المهمة.

وفي الثانية، حينما حدث ما حدث من صدام بين الثـورة والقـوة الغاشـمة للنظام، قارن وفاضل الجيش – بفكره المتزن وخبرتـه العريـضة وحـسه الوطني ومسئوليته التاريخية – بين الثابت والمتغير، بين الباقي والزائل، بين الأصل والفرع، بين الصوت والصدى، بين الجوهر والعرض.

ولم يطل الأمر بالجيش أيهما يختار، ولا إلى أي جهة ينحاز.

أيما كان الأمر، فقد أثبت الجيش بهذا الموقف الوطني والتاريخي والحضاري، أنه من نسيج هذا الشعب الأصيل، وبرهن أنه السيف والدرع لتلك الأمة، في الأوقات التي تعز فيها السيوف والدروع.

موقف الجيش

وإن كان موقف الجيش هذا غريبا ونادرا.

فعادة الجيوش لا تتخلى عن الأنظمة الحاكمة بسهولة، لأنه هو النظام القائم والثابت، وهي مكلفة – بصورة أو بأخرى – بحمايته والدفاع عنه ضد أي تهديد.

وعادة الجيوش لا تؤيد الثورات، على الأقل في بدايتها، لأنها – الثورات – شكل هلامي لم يتكون بعد، ومخلوق في طور النشأة، لم يتخلق تخلقا كاملا بعد، وفورات واندفاعات وتدافعات لم تحدد مسارها وطريقها بعد. فالثورة أمل لم يتحقق بعد، ومشروع لم ينفذ بعد، والجيوش لا تتعامل إلا مع الحقائق والوقائع.

ولكن في تلك اللحظات التي اتخذ الجيش فيها قراره أو حدد موقفه، أو أعلن اتجاهه، كان الأمر، أكبر وأعظم وأخطر من اختصاصات جيش لا يتخطاها، أو صلاحيات جيش لا يتعداها، كان مصير وطن، وكرامة شعب وشرف أمة، وهيبة دولة، كلُ هذا في وقت تتأرجح وتهتز، وقد تعصف بها رياح وتذهب بها إلى غير رجعة.

لقد قامت الثورة لتحدد مصير الوطن، وتصون كرامة شعب، وتحافظ على شرف أمة وتبقي على هيبة دولة، والجيش جزء من كل هذا، ولا ينفصل عنه.

لقج ذابت واختفت الحدود الفاصلة بين الجيش كمؤسسة رزينة متجهمة صارمة تطيع الأوامر – مهما كانت – طاعة مطلقة، تقدس التسلسل القيادى، تستخدم القوة بصورة مفرطة وبطريقة حازمة حاسمة، وبين فوران واندفاع وسيولة وغليان الثورة، وحدث مشهد في غاية العجب والروعة والدلالة، تعانق حميم بين دبابات ومصفحات الجيش وجماهير الثورة واعتلت وركبت الجماهير تلك الدبابات والمصفحات، بل سطرت وكتبت عليها أهم وأعنف شعارات ومطالب الثورة.

حينئذ اطمأنت مصر الثورة أو ثورة مصر، وزال عن قلبها كل خوف. .

وأصبح للجيش على الثورة جميل.

وأصبحت الثورة تدين للجيش.

جميل.

ودين.

والجميل في حاجة أن يرد !

والدين في حاجة أن يوفى !

ولكن تلك مسألة أخرى.

لماذا المصريون غاضبون ؟

لا أحد ينكر أن طباع وسمات وخصائص الشخصية المصرية قد نالها شيء من التغيير بمرور الزمن... وهذا شئ منطقي ويوافق السنن الطبيعية، فكل شئ في هذا الكون يخضع للتغيير بشكل أو بآخر، وبنسب متفاوتة، و هو تغيير يتفق مع القانون العام للتغيير في الوصول إلى الهدف المنشود والمقصد المرغوب من التغيير، وهو السير مع أو في السياق الزمني للوجود،- وأيضا - تغيير طبيعي يؤدي إلى التطور المتسق المتتابع المترابط لمراحل نمو الشخصية.

ولكن أن يتم التغيير بسرعة غير معهودة، ويشمل هذا التغيير ثوابت مضى عليها قرون بدون أدنى تغيير، وأيضا يكون شاملا لمعظم مناحى الحياة، ولا يتجه إلى الأمام - غالبا - ولا يوافق هوى ورغبة أصحابه، ولا يملكون من أمره شيئا، بل هم مساقون ومرغمون عليه، فهذا عندما يحدث على تلك الصورة لا يسمى تغييرا للشخصية وإنما هو تجريد لها من كل مقوماتها ومقاوماتها، ومحو لكل سماتها وخصائصها، وتمييع لقوامها، ونخر في الجذور والأساس، لإسقاط الكيان وتقويض البنيان....

- فالتغيير - أي تغيير - لابد أن يتم على مهل وفي إتئاد ؛ لأنه عملية معقدة تشمل جميع أجهزة وأنظمة الكائن، ولابد أن تتم في تناغم وتآلف بين تلك الأجهزة والأنظمة، وأن يحدث تنافر أو اختلاف بينهم فهذا نوع من التحلل والانحلال.

- والتغيير لا يشمل كل شئ، فهناك ثوابت ودعائم ورواسخ، تستطيع أن تغير ما فوقها أو ما حولها، أم هي فلا، وأي تغيير فيها، يمثل خطرا قد يودي بالكائن أو الشخصية.
- والتغيير لابد أن يتجه إلى الأمام، فالاتجاه إلى اليمين أو اليسار نوع من التبديد، والإتجاه إلى الخلف نوع من التقهقر والتخلف، على هذا فليس كل حركة نطلق عليها تغييرا.
- والتغيير لابد أن تتوافر فيه الإرادة الصادقة، والرغبة الحقيقية، كي لا تكون الشخصية معوقا من معوقات التغيير فحسب، بل تكون عنصرا فعالا من عناصره، ومحركا رئيسيا من محركاته، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت فكرة التغيير – في حد ذاتها – مهيمنة ومسيطرة، وشاغل هام من شواغل الشخصية، فلا جدوى من أن أقحم أو أرغم الشخصية على أي نوع من أنواع التغيير، بدون أن يكون هذا نابعا من داخلها.

وكان للشخصية المصرية– على مدى تاريخها – موقف خاص من التغيير، لا أقول مقاومته ولكنها طبعت وصيغت على الثبات والاستقرار المبالغ فيه، وهذا إلهام من إلهامات الواقع اليومي المعاش، المستمد من المكان، فكل شئ رتيب ومستمر ومطرد ومنظم في المجتمع أو البيئة الزراعية، فالدورات الزراعية منتظمة وفي مواعيد محددة تكاد لا تختلف كل عام، وفيضان النيل موسمي وله أوقات معينة، وأي تغيير أو تبديل في هذا النظام يربك ويعطل كل شئ، لذلك فالثبات والنظام والرتابة أهم شئ لتسيير عمل ونشاط المجتمع، وبمرور الوقت طبعت الشخصية بهذا الطابع " **وقد ضربت ((مس بلا كمان)) مثلا معروفا حين تتبعت خلال التاريخ منذ الفراعنة حتى الوقت**

الحالي عشرات من الملامح الاجتماعية والثقافيــة والتقاليــد والعـادات، والألفاظ والأفكار، ابتداء من المحراث حتى شم النسيم ومن وفاء النيل حتى الختان. فالماضي دائما يعيش في الحاضر أو يرقد خلفه. وربما بالغ البعض وأســـرف فـــي المبالغــة فقـــال ((مـــصر التـــي لا تتغيـــر immutable Egypt))، وتحـدث عـن حـضارة أبـي الهـول. وربما استنتج البعض أن روح المحافظة الشديدة هي طابع قومي عميـق الجذور "[16]

نعم، فالماضي يعيش في الوجدان المصري وينـازع الحاضـر منازعـة غريبة، ولتجدن الأبصاروالبصائر – دائما – مشدودة إليه، ولا تتوقف عملية المقارنة بين الماضي والحاضر – ودائما – تخرج نتيجة تلك المقارنة فـي مصلحة الماضي، فنحن نتقدم إلى الإمام وظهورنا إلى المـستقبل، بينمـا وجوهنا إلى الماضي ، نحن أسراء الماضي، ولا مانع ان ننشغل بالحاضـر والمستقبل ولكن لا شئ يشغلنا عن الماضي، ولا مانع ان نسمح للحاضر أن يؤثر ويترك بصماته، ولكننا في نفس الوقت متمسكون بالماضي، ولا مـانع أن نأخذ الكثير من الحاضر ونملأ أبصارنا وجيوبنـا وبيوتنـا بمنجازاتـه الحضارية، ولكن جنبا إلى جنب بمتعلقاتنا المنحدرة إلينا من الماضي، نـوع من التراكم الذي يفتقد التناغم والتوافـق، وإن عـده الـبعض نوعـا مـن الاستمرارية للواقع المصري المميز، فأنت واجد المعابد والآثار التى بنيـت من الألف السنين موجودة وماثلة فى حاضر الناس يعيشون بينهـا، وتعـيش بينهم، تؤثر فيهم ويؤثرون فيهانوع من التوافق والتـصالح العجيـب بـين الماضي والحاضر، ويلقي بظلاله على المستقبل

[16] شخصية مصر – د. جمال حمدان – صفحة (٢٠٣)

" والحقيقة أن الاستمرارية المصرية لا تعني التكرار repetitive بقدر ما تعني التراكمية cumulative
ولعل قولة نيوبري أدنى إلى أن تعبر عن هذه الحقيقة: ((مصر وثيقة من جلد الرق، الأنجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت، وفوق ذلك القرآن، وخلف الجميع لا تزال الكتابة القديمة مقروءة جلية)) إننا يمكن أن نضعها قاعدة عامة إنه إذا كانت جغرافية مصر تراكيبية أساسا، فإن تاريخها تراكمي في الدرجة الأولى. وإذا كان ثمة استمرارية – واستمرارية لا شك هي – فإنها معتدلة ونسبية " [١٧]

حضارة هذا شأنها، وشخصية هذه صفتها، لابد أن يكون سيرها بطيئا وئيدا، لأن هناك وشائج – ولا أقول قيود- تربطها بالماضي تمنعها أن تندفع نحو المستقبل بكل قوة، وعلى ظهرها أمانات – ولا أقول أثقال – تعوقها أن تنطلق إلى التطور بكل سرعة، نعم هناك اندفاع نحو المستقبل، وانطلاق نحو التطور، ولكن ليس بالسرعة التي تسمح أن تعوض عصور التخلف والتأخر، ولا تضيق الفجوة الواسعة بين مصر والدول المتقدمة " وليس من الصعب بعد هذا ان نفسر تلك الاستمرارية. فالمركب الحضاري الذي نمته مصر منذ البداية كان يمثل، في واقع الأمر، حالة تلاؤم بيلبي symbiosis محكمة، وحقق علاقة فعالة workable connection مع ظروف البيئة الطبيعية لم يكن من السهل دائما التقليل من قوتها أو التجويد عليها، ومن هنا بدت حضارة بطيئة الخطى ثقيلة القدم كما يقول برودريك " [١٨]

[17] المصدر السابق (٢٠٤)
[18] المصدر السابق (٢٠٤)

وإذا كانت هناك مؤثرات كثيرة قد أثــرت علــى الشخــصية المــصرية وصاغتها وطبعتها بطابع خاص ومميز، وتلك المؤثرات اســتمدت قوتهــا وهيمنتها على الشخصية من خــلال اســتمرارها وديمومتهــا وإلحاحهــا المتواصل، على مدى قرون متطاولة، فلا ينبغي أن نغفل عن عنصر هام من عناصر الشخصية، وهو الذي يسمح لتلــك المــؤثرات أن تــؤثر وتــصبغ الشخصية بضبغتها، أو لا يسمح لتلك المؤثرات أن يكون لها أدنى تــأثير، وهو عنصر الإرادة، فالشخصية الإنسانية ليست كالنبات، إذا توافرت جملــة مؤثرات بيئية كالغذاء والماء والجو أمكن أن نتوقع الحالة التى سيكون عليها، هنا النبات ليست له إرادة في مسألة قبول تلك المؤثرات أو رفضها، ولــيس الأمر هكذا مع الشخصية الإنسانية، فما أثر فى الشخــصية المــصرية فــي الماضي قد لا يؤثر فيها في الحاضر، وما كان لها تأثير في الماضي القريب قد ينعدم تأثيره في الحاضر، إما لأن المؤثرات ضعفت ولم يعد لهــا تلــك الهيمنة والسيطرة والوقع على الشخصية، أو أن الشخصية نمــت وقويــت إرادتها وزاد وعيها، و تحررت من قبضة وأسر المؤثرات، أو أن الأمرين قد حدثا في وقت واحد، فالشخصية نظام نام متطور متغير. على هــذا فــلا نستطيع أن نجمع جملة سمات ومواصفات وخصائص ونقــول تلــك هــي خصائص وسمات ومواصفات الشخصية المصرية، وتظل تلك السمات ثابتة وجامدة ومستقرة وموجودة على مدى العصور، لا ينالها تغيرا أو تبــديلا أو تحويلا ! أظن أن هذا فيه غبن شديد للشخصية الإنسانية،وتغييب لعنــصري الإرادة والوعي.

وإن كنا لا ننكر أن هناك خطوطا وملامــح ثابتــة ومــستقرة للشخــصية المصرية، ولكن حتى تلك فثباتها واستقرارها نسبي للغاية، فقد تبهــت تلــك الخطوط والملامح حتى توشك أن تمحى وتتبدد، وقد تتأكد وتتضح في أحيان أخرى.

الشخصية المصرية في الحاضر

نال الشخصية المصرية في القرن الأخير من تغيير واختلاف ما لم ينلها من قرون عدة، بل أن وتيرة التغيير أخذت في زيادة سرعتها ومعدلها كل عشر أو عشرين سنة عن ذي قبل، وكأن تلك القيود والأصفاد من العادات والتقاليد والفكر والأوضاع الاجتماعية والظروف الحياتية قد بدأت تتداعى وتذوب شيئا فشيئا، وكلما تخلصت الشخصية من واحد من تلك القيود كلما أسرعت وسارعت إلى التغيير، حتى أن التغيير أصبح منشودا لذاته، وحينما يكون التغيير مرغوبا لمجرد التغيير فإنه يضحي بسمات وخلال وصفات محمودة في الشخصية المصرية، وكأن رب بيت أصيب بهوس التغيير، فهو يتخلص من أثاث بيته ما ليس له فائدة وما له فائدة، ويكتشف في النهاية أن البيت أصبح فارغا، فلا هو استطاع أن يعوض ما له فائدة، أو أن يملأ مكان ما ليس له فائدة، وبقي البيت فارغا خاويا من كل شئ وأي شئ !

وربما يكون هذا من طبيعة التغيير، أنه يجرف معه ويأخذ معه غير المفيد وما له فائدة، المعوق عن الحركة، والمرشد لتلك الحركة.

نعم تخلصت الشخصية المصرية من بعض الصفات غير المفيدة وغير المجدية، والتي لم يصبح لها أي مبرر أو منطق يساعدها أو يساندها في البقاء ويؤيدها في الوجود، وأظن أننا في الإمكان أن نعترف أن أشياءا جميلة ورائعة كانت تصف الشخصية المصرية وتميزها ذهبت مع ما ذهب، وللأسف لن تعود، ولكن تلك هي طبيعة التغيير عندنا أو هكذا أرادوها أن تكون، فليكن.

ونتيجة لذلك حدث تغيير في مزاج الشخصية المصرية، تبدل في التركيبة العامة والنهائية لها، تحول فى الكيمياء أو الإنزيمات التى تضبط العلاقات والتأثر والتأثير بين جوانبها وأجزائها.

وأصبح الشعور الغالب والمسيطر والمهيمن على تلك الشخصية – في الأونة الأخيرة – الغضب.

فإذا كان من الممكن أن نصنف الشخصيات إلى شخصية متفائلة، وأخرى متشائمة، وثالثة منطوية ورابعة منبسطة، وخامسة معقدة وسادسة بسيطة... إلخ.وهذا التصنيف يعتمد على الصفة الغالبة والطبيعة السائدة والظاهرة على الشخصية، وإذا اعتبرنا شخصيات الشعوب والأمم كشخصيات الأفراد بشكل أو بأخر، فنستطيع أن نقول أن شخصية الشعب المصري تحولت إلى شخصية غاضبة في الفترة الأخيرة، فمزاج الشخصية هو الغضب أو الشعور والإحساس المهيمن على بقية المشاعر أو السائد أو الظاهر أو البارز عن بقية المشاعر هو الغضب.

المصريون غاضبون.

وما في ذلك ؟

فليغضب المصريون، وليسيرون مع الغضب إلى أقصى مداه.

أليس هناك ما يبرر هذا الغضب ؟

أليس هناك ما يشعل نيران الغضب ؟

أليس هناك ما يؤرث ويزيد تلك النيران اشتعالا ؟

نعم، ولكن هذا شئ خطير فى حد ذاته، أن يهيمن ويسيطر ويسود شعور وإحساس واحد على بقية المشاعر، لأن بقية المشاعر – التي ليس لها علاقة بالغضب – ستسير وتصب في هذا الإتجاه، وسوف يختل هذا التوازن والتعادل بين مشاعر الشخصية التي كانت تتميز بهما وتميز الشخصية المصرية، وإذا توازنت وتعادلت المشاعر فقد تكاملت الشخصية، وقد كانت

الشخصية المصرية متكاملة، كل شئ فيها بمقدار، لا جانب يطغى على جانب، ولا جانب يضعف أو يهمش بقية الجوانب، مزاج شخصي عظيم، ونادر، وهذا الذي مكن وساعد المصري أن ينسج ويصوغ أو يشكل حضارته، ويمنح لها هذا القوام الإنساني الرائع.

ولكن يلاحظ في الآونة الأخيرة أن الشخصية قد أصيبت بنوع من الاهتزاز، او الاضطرابات أو الاختلال، وبالتالي بدأ المزاج الشخصي يتغير، بسبب أن جوانب قد طغت على جوانب، وجوانب أضعفت وهمشت جوانب أخرى، بل أخفتها وجعلتها تتوارى، وأخشى ما نخشاه أن تتعرض بعض الجوانب للاجتثاث والنزع من الجذور، وإذا تم نزعها فمن الصعب بل من المستحيل أن نزرعها أو نستنبتها مرة أخرى في طبيعة الشخصية المصرية.

ولنأخذ جانبا من تلك الجوانب التي بدأت تتفرعن وتستفحل وتستغلظ وبالتالي تطغى وتهيمن على جوانب أخرى، بل أنها تضغط عليها لتخنقها وتميتها، وهو الغضب، ولا أقصد بالغضب هذا الشعور الفجائي التلقائي حينما يتعرض الإنسان للإهانة أو ما شاكل ذلك، لأن هذا الشعور بالغضب كما ظهر فجأة قد يتبدد فجأة حينما يرد للإنسان إعتباره، ولكن أقصد بالغضب هذا الشعور العميق المتجذر والمتأصل في الشخصية، والذي يتكون ويتبلور على مدى سنوات أو عشرات السنين، فهو عبارة عن مجرى واسع أو شلال قوي تصنعه روافد كثيرة تغذيه على مدى طويل، وتلك الروافد مشاعر متعددة من الإحباط والفشل واليأس والإكتئاب والحزن والحسرة والمرارة والانكسار والضياع، كل تلك الروافد تتجمع لتصب في مجرى واحد وهو الغضب، أو إذا تجمعت وامتزجت واختلطت وتراكمت ومر عليها مدة من الزمن تكون الغضب في النهاية، ويصبح بذلك هو الذي يملك زمام الشخصية، وهو الذي يسيطر على الإنسان يحركه كيفما يشاء، ويصبح الغضب سمة أصيلة من سمات الشخصية، ليس هذا فحسب، بل تورثه

الأجيال الحاضرة للأجيال القادمة، فالأجيال لا تتوارث السمات والصفات الشكلية فحسب، بل ترث – أيضا – السمات النفسية والخصائص الوجدانية " **ولا شك أن هناك الوراثة المباشرة عن الوالدين والأجداد القريبين، ثم الوراثة النوعية التي تتعلق بالجنس البشري نفسه من حيث أنه يتوارث إرثات معينة تتعلق بالتغيرات السلوكية، فنحن البشر نتباين فيما نعبر به عن مشاعرنا الغضبية قليلا أو كثيرا عما تستعين به القردة العليا أو غيرها من كائنات حية، ولا شك أن الأشخاص الذين ورثوا عن أسلافهم القريبين وعن أسلافهم البعيدين أجهزة عصبية مرهفة أو غددا صماء مضطربة فيما تقوم بإفرازه من هورمونات يكون أكثر تعرضا للهياج العصبي والانخراط في حالات غضبية، ومن ثم تكون تعبيرات أجسامهم عما يعتورهم من مشاعر هائجة متباينة كما وكيفا عما يعتور غيرهم ممن ورثوا أجهزة عصبية وغددا صماء متزنة فيما تقوم بإفرازه من هورمونات** " [19]

إذن الحالة النفسية والخصائص الوجدانية لشعب من الشعوب أو لأمة من الأمم خط موصول ومتواصل عبر الأجيال، ولكن تلك الحالة والخصائص ليست ثابتة ثباتا مطلقا، فقد يطرأ عليها – بمرور الوقت واختلاف الأحوال وتبدل الظروف وتغير الأوضاع – تغييرات، هناك من المشاعر ما يضعف ويتبدد، وهناك من المشاعر ما يقوى ويتأصل، وقد يطرأ تغيير على التركيبة الوجدانية بأسرها، وهذا لا يتم بين يوم وليلة، ولا نتيجة لتجربة أو خبرة، وإنما يتم عبر القرون ونتيجة عن تراكم تجارب وخبرات،

" **فنحن لا نرث عن أسلافنا البعيدين جدا خصائصهم الجسمية فحسب كالوقوف منتصبي القامة والمشي على قدمين دون اليدين فحسب، بل أننا**

---

[19] سيكلوجية الغضب – د. يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٨)

نكتسب أيضا تلك الخبرات التجمعية التراكيبية كخبرات الخـــوف والغــضب التي تأتت لأولئك الأسلاف البعيدين جدا " [20]

إذن فنحن حينما نغضب في الوقت الحاضر لا نغضب لأنفسنا فحسب، وإنما نحن محملون بميراث هائل من الغضب يسري في دمائنـــا وخلايانـــا فيمـــا ورثناه عن آبائنا وأجدادنا، وحينما ننفجر غاضبين نحن نحمل شحنات غضب ما ورثناه، ويتضح ذلك حينما تنفجر براكين الغضب لأشياء قد لا تبرر هذا الانفجار، ونتعجب كيف غضبنا كل هذا الغضب لأشياء لا تستحق ؟!

ذلك أننا لم نغضب لشئ؛ ولكن المخزون المتراكم عبر الأجيال وعبر السنين، المتكون من الخبرات والتجارب والأحداث التى لم تجد متنفسا او معبـــرا – وقتئذ – لم تعد يمكن السيطرة عليها – في الوقت الحاضر – فانفجرت، إذن أي فرد من الممكن أن يكون قنبلة موقوتة من الغضب قابلة للانفجار في أي لحظة، كذلك الأمم والشعب من الممكن أن تكون براكين تنفجر في أي وقت بدون مقدمات وبدون سابق إنذار أو تحذير.

ولكن لماذا يظل الغضب ميراثا يتوارثه الأبناء عن الأباء والأجداد في سلسلة متصلة لا تتكسر حلقاتها، وتزداد تضخما وقوة وضغطا بما يضيفه الأبنـــاء إلى ما ورثوه عن الأباء والأجداد ؟

ألا يمثل هذا خطرا على صحة الإنسان النفسية ؟

فما ذنبهم أن يحملوا ميراثا ضخما من الغضب بالإضافة إلى غضبهم الخاص بهم وما ينتج عن أزماتهم ومآزقهم التي يعاصرونها ؟

هنا الأبناء لا يستطيعون التبرأ من هذا الميراث، كذلك لا يستطيعون التخلص منه، لأنه يجري في عروقهم كما تجري الدماء، ويتغلغل في خلاياهم، فالأمر هنا أمر قوانين طبيعية، صفات وسمات تطبع الشخصية.

أهذا يعني أن الشخصية شئ قدري لا دخل للإنسان فيه ؟

[20] المصدر السابق – (٤٦)

وقدر عليه أن يحمل تلك التراكمات والرواسب التي انحدرت إليه من الأجيال السابقة ؟

وإذا كنا نحمل تلك البراكين المستعرة من الغضب الذي يسيطر ويهيمن على بقية المشاعر والأحاسيس، ألا يخرج هذا بالشخصية عن سوائها واعتدالها ؟

هذا الاتصال والتواصل بين حاضر الشخصية وماضيها الجماعي، ورفد الماضي – بكل ما يحفل به من تجارب وخبرات – حاضر الشخصية – بكل ما يذخر به من توترات وضغوطات – يتم بدون أن يدركه الإنسان أو يعيه، وهذا أخطر ما في الموضوع ؛ لأنك لو أدركته ووعيته، قد تعالجه أو تعقلنه أو ترشده أو تهدئ من غلوائه، أو تحاول أن تجد له منفذا ومتنفسا، كي لا تحدث عملية منرطنة لبقية المشاعر والأحاسيس، ليصبح الإنسان – في النهاية – كتلة من الغضب المتقد المندفع.

ولكن، هل كل هذا الغضب له ما يبرره وله ما يسوغه ؟

نعم.

فالمصري على مدى عقود متطاولة ومتقادمة – ولا نريد أن نقول قرونا– قد تعرض لتجارب مريرة ومؤلمة خلفت في نفسه رواسب وتراكمات طبعت وجدانه بهذا الطابع الشجي الحزين، وأصبحت قابليته وتوقعه لما هو مؤلم ومرير وحزين أكثر وأشد لقابليته وتوقعه لما هو مريح وسعيد، والذي أصل وأكد هذا، تجارب وخبرات ووقائع، فلن تجد شعبا توالت عليه تلك الغزوات والمعارك والجيوش، والتي جلبت إلى أرضه الكثير من الضحايا والمآسي والنكبات، نعم، في النهاية كان ينتصر، وتندحر جيوش الغزاة، ولكن هذا بعد أن كان يدفع الشعب الثمن، وكان ثمنا غاليا، وتضحيات فادحة. حتى تلك الانتصارات في تاريخه الحديث، وتلك المشروعات الحضارية، كان – ولابد

- يعقبها هزائم وانتكاسات وإحباطات، بسبب عوامل خارجية أو داخليـــة أو الاثنين معا، هذا شعب لم يفرح في تاريخه الطويل، وإن قدر لـــه أن يفـــرح فلوقت قصير، لا يدوم فرحه حتى يسرقه السارقون، وهم كُثـــر، فريـــد ولا نظير ولا مثيل له في الآمه وأحزانه، فإذا نظر إلى ماضيه فهو ماض حافل بالمآسي والنكبات، أو الصفة الغالبة هى الانتكاسات، والحاضر لا يرضـــي طموحاته، ولم يشبع تطلعاته ولم يصدق توقعاته، والمستقبل لن يشذ بأي حال من الأحوال عن الماضي والحاضر، وإن كان ليس من حق أحد مـــصادرة المستقبل أو ما سوف يأتي به، ولكن أنت تتحدث عن نفسية شعب ووجـــدان أمة، تكون، وفي تكوينه لم يخضع لعقل أو منطق، هـــذا الوجـــدان للـــشعب المصري والذي تكون من تراكمات وترسبات عبر القرون، ضاغط - فـــي الوقت الحاضر - بشكل خطير على مشاعر الشعب، والذي يغذي ويشجع أن تزيد تلك التراكمات من ضغطها، الحالة المؤسفة والمزريـــة التـــى يحياهـــا الشعب - أو هو يراها كذلك - فلا حرية ولا عدل ولا مساواة ولا ديمقراطية صادقة، ولا انتقال أو تبادل سلمي للسلطة، ووصل الفـــساد والإفـــساد إلـــى النخاع، وأصبح هو السمة الغالبة والبارزة، حتى قال البعض - وهو مبالغ لا شك - أن الدولة المصرية تدير الفساد وتنظمه وتهيكله، بتلك الحالة لا تنتظر تطورا أو تقدما، والذي يؤصل الإحساس بتلك الحالة، أن الشعب المـــصري كان يرى حوله شعوبا وأمما دونه فى التقدم والتطور، وبالنسبة له كانت تلك الشعوب أقزاما، فإذا هى تتقدم وتتطور وتتفوق عليه وتـــسبقه فـــي جميـــع المجالات، ويكتشف أنه لا يتحرك ولا يتقدم، بل أصبح عدم التحرك وعـــدم التقدم - بالنسبة لحركة العالم - تخلف وتأخر.

وأرجع بعض المفكرين سبب هذا الفساد إلى إفلاس الفكر والنظام الاشتراكى الذي كانت تتبعه وتتبناه الدولة أو الفشل في تطبيقه، وتحقيقـــه علـــى أرض الواقع " **فالنظام الاشتراكي المركزي فشل في تحقيق أهدافه التي تتمثل في**

العدالة الاجتماعية نظرا لتمركز السلطة وعدم الأخذ في الاعتبار حرية الأفراد وقدراتهم على المشاركة في اتخاذ القرارات، بالتالي أدى النظام الاشتراكي في التطبيق إلى احتكارات سياسية وبالتالي احتكارات اقتصادية، كما أدى إلى قهر المجتمع فكريا وثقافيا وتمادت الطبقات الجديدة الحاكمة في استغلال نفوذها وحصولها على مكاسب مادية وانتشار الفساد البيروقراطي، مما أدى إلى تآكل النظام من داخله وفي النهاية انهارت هذه النظم بسبب عدم قدرتها على مواجهة أمراضها وإصرارها على تدعيم الاحتكارات السياسية.

فالاحتكار الاقتصادي أدى إلى احتكار سياسي وفي النهاية انهيار التقدم وتراجعت التنمية وفقدت القوى البشرية المبدعة قدرتها على الابتكار، مما يؤدي تردى القوى الثقافية الداخلية. النظام الاشتراكي المركزي أفرز احتكارا سياسيا كان نتيجة فساد واحتكار اقتصادي واغتصاب للحريات وسخرت قوى المجتمع لخدمة طبقة جديدة وتوحشت في احتكارها للسلطة وحصولها على ميزات واسهمت في عزل الشعب مركزية السلطة مما أدى إلى عدم سماع السلطة إلا لنفسها وأصبحت تهدد أي فكر نقدي خلاق وتفتح ذراعيها للمنافقين وتقلدهم المناصب القيادية حتى يتفانوا في خدمتهم، مما يؤدى إلى عزل الطبقة الحاكمة عن الشعب، بهذه الطبقة الخادمة التي تكون في النهاية سبب انهيارهم. "[21]

لقد تعرض المصريون لأسوأ نوع من الاحتكار عرفه التاريخ، تم فيه احتكار حاضر أمة بكاملها.

لم يتم فيه احتكار حق من حقوقها فحسب، بل تم فيه احتكار حقها في الحياة الحرة الكريمة التى تليق بمكان ومكانة أعرق أمة في التاريخ الإنسانى كله،

[21] الفكر الاستراتيجي والخروج من الصندوق – د. صبري الشبراوي – صفحة (١٧٥)

تم رهن حاضرها والمقامرة بمستقبلها، وتم تقزيمها وتحجيمهـا وتهميـشها وإخراجها من سياقها الحضاري ودربها التقدمي، لقد خـسرت مـصر فـي العقود الأخيرة ما لم تخسره في أسوأ وأبشع السنوات التي كانت خاضعة فيها لمحتل أجنبي، نعم، كانت مصر مستعمرة ولكن من المستغلين والمحتكـرين والأنتهازيين ورجال الأعمال الخونة الذين لم يرعوا في مصر إلا ولاذمة، ثم فيها نهب وسرقة مصر كما لم تنهب وتسرق من قبل " **فما بالك في مجتمعنا بالمحتكرين والانتهازيين الذين لا يضيفون قيمة للمجتمع ويحـصلون علـى امتيازات ويملكون الشركات وأراضي في الظلام من حيث لا نـدري ومـن حيث لا يعلم الشعب وكذلك الذين عرفوا طريق إفساد المؤسـسات الماليـة المحتكرة واستخدموا أموالها لنشر الفساد، هؤلاء المحتكـرون يـشترون السياسين بتدعيم احتكاراتهم ويشاركون فـي إهـدار المواطنـة وتأجيـل الممارسة الديمقراطية التي تقوي الشعب، هؤلاء المحتكرون في غيبة من العدالة الضمير الاجتماعي، يبددون طاقة المجتمع وقدرته الذكية، ويحـبط مستقبل الأمة الممثل في شبابها، ماذا سيفعلون بهذه المليـارات ؟ وأيـن تذهب هذه المليارات ؟**

وإذا كان لديهم إيمان بالشعب فعليهم مواجهة الشعب بشفافية كيف حصلوا على هذه الأموال، وأين تذهب ؟ إن هذا السلوك الذي يدعم الظلام سياسـيا واجتماعيا يخجل أن يقوم به مستعمر خارجي، الاحتكار في بلادنـا أسـوأ أنواع الاستعمار " [22]

لذلك شعر المصريون أنهم يرجعون القهقرى عشرات السنين إلـى الـوراء، وأن أقدارهم لم تعد بأيديهم وإنما بأيدي شياطين، وأن كل شئ صـودر.... إرادتهم...وعيهم...حريتهم... حقوقهم...آمالهم..أحلامهـم... حاضـرهم... مستقبلهم.

---

[22] المصدر السابق – صفحة (١٧٧)

وكأني بالمصريين يسألون أنفسهم: إذا كانت تلك النهاية والمآل والمصير، فلم كان كل هذا الجهاد والجهد والتضحيات تارة للتحرر من المستعمر، وتارة للتحرر من التبعية الأجنبية، وتارة لبناء مصر الحرة الأبية القوية المتحدية المنتصرة، والتى كانت قبلة وكعبة لكل الشعوب التى ترنوا إلى التحرر والاستقلال وتحقيق ذاتها وتحرير إرادتها ؟

وكأني بالمصريون يسألون أنفسهم: هل التأخر والتخلف والفساد والظلام والظلم والفقر والجهل والقهر والاستبداد والديكتاتورية قدر مقدور على مصر ؟ هل كتب على مصر والمصريين أن تعيش طوال عمرها هكذا مسروقة منهوبة مستغلة مغتصبة مرهونة مكبلة، وأهلها مطحونون مسحوقون شاعرون بالإهانة والغربة وهم فوق أرض وطنهم، الاحباط والحسرة والضياع أسوار عالية تحيط بهم وتسجنهم داخلها ؟

وكأني بالمصريين يسألون أنفسهم: ألسنا مثل تلك الشعوب والأمم في شرق العالم وفي غربه ؟

إذن فلماذا لم نصل إلى ما وصلوا إليه، ولماذا لم نحقق ما حققوه، ولماذا لم نتقدم مثلما تقدموا، ونرتق مثلما ارتقوا ؟ أم أن هولاء الشعوب والأمم من طينة أخرى غير طينتنا ؟ هل طينتنا ملعونة، مغضوب عليها ؟

لذلك فحينما يغضب المصريون في اللحظة الآنية، فهم لا ينعزلون عما كان يغضبهم في الماضي، بل يعبرون عن براكين الغضب الذى تكونت وتراكمت عبر آلاف السنين، وانحدرت إليهم عبر الآباء والأجداد " **فعندما نجد أنفسنا في أحد المواقف التي تثير غضبنا، فإن تلك الاستعدادات التي ورثناها في جبلتنا النفسية تنشط وتوجه رسالتها الغضبية إلى تلك الأجهزة التي يتسنى لها التعبير عما نحسه من غضب.**

ويتوقف التعبير عن الغضب من حيث حدته ومدته على شرطين أساسين:

الأول: مدى قوة تلك الاستعدادات الغريزية للغضب التـي تـسمى بغريـزة الغضب.
والثاني: قوة المؤثر الذي يستحث تلك الاستعدادات الغضبية ويدفع بها إلى توجيه أوامرها إلى الأجهزة التي تغضب بواسطتها " [23]

وإذا كان على الفرد – في أوقات وأحوال وظروف معينة – أن ينفض ما في داخله ليتخلص مما يمثل ضغطا على أعصابه ومشاعره، وإن لم يفعل فـإن داخله سيضيق عن أن يحتوي ويعجز عن أن يتحمل، وفي هذه الحالة إما أن يخرج هذا الفرد عن سوائه النفسي واعتداله الوجداني، وإما أن ينفجر مدمرا ومتلفا نفسه، لذلك فليس أمام الفرد إلا خياران إما أن يثور بإرادته، وإما أن ينفجر مرغما، في الحالة الأولى يثور حفاظا على كيانه وسـوائه واتزانـه، وفي الحالة الثانية ينفجر وهذا يؤدي به إلى الدمار والتلف.

والأمم والشعوب كائنات وكيانات حية، تخضع لما يخضع له الأفراد، ويعتمل ويستعر داخل الأمم والشعوب ما يعتمل ويستعر داخل الفرد، الفرق بين الأمم والأفراد أن الأمر مع الأمم يكون أكثر ضخامة وحـدة، وأن الأمـة كيـان متصل متواصل متسلسل مترابط، لا يعيش لحظته الآنيـة بمعـزل عـن ماضيه، وكل التجارب والأحداث والمواقف التي تعرض لها بحلوها ومرها، تعيش معه وتؤثر وتشكل وتـصوغ – بـصورة أو بـأخرى – حاضـره سواء شعر بذلك أو لم يشعر.

[23] سيكولوجية الغضب – د. يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٤٧)

الثورة تعيد شخصية الأمة إلى اتزانها:

من الأمم ما يتميز شخصيتها بالبساطة والانبساط والسهولة واليسر، ومنها ما يتميز بالتعقيد والصعوبة والعسر، ومنها ما هو حديث يعد عمره بالمئات من السنين، ومنها ما هو تليد ويعد عمره بالآف من السنين، ومنها ما لم يتعرض للمحن والمآزق والأزمات الكثير، ومنها ما تعرض على مدى تاريخه الطويل للكثير من المحن والمآزق والأزمات، ومنها ما لم يسهم في مضمار الحضارة الإنسانية إلا بحظ يسير ولم يتقلب بين الصعود والهبوط والقوة والضعف والنصر والهزيمة ، ومنها ما أسهم بأكبر نصيب على المستوى الإنساني، وبلى الصعود والهبوط والقوة والضعف والنصر والهزيمة إلخ.....

النوع الثاني من الأمم أكثر عرضة للأمراض النفسية، لأن مخزونه الحضاري، وتراثه الإنساني وخبرته العريضة والمتنوعة، وتجاربه الكثيرة وما تخلف عن تلك التجارب والمواقف من ارتباطات شرطية ومشاعر وحالات وجدانية، تمثل قوة ضاغطة على أعصابه، بالإضافة إلى ما يجلبه الحاضر من ضغوطات أخرى جديدة، ومع تراكم تلك الضغوطات على مدى فترة طويلة من الزمن، بدون العمل على تخفيفها، أو التخلص منها أو إيجاد متنفسا لها، تصابُ الأمة بأعراض نفسية كثيرة مثل الإحباط الاكتئاب اللامبالاة الاستهتار الضعف الوهن، عدم القدرة أو الرغبة في الإنجاز أو التقدم والتطور، وتجد التخبط والتعثر والتقهقر والحيرة والقلق والاحساس بالضياع، تلك الحالات بمثابة أجواء مهيئة بأن تصاب شخصية الأمة بأمراض مزمنة وعلل تحدث خللا في الشخصية، وهذا الخلل قد يؤدي إلى إنهيارها، وإذا إنهارت شخصية الأمة فمن العسير إعادتها مرة أخرى.

لذلك فمن الضروري لتلك الأمم العريقة والتليدة، أن تفضفض وتعبر عن غضبها ونقمتها، لا سيما وإذا كانت تلك الأمة محكومة بنظام مستبد طاغ ينكر على الأمة حقها، بل يصادر حقها في التعبير، ويرهن إرادتها، ويقف بينها وبين تفجير تلك الطاقات المكبوتة والتي طال كبتها وقمعها، في أن تحقق ذاتها، وتقرر مصيرها، " **إن إخراج الغضب من مكامنه وإحداث التفجرات الغضبية إنما يعمل على تحقيق الاتزان النفسي** " [24]

والأمة التي تغضب هي أمة سوية، متزنة الوجدان، مستقرة العقل، قوية البنيان ؛ لأن هذا الغضب بمثابة عملية تطهير لبؤر الصديد والقيح التي انتشرت في كيان الأمة، والتعبير عن الغضب هو إنهاء لحالة الاحتقان والتوتر التي تنتاب الأمة " **ذلك أن التفجرات الغضبية يمكن أن تعتبر بمثابة صمام أمن للشخصية تقيها شر الانفجار إلى الداخل مما يترتب عليه إصابة المرء بالجنون، فنحن نستطيع أن نشبه التفجرات الغضبية إلى الخارج بالصديد الذي ينفجر من الخارج إلى خارج الجسم، فإذا ما حدث أن يظل الصديد بداخل الخراج فإنه يمكن أن ينفجر إلى الداخل فيصاب المريض بالتسمم وتتهدد حياته ولكن الانفجار إلى الخارج وتخلص الجسم من الصديد يقي ذلك المريض من النتائج الوخيمة التي لا تحمد عقباها، وعلى نفس النحو فإن التفجرات الغضبية إلى الخارج تقي المرء من تهديد أمنه الداخلي بضغط تلك المقومات الانفعالية عليه وتفجرها في دخيلته فينهار تحت وطأتها ويصاب بالجنون** " [25]

---

[24] المصدر السابق – صفحة (١٧٦)
[25] المصدر السابق – صفحة (١٨٧)

أهم مكسب للثورة

نعم هناك مكاسب كثيرة ومتعددة تجنيها الأمم من وراء ثورتها، وإن كانت تلك المكاسب كان في الإمكان أن تحصل عليها وتصل إليها أو على قدر قريب من تلك المكاسب بدون ثورة، ولكن المكسب الأهم والأعظم التي تحصل عليه الأمم من الثورة العودة إلى الاتزان النفسي والسواء الوجداني والاستقرار العقلي، فما تعرضت له الأمة من ظلم وقهر واستبداد وطغيان وتزييف وتزوير لإرادتها، وما كابدته من استهانة واستهتار بمقدراتها وتقويض لمقوماتها وتبديد لطاقتها وتقييد لانطلاقاتها، كل هذا أحدث ندوبا في وجدانها، وشروخا وتصدعا في شخصيتها وزلازل في ضميرها.... نعم الثورة ستصلح – بقدر ما تستطيع – من شأن الحاضر، وستخطط تخطيطا صادقا ومخلصا للمستقبل، ولكن هذا المسخ والتشوه الذي أصاب وجدان الأمة على مدى عقود وقرون، من الذي سيداويه، من الذي سيعيده إلى صورته النقية ؟.

الثورة.

فالأمم لا تثور كي تحصل على خبزها.

والأمم لا تثور كي تغير من نظام حكمها.

والأمم لا تثور كي تستبدل رجلا برجل آخر يحكمها.

والأمم لا تثور تقليدا لغيرها.

والأمم لا تثور لأنها ملت وضاقت من رتابة حياتها.

والأمم لا تثور لأن آخرين زينوا لها الثورة ودفعوها إلى ذلك.

والأمم لا تثور وهي واقعة تحت التخدير أو وهي في أسر وهم أو قبضة خديعة.

والأمم لا تثور لكى تتخلص من طغمة من الظالمين الفاسدين المفسدين.

وإنما تثور الأمم إنقاذا لوجودها معافيا وإبقاء لكيانها سليما.

نعم، فالأمم تمرض ويعتل وجدانها ويختل اتزانها، ويدب في كيانها عوامل الضعف والتحلل وأسباب الفناء، من كثرة ما تعرضت له من كوارث ومآزق وأزمات نفسية، خلقت في ضميرها الكثير من مشاعر الندم والتبكيت والتوبيخ... لذلك فأهم وأعظم وأبقي الثورات تلك الثورة التي تقوم بها الأمة ضد نفسها، نفسها المتخاذلة المستسلمة الخاضعة الخانعة المفرطة المستهترة الضعيفة المضحية بكرامتها ومقدرات أبنائها، وكان في إمكانها وفي قدرتها وفي طاقتها ألا تضحي وألا تفرط ٠

نعم، إن كل وأغلب الثورات ينتج عنها إصلاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية الخ...

ولكن أهم اصلاح واعظم إنجاز لأي ثورة من الثورات أنها أعادت للشعب سوائه النفسي واتزانه الوجداني وراحة واستقرار الضمير، بعدما ما خلصته مما تراكم وترسب– على مدى عقود وقرون – في داخله من إحساس بالمرارة والظلم والخزي والعار.

فالثورة لمصر بمثابة نار تنفي عنها الخبث والرجس.

الثورة لمصر بمثابة نارتطهرها من كل دنس الأخطاء.

الثورة لمصر بمثابة نارتخلصها من خفافيش الظلام والظلم التي مصت دمائها طويلا.

الثورة لمصر بمثابة نار تطرد عنها ذئاب الخسة والغدر والخيانة التى نهشت لحمها ولوثت شرفها.

الثورة لمصر بمثابة نار تصقلها لتزيدها قوة وصلابة لمواجهة ما يأتي به الغيب.

والثورة لمصر بمثابة نور يبدد عن وجهها ظلام الضلال والضياع.

والثورة لمصر بمثابة نور يقشع عن صدرها ما ران عليه من حزن وأسى.

والثورة لمصر بمثابة نور يخرجها من عهود الخضوع والاستكانة إلى عالم العزة والكرامة.

والثورة لمصر بمثابة نور يشع في قلبها الأمل ويروي سنابل البهجة والسعادة التي حرمت منها طويلا.

والثورة لمصر بمثابة نور يهديها ويرشدها إلى سبل ودروب الحكمة والرشاد.

مصر بين الأمس واليوم

كانت الشخصية المصرية تتميز بالقوة والحيوية والأصالة، وكانت تلك القوة والحيوية تتجسد في موقفها من المؤثرات الأجنبية والغريبة عنها،فقد كانت تتخذ موقفين لا ثالث لهما:

- أن ترفض تلك المؤثرات رفضا قاطعا ؛ ذلك لأنها شخصية متكاملة لا تشعر بنقص أو ضعف، فتحاول أن تكمل هذا النقص أو تلتمس القوى من الآخر، ومن عجيب الأمر أن المنطق يحكم بأن يؤثر الغازي المنتصر في شخصية الوطني المنهزم، ولكن لم يحدث ذلك للشخصية المصرية، فلكثرة الغزاة والمحتلين لمصر وتلك المدد الطويلة التي مكثوا خلالها في مصر، لم يحدث تغيير أو تبديل للشخصية المصرية، ولم يؤثر هؤلاء بل هم الذين تأثروا، ربما هذا الذي حدا بالغازي الأجنبي ألا يحاول الاقتراب من الشخصية بالتغيير، لأن الشخصية الضعيفة هي وحدها التي تغري أن يعبث بها ويغير ويبدل فيها، وليس من الضروري أن يكون المنتصر هو الأقوى من ناحية الفكر والثقافة والشخصية، بل قد يكون المنتصر عاطلا من كل تلك الصفات، وخير مثال لذلك انتصار الرومان على اليونان، والقبائل الهمجية التترية التي اجتاحت بلاد فارس وعدد من البلاد الإسلامية، فكل الغزاة الذين وفدوا إلى مصر لم يؤثروا في شخصية مصر أو يغيروا شيئا من طبع وطبيعة الشعب المصري ولكن العكس هو الذي حدث.

- أن تقبل تلك المؤثرات وتسمح لها – إراديا – أن تخترق جدران الشخصية وتتخلل إلى داخل الخلايا والتلافيف، ولكن هي لا تقوم بهذا السماح والتسامح إلا مع ما يتفق ويتناغم مع طبيعتها " وكما يقول ويلسون عن مصر القديمة ((داخل مصر كانت أشد الأفكار تباينا تتقبل بتسامح وتنسج معا فيما بعد قد نعده نحن المحدثين كانعدام للنظام في تضارب فلسفي، ولكنه كان للقدماء متكاملا...كان طريق المصري هو أن يتقبل التجديدات وأن يضمنها تفكيره، دون نبذ القديم والبالي.وأن القديم والجديد ليرقدان معا كلوحة سيريالية معا، للشباب والشيخوخة على وجه واحد)). أو كمايذكر مورنتز إن المصري لا يكون مصريا إلا إذا تمسك بالقديم إلى جوار الجديد، فيوائم بينهما أو يصل أحدهما بالآخر على الأقل "[٢٦]

أو انها تحور وتغير من تلك المؤثرات لتتواءم مع نسيجها الداخلي، وتلك سمة من سمات العبقرية التي تتصف بها الشخصية المصرية، إنها مثل النحلة مهما امتصت من غذاء مختلف الألوان والأشكال والأنواع، ورحيق من بساتين مختلفة ومظان متعددة، فإنها – لابد – أن تخرج في النهاية أشرا مختلفا عن كل ما امتصته لا يمت بصلة لأي كائن في الوجود إلا إليها، فالشخصية المصرية لا تقبل إلا ما يتفق مع جوهرها وحقيقتها أو يتواءم ويتلاءم ويتناغم معها.

ولا ندري هل سبب عبقرية تلك الشخصية أنها وسطية، أو لأنها وسطية بلغت مدارج العبقرية، وإما أنها فطرت على تلك الوسطية أو أنها اكتسبت تلك الخاصية بعد تجارب مراحل عديدة أدركت ووعت أن تلك السمة هي ما

[26] شخصية مصر – د. جمال حمدان – صفحة (١٤٣)

يناسبها ويتفق معها، فهي كبؤرة أو مركز أونواة جذب خارقة تجعل كل ما يقترب منها يدور في مدارها ويتطبع بطابعها ويتشكل بشكلها، لذلك احتفظت الشخصية بكل خصائصها وسماتها على مدار مراحل تاريخها الطويل، لم تتحلل لم تتحور ولم تندثر، وإنما ظلت قوية متينة متماسكة، وكلما تعرضت لما من شانه أن يهدد بقائها استوحت من هذا التهديد قوة وتماسكا عن ذي قبل، فتلك الشخصية لديها مخزون هائل من الدفاع الذاتي، هذا المخزون للدفاع والمحافظة عن الذات لا يلجأ إليه إلا في أوقات الخطر والأزمات، وهذا يفسر الإرتباط والتلازم بين الهزائم والإنتكاسات يعقبها بعد حين قصر أو طال انتصارات وانتفاضات وتقدم وتألق.

والذي حافظ على تلك الشخصية هو المصري نفسه، فهو راض وقانع ومعجب بشخصيته إلى درجة العشق والوله، المسافة لديه جد قصيرة بين الواقع والكمال، بين النسبي والمطلق، بين الإنسان والإله بين الدنيا والآخرة، بين الحياة والموت، لذا فشخصيته هي الشخصية المعترف بها بين شخصيات الأخرين، وبلده هي البلد المميز بين بلدان العالم كله، هذا الإحساس لدى المصري بذاته كان بمثابة صوان عقلاني ووجداني صان الشخصية وحفظها،

" وفي مراحل الحضارة المبكرة وتخلف المواصلات كان طبيعيا أن تنمي هذه العزلة الجغرافية الطبيعية الشعور بالذات في المصريين القدماء، ربما إلى درجة الاستغراق الذاتي ethnocentrism وقد انعكس هذا في أرض مصر ذاتها فكانت كيمي khemi تعني أرض مصر السوداء وعالم الأرض الكوكب بل كان المصريون أحيانا هم ((الناس)) والأخرون الأجانب ومثل هذه النظرة عرفتها في الواقع شعوب كثيرة أخرى أي أن تلك العزلة تحولت إلى عزلة مترفعة superior isolation أحيانا، أو إذا استعرنا وصف بريطانيا فيما بعد إلى عزلة رائعة splendid isolation ولكن هذه العزلة والشعور بالتفرد

والانفصال في مصر القديمة لم تتحول قط إلى نظرية عنصرية أو إلى كراهية للأجانب، بل بمجرد دخول الأجانب واستقرارهم كانوا يعدون مصريين. فالوعي – الحاد نوعا – بالذات في مصر كان إقليميا أكثر منه عنصريا، وجغرافيا قبل أن يكون جنسيا " [٢٧]

هل هذا الإحساس المتفرد بالذات راجع إلى عزلة مصر وانعزالها ؟

مصر لم تكن معزولة بحكم موقعها وسط العالم، ولم تكن منعزلة وإنما منفتحة على العالم والعالم منفتح عليها، ولكنها كانت تبغي الحماية لذاتها ونفسها، فصانت ذاتها عما من شأنه أن يخترقها أو يجردها من أساليب وأدوات تلك الحماية، وابتعدت وأخذت موقفا مما من شأنه أن يفك مقومات شخصيتها أو يطمس أو يمحو سمات وخصائص تلك الشخصية "ونحن حين نعترف كجغرافيين ببعض عزلة لمصر خفيفة لا نقصد أكثر من ذلك، لا نقصد عزلة ((رهبنة)) ولكن عزلة حماية، فلم تكن مصر قط رهينة nermit state وإنما دولة طريق route state كما يعبر جُوبليه مرة ثانية، فمصر تكاد تنفرد بأنها تجمع في تناسب نادر بين قدر من عزلة في غير تقوقع، وبين قدر من احتكاك لا يصل إلى حد التمييع وبهذه المعادلة الدقيقة تحتفظ بكيان وشخصية متميزة قوية " [٢٨]

الشخصية نواة الحضارة

إذن هنا شخصية تكونت وتخلقت، وشأن أي كائن حي يسعي للبحث فيما حوله كي يؤكد ويؤصل وينمي ويقوي ذاته، بحثت تلك الشخصية فيما حولها، وعلى قدر حيوية تلك الشخصية على قدر بذلها أقصى طاقاتها وإمكاناتها

---

[27] شخصية مصر – د. جمال حمدان – صفحة (١٢٠-١٢١)
[28] المصدر السابق – صفحة (١٢٠)

للاستغلال الواعي الذكي لمفردات المكان الذي وجدت فيه، وكأنه كان هناك إتفاق وتوافق وائتلاف وتآلف بين الشخصية والوسط أو المحيط أو العالم الذي وجدت فيه الشخصية كل ما تبغيه وتتطلبه،أمدها العالم في سخاء وأريحية بكل ما لديه، فلو وضعنا شخصية غير الشخصية المصرية في هذا المكان ما استطاعت استغلال واستثمار وتوظيف إمكانات وطاقات المكان، ولو منحنا الشخصية المصرية مكانا غير هذا المكان ما استطاع تلبية ما تحتاجه وتتطلبه الشخصية المصرية، ولا ندري أهي عبقرية شخصية أم هي عبقرية مكان. ؟ أم أن الشخصية والمكان – طالما حدث بينهما هذا القدر من التوافق والاتفاق والتآلف والائتلاف – أصبحتا شيئا واحدا، لا يتسنى لك فصل إحداهما عن الأخر ؛ لأنك لو فصلت بينهما لقضيت على الاثنين، لو جمعت بينهما أو تركتهما معا لظهر إلى الوجود كائن مستقل بنفسه وذاته، لا ينتمي إلى أي أحد من الاثنين، وإنما هو قائم بذاته ولذاته، مثل الأمر مع جسد وروح الإنسان، فهو ليس روحا، وليس جسدا، وإنما هو كائن تخلق من امتزاج الروح بالجسد، ولو تم فصل الاثنين لقضي على الإنسان.

ومعنى عبقرية الشخصية أنها استغلت واستثمرت ووظفت طاقات وإمكانات المكان إلى أقصى مدى وأبعد حد، لم يسبقها ولم يبذها أحد في هذا الأمر.

ومعنى عبقرية المكان أنه أمد الشخصية ومنحها ما تطلبه وأكثر، الاثنان يلتقيان في أعلى ذروة يصلا إليها، الشخصية من حيث التكامل، والمكان من حيث التمام، لذلك وأنت تتحدث عن مصر لا تدري أحديثك ينصب على الشخصية أم على المكان، أم على الاثنين، أم على شيء مختلف تمام الاختلاف، شيء برز وظهر وتخلق وتكون، لا شبيه ولا مثيل ولا نظير له " **والذي نراه إننا إزاء حالة نادرة من الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التي تجتمع فيها، وكثير من السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا**

حقيقة، فهي بطريقة ما تكاد تنتمي إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماما، فهي بالجغرافيا تقع في أفريقيا ولكنها تمت إلـى أسـيا بالتـاريخ وهـي متوسطية دون مدارية بعروضها، ولكنها موسمية بمياهها وأصولها، وهي وإن كانت أصلا موسمية في مصدرها فقد أصبحت موسمية دائمـة أخيـرا على ما في ذلك من تناقض، هي في الصحراء وليست منهـا أنهـا واحـة ضد- صحراوية anti-desert بل ليست بواحة وإنما شـبه واحـة هي، فرعونية هي بالجد، ولكنها عربية بالأب، ثم أنها بجسمها النهري قوة بر ولكنها بسواحلها قوة بحر وتضع بذلك قدما في الأرض وقدما في الماء، وهي بجسمها النحيل تبدو مخلوقًا أقل من قوي ولكن برسالتها التاريخيـة الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم، وهي بموقعهـا علـى خـط التقـسيم التاريخي بين الشرق والغرب تقع في الأول ولكنها تواجه الثاني وتكاد تراه عبر المتوسط، كما تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب، وهي توشـك بعد هذا كله أن تكون مركزًا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة بحيـث صـارت مجمعا لعوالم شتى فهو قلب العالم العربي وواسطة العالم الإسلامي وحجر الزاوية في العالم الإفريقي " [29]

وإذا كان كل شيء له نظائر وأمثلة، وأن تلك النظائر والأمثلة قد تتقارب فيما بينها في السمات والصفات والخـصائص وقـد تتباعـد وتختلـف بعـض الاختلاف، بحيث تبقى خطوط فاصلة بين تلك النظائر كي لا يمتزجا ويضيع كل منهما في الأخر، فإن الاتفاق الذي حدث بين الشخصية المصرية والمكان لا مثيل ولا شبيه ولا نظير له في العالم، وفي العادة قد يكون هناك تنافر بين الشخصية والمكان، وقد يكون هناك اتفاق بدرجة ما أو بشكل ما، ولكن أبـدا لا يحدث التوافق والاتفاق التام إلا في أحوال نادرة، وتلك الندرة ليست شذوذا

[29] المصدر السابق – (٩)

أو انحرافا عن الطبيعي ولكنها نوع من التحقق الأصـيل لهـدف منـشود، وإنجاز طبيعي لم تكرره الطبيعة من قبل ولن تكرره من بعد، عبـرت مـن خلاله الطبيعة عن قدرتها الفائقة وإمكاناتها المطلقة، ومردود كل هذا أو أثره أو نتيجته - كما قلنا - صورة من صور العبقرية "ولعل في هذه الموهبـة سربقاتها وحيويتها على العصور ورغمها، إن مـصر جغرافيـا وتاريخيـا تطبيق عملي لمعادلة هيجل: تجمع بين ((التقرير)) و ((النقيض)) فـي ((تركيب)) متزن أصيل ونحن لهذا لا نملك إلا أن نقول أننا كلما أمعنا تحليل شخصية مصر وتعمقناها استحال علينا أن نتحاشى هذا الانتهاء: وهي أنها ((فلته جغرافية)) لا تتكرر في أي ركن من أركان العالم، فالمكان، الجغرافيا - كالتاريخ - لا يعيد نفسه أو تعيد نفسها تلك هي حقيقة عبقريتها الإقليمية والنظرية العامة التي تقدم في تفسيرهذه الشخصية الفلتة هـي التفاعـل - ائتلافا أو اختلافا - بين بعدين أساسيين في كيانها وهما الموضع site والموقع situation فالموضع نقصد به البيئة الطبيعية بخصائـصها وحجمها ومواردها في ذاتها، أي البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصـة وجسم الوادي بشكله وتركيبه...إلخ أما الموقع فهو صفة نـسبية تتحـدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والانتاج حـول إقليمنـا، وتـضبطه العلائق المكانية التي تربطه بها. الموضع خاصية محلية داخلية ملموسـة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة.

بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهمـا نفـسر شخـصية مصرنا، فهما يختلفان حين نجد أن حجم الموضع كان دائما لا يتكافـأ مـع خطورة الموقع الحاسم على ناصية العالم وحين نجد أن الأول ينتظم قدرا ما من عزلة، والثاني يفرض فيضا من الاحتكاك، وهما يأتلفان في الأثر حـين يدعوان إلى الوحدة السياسية والمركزية العتيقة، ومن حيث أن زمامهمـا

ليس محليا وإنما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة " [30]

تلك عوامل وأسباب كثيرة هيئت وساعدت وأسهمت بل أكاد أقول فرضت وحتمت أن يكون هؤلاء البشر الموجودين في هذا الإقليم من العالم يتميزون بخصائص معينة قلّ أن تجد لها مثيلا في العالم، هؤلاء البشر انتظمتهم وحدة أو خط أو تيار جنعي واحد، هناك نواة جعلتهم يدورون في فلك كوني واحد، ينجذبون إلى مركز واحد يستمدون منه مقومات وجودهم، ويمدهم بخصائص ومميزات تميز وتخصص هذا الوجود، وهذا المركز من القوة والحيوية بحيث لا يضعف على مر الأيام، ولا تنال منه الأحداث والأزمات، وهم من الاقتناع به والرضا عليه، بحيث لا ينفكون عنه ويتركونه لينتظموا حول مركز أخر، لأنهم عن قناعة أنهم لو تركوه لتشتتوا وتفرقوا وضاعوا، وابتلعتهم دوامة الفشل، وافترستهم ذئاب غبراء متربصة تنتظر في يوم من الأيام مثل هذا التشتت والتفرق، هذا السبب جعل هذا الشعب وحدة واحدة متماسكة صلبة، جوهره مصان محمي، بعيدا عن أن تمتد له الأيادى لتعبث به، أو تغير أو تبدل أو تحول من هذا الجوهر، نعم، تعرض هذا الشعب لاعتداءات القراصنة والمغامرين واللصوص والمتآمرين والطماعين والمخططين، ولكن كل الذي تغير وتبدل هو فكرتهم عن هذا الشعب، وعادوا إلى ديارهم يجرون أذيال الخيبة والهزيمة أو دفنوا وقبروا في تلك الأرض العزيزة الأبية،التي أبت ألا تحمل فوق أرضها إلا أبناءها الذين أنبتتهم من صلبها، وخرجوا من رحمها **" فمنذ فجر التاريخ إذن يبرز الشعب المصري كوحدة جنسية واحدة الأصل متجانسة بقوة في الصفات والملامح الجسمية، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم دون أن**

[30] المصدر السابق (٩)

تحدث أي ابتعادات ملموسة عن النمط الأولى أو تتنافر معــه تخصـصات محلية ضيقة،والواقع أن من أطرف الحقائق الانثروبولوجية بقاء أو ثبــات النمط المصري عبر العصورpersistence

فلم يكد يتحرك من آلاف السنين، حتى أن ثمة من التماثيل الفرعونية مــن عصر الأهرامات حين كشفت في القرن الماضي، تعرف الفلاحون وعمــال الحفائر على بعضه كشبيه وممثل لبعض أفراد من بينهم.

وهذا الثبات وحده جدير بالدهشة والتساؤل، لا لأنه يتحدى البعــد الزمنــي الطويل فحسب، وإنما لأنه يتحدى كذلك القاعدة الأصولية مــن أن البيئــات الغنية تجنح كمناطق إغراء وجذب بشري إلى الخلط والتنافر الجنسي، ولكن الذي يفسر هذا هو التعارض بين أثر الموقــع وأثــر الموضــع، فــالموقع مركزي مطروق بل قلب دوامة بشرية، والموضع غني ولكنه محمي معزول بدرجة لعبت غلالة الصحراء حوله ((ماصة الصدمات أو المصفى)) الــذي غربل الموجات الداخلية وكسر حدتها، وأخضعها للون قاسي ولكنه صــحي من الاختيار الطبيعي، وإذا كان النطاق الساحلي الشمالي ابتداء من ســيناء حتى مريوط مطروقا، فمن الراجح كما حدث في عصور ما قبل التاريخ أن كثيرا من الموجات التي انتقلت من غرب آسيا إلى شمال إفريقيا اخترقتــه دون أن تمس جسم مصر تماما أو تؤثر فيه بكثير أو قليــل. وبــين هــذه الضوابط وتلك كان الحل الوسط هو أن مصر لم تتعرض أساسا للهجــرات البشرية وإنما للغزوات الحربية، الأولى تتغلغل وتسري غالبا في الريف كما تسري في المدن، أما الثانية فتقتصر على المدن تقريبــا، الأولــى تمثــل حركات ضخمة الحجم كما، أما كيفا فهي ((هجــرات كليــة)) أي تــشمل الجنسين ولهذا يكون تأثيرها الجنسي محققا أما الثانية فبضعة محدودة من حركية ((ذكرية)) بحتة ولذا تذوب وإن لم تبد فمن بين نحــو ٤٠ موجــة

دخيلة عدت في تاريخنا لا نجد إلا ثلاث هجرات حقيقية هـي الهكسوس والإسرائيليون والعرب » [31]

بذرة حضارة استوطنت ومدت جذورها متغلغلة بين حبيبات تربة هذا المكان، وهو بالتالي احتضنها وأحاطتها بالحماية والرعاية والدفء وبمرور الوقت بدأ الساق يمتد شامخا في الفضاء مرسلا أغصانه المورقة في كل اتجاه،

لم يكن غريبا أن تبزغ هنا حضارة، وحضارة فريدة في نمطها وطرازها، تقف الإنسانية أمامها بعد ذلك مهما امتدت بها العمر والزمن، منحنية إكبارا وإجلالا وتقديرا وتعظيما، بل الغريب والعجيب ألا تكون – هنا – مثل تلك الحضارة، فقد نشأت وولدت أول أمة في التاريخ الإنساني « **وعلى أساس ما رأينا من تجانس طبيعي وبشري محكم، كان طبيعيا أن تظهر جرثومة الوحدة السياسية في مصر منذ أول فرصة ممكنة، هنالك تبدأ مرحلة ما يسميه بيجهوت ((فترة تكوين الأمم)) وهي مرحلة لم تعرفها دول أخرى إلا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين، بل لا تزال بعض الدول العربية اليوم تعيشها أو تعانيها، تلك المرحلة تبدأ مع بدء الاستقرار الزراعي حيث تحولت القبائل الرحل والعشائر الرعوية الطوطمية السحيقة إلى أقاليم مقاطعات أو دول مدن هي التي تعرف باسم nomes وبها انتقلت وحدة المجتمع من وحدة دموية مغلقة إلى وحدة سكنية واسعة، من وحدة قرابة ضيقة إلى وحدة جوار رحبة فكانت مصر بذلك أول ((أمة)) بمعنى القومية الصحيح وأول ((دولة)) بالمعنى السياسي الكامل كانت أول دولة نووية من النوع الكثيف intensive state بالمعنى الجيوبولتيكي » [32]**

[31] المصدر السابق (٢٤- ٢٥)
[32] المصدر السابق (٣٨)

الاستمرارية دليل على حيوية الحضارة.

لكبر امتحان للأمم والحضارات صمودها مع الزمن، فكم من حضارات وأمم ظهرت وأزدهرت وتوهجت ثم احترقت ولم يبق منها سوى الرماد والأطلال،وما بين الازدهار والتوهج والاحتراق فترة قصيرة، أو ليست بالطويلة،تلك حضارات ذات النفس القصير، أو إن شئت فقل أن عوامل الفناء والاندثار قد ولدت ونشأت مع عوامل وأسباب الازدهار والتوهج، تلك الحضارات كانت في خصام مع الزمن أو كانت في صراع معه، وليس أمام الحضارات إلا أن تكون بينها وبين الزمن نوع من التصالح وفي وفاق معه، وبالفعل تنجح تلك الحضارات بصورة ما أو بشكل ما أن تكون على وفاق مع الزمن، باذلة في ذلك مجهودا جبارا، وربما يكون هذا التحدى الأخير والأكبر أمامها لتبقى، ولكن مع ذلك نجاحها يكون – مهما امتد وطال – محدودا وقصيرا، وقد تنجح بعض الحضارات أن تطيل من زمن ولأمد هذا النجاح ويكون نجاحا باهرا وعظيما، إلا أنه رغم هذا يكون له حد يقف عنده ونهاية ينتهي عندها، ومع تلك النهاية لا يقلل أحد من عظمة وحيوية تلك الحضارة .لأنها بزت جميع الحضارات السابقة عليها وربما التالية لها في الفترة التي بقت فيها مزدهرة ومتوهجة، وهذا هو حال الحضارة المصرية

" والواقع أن مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط، وإنما هي أطول دولة حافظت على وحدتها القومية عبر التاريخ، فلم يحدث خلال ٦٠٠٠سنة أن انفرط عقد وحدتها وتدهورت إلى انفصاليات إقليمية إلا في حالات نادرة شاذة للغاية أغلبها مفروض من قوى أجنبية دخيلة كغزو الهكسوس حين انفردوا بالدلتا وظل الصعيد معقل الدولة الوطنية المستقلة، وكعهد الانحلال والاقطاع في الدولة الوسطى، وأخيرا كعهد الاقطاع المملوكي.

بل القاعدة أنه حتى في ظل الاستعمار الأجنبي لم تفقد مصر وحـدتها فلـم يحدث أن تقاسمها أكثر من مستعمر في أي فترة أو خضعت لأكثر من قوة في وقت واحد، وذلك بعكس ما عرف الشام والعراق مرات ومـرات فـي تاريخها، ولقد قيل في هذا الصدد أن المشكلة في الاستيلاء على مصر ليس غزوها وإنما الوصول إليها، لأنه متى تم هذا ووضع الغازي قدمـه علـى موطئ ما منها قادته الطبيعة بسهولة إلى بقية أجزائهـا كمـا بالانحـدار والجاذبية، أو كالفقاعة الهوائية في الميزان المائي تقطعه من طرفه إلـى طرفه مهما بدأت "[٣٣]

القمة والقلب

فترات مرت بها مصر، فترة كمون وتجميع وتكـوين، ثـم فتـرة إشـراق وسطوع، ثم فترة توهج واشتعال حضاري لا مثيل له، ولم تكتف بذلك بـل تعدت واخترقت حواجز كثيرة لتصبح إمبراطورية من طراز فريد تفـرض سلطانها وهيمنتها على شعوب وأمم مختلفة ومتعددة، وتلك الشعوب والأمـم تدين لها بالولاء والطاعة، ولكن لم تكن إمبراطورية استعمارية تبغى قهـر الشعوب أو نهب ثرواتها وخيراتها، ولكن الفضاء أو الفراغ في العالم حولها فرض عليها أن تملأه وتشغله، وإلا سيسارع آخرون بفعل ذلك، وهم أقل منها في القوة والكفاءة والقدرة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى – إن حدث ذلك – سيمثل هذا خطرا وتهديدا لمصر ولأمنها القومي،إذن أمور متعددة فرضت عليها أن تسير في المضمار والطريق الإمبراطوري، وليس معنى ذلك أنـه لولا تلك الأمور التي دفعتها في هذا الطريق ما أصبحت إمبراطوريـة،لأن قبل تلك الأمور والأسباب كانت مصر بكل المعايير مؤهلة وجديرة أن تكون

---

[33] المصدر السابق (٣٨)

إمبراطورية، أمور داخلية وأسباب خارجية وظروف مكانية وأحوال زمانية وأوضاع عالمية، وقبل كل هذا وفوق كل هذا، البداية الموفقة التـي بـدأتها مصر حضاريا، لابد أن تنتهي بها إلى تلك المكانة والمنزلة؛وهـذا التـراكم العلمي والثقافي والحضاري الذي بلغ الذروة وامتلأت به مصر وفاض على من حولها من أمم وشعوب، والإمبراطوريات لا توجد إلا لأمرين

الأول: أن هناك أمة أو شعب توافر لديه من أسباب القوة والتقدم والتطور ما لم يتوافر عند الأخرين، وأنه خطى في ذلك خطوات واسعة وبعيدة بحث أنه من الصعب والعسير وأكاد أقول من المستحيل على الأخرين اللحاق بـه أو حتى الاقتراب منه.

الثاني: أن العالم حوله أوالظرف أو الوضع العالمي يستدعى أو يـستلزم أو يقتضي أو يحتم وجود مثل تلك الإمبراطورية، سمه انتخـاب طبيعـي، أو ترشيح أو تزكية وتأييد ومباركة عالمية، فوجود مثل تلـك الإمبراطوريـة تحقيق فائدة قصوى للعالم والإنسانية، لأنها ستكون بمثابة قـاطرة عملاقـة وسريعة ستجر عربات بقية دول وأمم وشعوب العالم إلى التقدم والتطـور، هذا إذا توافر في تلك الحضارة الضمير والحـس الإنـساني أن تأخـذ بيـد الأخرين، ولا تؤثر مصحتها ونفعها عن مصلحة ونفع الأخرين، ناهيك على أن تضر الأخرين لتنفع نفسها " **فإذا ما أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا نقف في واسطة العقد في كل معنى: فحولنا منتثرا في كل الجهات شـتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ضعيفة الموارد والتنظيم: دولة رعاة ((الليبيون والجزيرة العربية)) أو أنصاف رعاة ((سوريا)) ودولـة فلاحين وصيادين ((الإغريق)) وفي النادر دول فلاحين ((العراق)) ولـم تكن رقعة المعمور الفعال حينئذ orbis terrarum تزيد عن هـذا الإطار كثيرا تبدأ بعدها منطقة شبه ظل باهت لا وقع لها ولا خطر.**

ولهذا كانت مصر القمة والقلب معا، القمة موضعا والقلب موقعا. وليس من الصعب بعد هذا أن نعلل لسر قوة العسكرية المصرية القديمة wehrmach. كما كان طبيعيا أن يغري ثراؤها وخصبها بها بعض هذه الأطراف الفقيرة إما في تسللات متلصصة أو في مغامرات تشنجية لا تخرج في مجموعها عن طمع من جانب الرمل في الطين أو الرعاة في الزراع. وبهذاأصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر أرض المعركة والمعركة التأديبية أساسا land of insolence – كما يقول الأمريكيون الآن.

ومن هنا أدركت مصر أن حدودها الطبيعية إنما تبدأ خارجها في فلسطين وفي برقة بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الأوسط تقريبا، ومن هنا توسعت الإمبراطورية إلى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك لا كإستعمار بالمعنى المفهوم، وإنما لنشر السلام المصري pax a egyptiaca بل إننا يمكن أن نزعم بقليل من خشية أن الإمبراطورية المصرية كانت في جوهرها وفي معنى ما ((إمبراطورية دفاعية)) أساسا حتمتها كما سنرى ظروف الصراع الإقليمي والاستراتيجية العريضة في الشرق القديم " [34]

مرحلة الأفول ثم السقوط

ليس من الضروري أن تعقب فترة الأفول مرحلة سقوط، فليس من المعقول ولا المنطقي أن تمر أمة ما بمرحلة الإمبراطورية تخضع لها دول وأمم، ثم بعد فترة طالت أم قصرت أن تكون هي خاضعة ومسيطر ومهيمن عليها، نعم، تعرضت لمرحلة أفول، وتقلصت وانكمشت وانسلخت من المرحلة الإمبراطورية، ولكن تبقي دولة لديها بقية من أسباب القوة، أو ما تبقى من الشكل الإمبراطوري، على الأقل تكون قادرة على حماية نفسها، ناهيك عن حماية أو الاحتفاظ بما كانت مهيمنة ومسيطرة عليه، أما أن تتحول تلك

[34] المصدر السابق (٨٩- ٩٠)

الإمبراطورية إلى دولة، وتتحول تلك الدولة إلى دولة ضعيفة تسقط امـــام أول مواجهة بينها وبين قوة أخرى، ليس هذا فحسب بل تتعاور عليهـــا وتتعاقـــب عليها الدول الإستعمارية على مدى طويل من الزمن، ولا توفق أو تـــنجح أن تعود إلى ما كانت عليه، أو قريبا مما كانت عليه، بل تبقي راسفة في الأصفاد والقيود زمنا متنقلة وخاضعة تحت أمم شتى، فلابد أن يكـــون لهـــذا الوضـــع المزرى والحال المؤسف ليس سبب واحد بل أسباب كثيرة، بعـــضها أســـباب ذاتية، وبعضها أسباب إقليمية وبعضها أسباب عالمية، وأن كل تلك الأســـباب تكونت وتجمعت واتحدت فيما بينها لتعمل – جاهدة – علـــى تحقيـــق هـــدف وغرض واحد هو القضاء على تلك الإمبراطورية والهيمنة والسيطرة عليهـــا، ومنعها وحرمانها من أن تعود إلى ما كانت عليه، بل وضع العقبات والعراقيل لمنعها مجرد التفكير في أن تسترد شيئا مما كانت عليه.

" من الغريب حقا أن مصر بعد أن أنشأت أول إمبراطورية في التاريخ تدهورت إلى أطول مستعمرة عرفها التاريخ ! فتاريخ مصر يقع بوضوح في مـــرحلتين متناقضتين: مرحلة أولى كانت تمثل فيها قوة طـــاردة مركزيـــة مـــن الناحيـــة السياسية، انطلقت فيها إلى العالم المجاور وفرضت عليه نفوذها ونشرت فيـــه ظلها السياسي، استمرت هذه المرحلة نحو ألف سنة متقطعة حتى نهاية الدولة الوسطى أو الحديثة تقريبا، ثم تلت هذا المرحلة الثانية التي تـــصل بنـــا إلـــى العصر الحديث بلا انقطاع تقريبا، ومنها تحولت مصر سياسيا إلى قوة جاذبيـــة مركزية خضعت لقوى دخيلة وأصبحت مستعمرة تابعة، أصـــبحت مجـــرد ظـــل نفسها سابقا "[٣٥]

---

[35] المصـدر السابق – (٨٧)

الأسباب الذاتية

أسباب الأمراض محاطة بالكائن الحي في كل وقت وكل حين، ولكن طالما مناعته قوية، فالأمراض تقف عاجزة على أن تغزوا هذا الكيان القوى أو تهدد حياته، ولكن إذا ضعف هذا الكائن أو قلت مناعته تجد الأمراض على مختلف أنواعها وتعدد أشكالها الفرصة لمهاجمته ومحاولة تدميره والقضاء عليه، وكذلك الدول والإمبراطوريات، أسباب الخطر لا تأتي بداية من الخارج، ولكن الضعف والوهن يكونان نابعين من ذاتها، والمتربصون والمتحفزون حولها لا يتركون تلك الفرصة تمر دون أن يستغلوها. وككل شيء يصل إلى ذروته وتمام كماله، يبدأ في الانحدار والنقصان، وكأن تلك سنة كونية تسرى على جميع المخلوقات بدون استثناء، نوع من تداول السلطة الحتمي والقدري، لكي يتسع الميدان لقوة أخرى، تضيف ما لم تضفه القوة الزائلة – أو هكذا يجب أن يكون – أو أن كل شيء يمر بمرحلة طفولة ثم شباب ثم شيخوخة وهكذا إلى أن يأتي وقت الموت، أو حالة إشراق يعقبها – ولابد – حالة أفول. ومع كل ذلك فهناك أسباب ذاتية للإنهيار الإمبراطورى المصري، فموارد مصر او إمكانات وطاقات الموضع لا تطيق أو لا تقدر أن تفي بمتطلبات أو واجبات الإمبراطورية، وإن قدرت أن تفي فلوقت محدود وليس على المدى البعيد، وأي إمبراطورية لها تكاليفها الباهظة وضريبتها الفادحة، وإذا كانت نوعية الإمبراطورية المصرية لم تكن من النوع الإستعماري، والتي تدفع تلك التكاليف والضريبة من جيب غيرها، بل وتدفعها مصالحها ان تستنزف موارد وخيرات المستعمرات المسيطرة والمهيمنة عليها لتصب في مواردها الخاصة ويحدث نوع من التراكم المادي يزيد من قوة وطاقات الإمبراطورية ويطيل من أمد عمرها وطول بقائها، لم تكن الإمبراطورية المصرية من هذا النوع، وإنما كانت – كما ذكر من قبل – إمبراطورية دفاعية حتمتها وفرضتها ظروف الصراع الإقليمي،

والمعروف أن أي شكل أو خطة دفاعية من شأنها – عـادة – أن تستنزف الكثير من النفقات والموارد. وربما هذا الذي يفسر عدم بقاء أو صمود الإمبراطورية المصرية فترة طويلة من الزمن، أو عودتها مرة أخرى " **لماذا هذا النضج المبكر وهذه البداية المبكرة من ناحية، ثم تلك الشيخوخة والنهاية المبكرة أيضا بعد ذلك ؟ والرد على ذلك هو علاقة التفاعل المتغيرة عبر التاريخ إن تضافرا أو تنافرا بين العاملين الجغرافيين الجوهريين الموقع والموضع** " [٣٦]

الأسباب الإقليمية

لا انفصال هنا بين الأسباب وإنما بينهم ارتباط عضوى، وربما العلاقة بينهم هي العلاقة بين السبب والنتيجة، فالعالم كخشبة المسرح، إذا انتهى دورك فلا مبرر لبقائك ويتولى أخر القيام بالدور الرئيسي الذي عجزت أن تقوم به، فلم تفقد مصر دورها الإقليمي فحسب بل أصبحت مطمعا وغرضا وهدفا لقوى أخرى جديدة لديها من القوة والطاقات والموارد ما نضب مصدره عند مصر، تلك القوة لم يكن هدفها أن تتولى دور مصر الإقليمي وتحل محلها وتستولى على تلك المستعمرات التي كانت تخضع لمصر، ولكن طموحها كان أكبر من ذلك وأبعد، فكانت تريد السيطرة على مصر ذاتها لا لشيء إلا لأنها لن يتسنى لها السيطرة على تلك المستعمرات والهيمنة على تلك الشعوب والأمم إلا بعد السيطرة على مصر لأن مصر هى المفتاح أو الباب الموصل إلى ذلك " **لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة، مواضع أغنى، وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصري، وفي صراعاتها فيما بينها أو فيما بينها وبين القوى القديمة، وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائما في أرض الزاوية تلك – مصر – ومن هنا**

[36] المصدر السابق (٨٩)

أصبحت قبلة الغزاة. ونظرا لأن وزن موضعها لم يعد يسعفها إزاء هذه القوى الأكبر جرما فقد وقعت مصر فريسة لها بمعنى آخر إن الانقلاب الذي حدث في مصير مصر هو أن خطورة موقعها زاد كثيرا عن قوة موضعها: لقد تخلف الموضع عن الموقع، ولم يواكب تطوره، ولم تعد إمكانيات الأول التقليدية ترقى إلى متطلبات الثاني الباهظة "[37]

الأسباب العالمية

لابد أن نعترف – ونحن مضطرون إلى ذلك – أن الذي يحكم العالم أو القانون الذي يتصرف بمقتضاه العالم هو قانون القوة والقانون الذي يحتكم إليه لعالم هو قانون القوي، أما أن يحكم العالم الضمير أو القيم والمبادىء فهذه أمنية قد لا تجد من يجسدها على الأرض، وإذا جسدت فهي في حاجة إلى القوة لتجسيدها، لذلك فليس للضعيف مكان في هذا العالم إلا إذا سمح القوي بذلك، وغالبا يسمح القوي بذلك لأن في بقاء الضعيف ووجوده – هذا في حد ذاته – مصدر يستمد منه القوي المزيد من القوة، أو شكل أو مادة يمارس القوي عليها سلطانه وجبروته،لأن لا معنى لقوته إذا لم يكن ثمة ضعيف، لذلك فكل الأمم والشعوب تبحث بحثا حثيثا على مصادر القوة لتسود وتحكم وتسيطر وتهيمن، ودائما كان يحكم العالم قوة أو قوتان تتنازعان للتغلب الواحدة على الأخرى، أو تتقاسمان العالم فيما بينهما، وهذا إلى أمد يطول أو يقصر وتزول إحدى القوتين أو كلتاهما وتظهر قوة جديدة تأتي بأساليب وأدوات وآليات وصور أخرى للقوة، تفوق ما سبقها، أو أن ما سبقها قد ضعف وهن، فلم يعد يستطيع أن يحتفظ بمكانه ومكانته، حينئذ يتقدم طرف أقوى أو طرف مازال محافظا على قوته وعنفوانه، ليزيحه ويأخذ مركزة في قيادة العالم أو فرض سلطانه على الأخرين.

---

[37] المصدر السابق – (٩٨)

وهذا ماحدث مع الإمبراطورية المصرية، ضعفت ووهنت، وكان لهذا الضعف والوهن مظاهر وأعراض لا تخفى على العين المبصرة، ولم تكن هناك عين مبصرة فحسب، بل عيون مترصدة ومتحفزة، وتناولتها وتبادلتها وتقاسمتها قوى غازية متعددة ومختلفة " غير أنها بعد قرون من الازدهار أخذت تذبل وتتحطم تحت طرقات الغزو الفارسي والآشوري بل والليبي والنوبي إلى أن كانت الضربة القاضية على يد الأسكندر حين تحولت إلى ولاية إغريقية بطلمية، فمنذ ذلك الحين فقدت استقلالها بلا انقطاع تقريبا، فتوالت عليها فتوحات الرومان والعرب والعثمانيين لتختتم بالاستعمار الأجنبي الأوربي الحديث، وقد يقال إن خلاصة هذه الدورة أن مصر نمت نموا مبكرا للغاية وسابقا لأوانه ولكنها بالمثل انتهت قبل الأوان وبهذا اختزل ((العصر البطولي heroic age)) فيها إلى قطاع صغير من دورة حياتها وتاريخها ولربما يذكرنا هذا بفرنسا فيما بعد في تاريخ أوربا الحديث حين كانت أول أمة ثم دولة إمبراطورية عرفتها أوربا الحديثة، ولكنها لم تلبث أن فقدت مكانتها مبكرا لقوى صاعدة "[٣٨]

ولكن ما سبب أن مصر استهدفت من كل تلك القوى الإستعمارية، لدرجة أننا نخال أنه لم تظهر قوة استعمارية في التاريخ الإنساني إلا وكان لها موطئ قدم في مصر ؟! بالطبع ليس بسبب ضعف مصر، فكثير من الدول والأمم كانت أضعف من مصر بكثير ومع ذلك لم تتعرض لهذا التدفق غير المنقطع من الموجات الإستعمارية المتواصلة، إذن هناك شئ آخر جعل مصر منطقة جذب لا تقاوم من قبل هؤلاء، لا شك أنه الموقع الفريد الذي تتمتع به مصر، بحيث أنها لوعجزت عن حمايته واستخدامه واستغلاله لسارع آخرون بالسيطرة عليه واستغلاله نيابة عن مصر

---

[38] المصدر السابق – (٨٨)

" إن الموقع قد جنى علينا كأمر واقع وأغرى بنا الاستعمار والاطماع الإمبريالية، حقيقة تاريخية إذن ولا مناص من الاعتراف بها. بل قد يمكن أن نزعم في هذا الصدد أن موقع مصر في العالم الحديث أشبه – في معنى – بموقع العراق في العصور الوسطى، إن لم يكن حقا هو الذي ورثه. فمن المحتمل أن عراق العصور الوسطى كان يتمتع في عصره الذهبي بموقع تجاري واستراتيجي من خير ما عرف العالم القديم، ولكنه كما رأينا دفع ثمن هذا الموقع من صميم مصيره حيث عرضه لأخطار قلب آسيا الرعوية المدمرة وطرقات القوى البربرية وقراصنة السهوب، ومنذ العصور الحديثة كانت مصر موقعا من أهم مواقع العالم القديم، ولكنها بالمثل دفعت ثمنه من استقلالها، حيث تكالبت عليها أخطار القوى البحرية والاستعمار الأوربي الحديث أي قراصنة البحار "[39]

وكان مصر لديها كنز ثمين، الجميع يتطلع إليه في نهم وشره، وإن لم تستطع أن تحافظ عليه وتدافع عنه سيأتي من يسلبها هذا الكنز ولن يتسنى له ذلك إلا بعد السيطرة عليها، وتختلف أنواع السيطرة باختلاف الظروف والأوضاع وكذلك باختلاف الأزمنة، ومن السيطرة ما هو فج وهمجي يعتمد على القوة والسلاح، ومنها ما هو رقيق وناعم وأملس كخيوط الحرير، ومنها ما هو غير مرئي للأبصار ولكن تدركه العقول وتعيه الضمائر، ومهما تغير العالم وتحول وتبدل في الصورة والشكل والأوضاع تبقى العلاقات والقوانين والاعتبارات التي كانت تحكمه قديما أو تضبط التوازنات والتعادلات بين رموز هذا العالم هي هي لم تتغير في الجوهر أو في الأصل والحقيقة وإن تغيرت في الشكل والمظهر ووسائل الخداع والتجميل والتزييف والتزوير، فلم تعدم الإنسانية حتى الآن أن تعتدي دولة على دولة، أو يغتصب شعب حق

[39] المصدر السابق (١١١)

شعب آخر أو تهيمن وتسيطر قوة أو قوتان على العالم أو دولـه الـضعيفة، ولن تعدم الإنسانية الآن شعب سقط في وهدة الجوع والمرض والحرمـان، وآخر يتنعم في بلهنية ورغد العيش، باحثا عن سبل وطرق لتمتع لأنه مـل وسأم من الطرق المتاحة والميسرة والمذللة أمامه.

ومخطئ من يظن أن العالم قد اعتنق شعارات الأخوة والمساواة والعيش مع الأخرين في سلام وأمان، نعم ستجد البعض يؤمن بتلك الشعارات، ولكـنهم الضعفاء وحدهم الذين ليس لهم حول ولا قوة، أما الأقوياء فما لهم يؤمنـون بتلك المبادئ والشعارات ؟ إنها ستغل أيديهم وتقيد خطواتهم وتعرقل خططهم وتفشل مؤامراتهم وتتعارض مع مصالحهم، الصراع الضاري بين أقطـاب العالم ودوله لم يتوقف ولم يهدأ، بل زاد عن ذي قبل واتخذ أشكالا أفعوانيـة وصورا شيطانية ووسائل وسبل جهنمية، فقدكانت الأسلحة التي يستعين بهـا ترى بالعين وتلمس بالحواس، لذلك تستطيع أن تتقيها وتتجنبها، أما الآن فلم تطور العقول البشرية شيئا كما طورت وسائل وأساليب وآليـات الـسيطرة والهيمنة والتحكم، ولم تتفنن العقول البشرية في شئ كما تفننت فـي ابتكـار واختراع الخطط والمؤامرات التي تريد من خلالها إعـادة رسـم وتكـوين وصياغة العالم وفق ما تريد وما تهوى، بـدون أن تـضع فـي الحـسبان والاعتبار إرادة وحرية الأخرين.

وتبقي مصر وسط كل هذا بمثابة المركز والمحور، جهل البعض أوغفل عن هذا، علم أوأدرك هذا الأمر،الباب والمفتاح، الباب ليلج منه إلى تلك المنطقة الهامة من العالم والتي تتركز مصالح الدول الكبرى فيه، والمفتاح الذي يفتح لهم المغاليق لتنفيذ مشروعاتهم وخططهم وأهدافهم،" **منذ طرد الرومان ومع فشل الحملات الصليبية البحرية، وإلى أن ظهر الاستعمار الأوربي الحديث، لم تخضع مصر لقوة بحرية أجنبية أو تتعرض لأخطارها جديا ولكـن مـع ظهور الإمبراطوريات البحرية المأموث بمصالحها الكوكبيـة واسـتعمارها**

العالمي لم يكن مفر من أن تصبح مصر قطب الجاذبية في الاستراتيجية البحرية ولن تلبث أن تكون أرض معركة في كل صراع عالمي حتى قبل القناة – قناة السويس – ذلك، بل حتى قبل الحملة الفرنسية، فنحن غالبا ما نغفل عن الفيلسوف ليبتز منذ أكثر من قرن قبل نابليون وبالتحديد في ١٦٧٢كان يقترح على لويس الرابع عشر أن يضرب الهولنديين الذين رادوا البحار ما بين أوربا والهند في ذلك الوقت وذلك باحتلال مصر "[40]

" هذا مثلا رينان – مرة أخرى يقول عن مصر ((إن بلادا لها مثل هذه الأهمية لباقي العالم لا يمكن أن تكون مستقلة من الوجهة السياسية "[41]

عود على بدء

تلك مراحل أو محطات تاريخية مرت بها مصر أو توقفت عندها طويلا أو قصيرا، قد لا يتسنى لنا فهم الحاضر وما يدور ويحدث فيه أو التخطيط للمستقبل بدون الإطلالة على تلك المراحل والمحطات، ويزداد الأمر إلحاحا حينما تقوم ثورة – اليوم – في مصر، فالثورة في مصر ليست كأي ثورة في أي مكان في العالم، فما يحدث في مصر تجد صداه في جميع أنحاء العالم، ومعنى أن تثور مصر أن يتغير وجه العالم، فما من مرة ثارت وتغيرت إلا وتغير العالم، وتبدلت مصائر وتحولت أقدار وتحركت مراكز واستنفرت قوى واستفزت مصالح،.وإذا كان المصريون قد فرحوا وانتشوا بتلك الثورة – ولهم أسبابهم – فلا يجب أن يظنوا أن العالم يشاركهم تلك الفرحة وهذه النشوة، فكثيرمن الأطراف قد اغتموا كثيرا بتلك الثورة، وكثير لم يظهروا حقيقة مشاعرهم، وكثير لم يعلنوا صريح مواقفهم، وكثير لن يقفوا مكتوفي الأيدي وهم يرون أن مصر على وشك أن تتغير وتخلع ثوبها البالي، وتنفض

---

[40] المصدر السابق (١٠٧)
[41] المصدر السابق (١٠٩)

عن عيونها الكرى، وعن جسدها الضعف والوهن وعن عقلها الكسل والفتور، مصر تبعث من جديد كما لم تبعث من قبل،مصر بمثابة قاطرة إذا سارت نبهت الأخرين كي يتحركوا ويسيروا، وإذا انطلقت فلن تنطلق إلا وخلفها الكثير من الأمم والشعوب، الذين يرون في مصر العقل والقلب، وربما تكون تلك الثورة بداية عهد أخذته مصر على نفسها، أن تعود كما كانت في الماضي، ولم كما كانت ؟ لم لا تكون أعظم وأبهى وأجمل مما كانت ؟ ألم تبرهن من خلال تلك الثورة أنها مؤهلة لكل عظيمة وجديرة بكل تقدير واحترام وإجلال العالم ؟ وليس أمام مصر الآن إلا أن تصنع حاضرها ومستقبلها بكل إصرار وعزيمة، عامرة القلب – كما كانت دائما – بالإيمان، ممتلئة النفس بالثقة والعزة والإباء، تشرق أرضها بالطهر والنقاء والسلام، ويسعى أبناؤها بين أيديها أوفياء يرعوا الزمام

بارين بأمهم العظيمة، التي تباركهم في كل آن وحين

نعم إن مصر الآن في أزمة حضارية – لا شك في هذا– ولكن من عجيب الأمر أنها لا تظهر معدنها وتجلي جوهرها إلا في الأزمات الحضارية والمآزق التاريخية والمحن المصيرية، تلك هي طبيعتها، عودتنا على هذا وتعودنا منها هذا، تضعف ثم تقوى، تنهزم ثم تنتصر، تسقط ثم تنهض، تتوقف ثم تنطلق،تغفو ثم تصحو تمرض ثم تتعافى، تضل ثم تهتدي، تخرج من التاريخ ثم تعود كأجمل وأعظم ما تكون العودة، لتكون عضوا فعالا وبارزا، وهي الآن أمامها مهام ثقال، وطريق صعب، وهدف عسير، أن تصلح من ذات نفسها وتعوض تلك السنوات الطوال التى توقفت وكان العالم حولها يجري،وهي لديها القدرة والطاقة والنية والعزيمة لتدفع ثمن هذا، من خلال العمل الجاد والجهاد المتواصل والكفاح الدائب، لتخرج من دائرة التخلف، ليس هذا فحسب بل لتلحق بركب الدول المتقدمة والمتطورة، لأن

قدرها يضعها دائما في اتصال وتواصل مع العالم الخارجي، ومواكبة كل التغيرات والتحولات الحادثة في العالم، ليس هذا فحسب، بل تكون أحد رموز هذا التغير والتحول، وبلد هذا شأنه لابد أن يكون على قدر هذا الاتصال والتواصل، وإلا تعرض للتهميش والنبذ بل للتفكك والانحلال وهذا مصير كل البلدان التي تخفق في معركة التطور والتقدم "إن المسألة التي يطرحها مصير جميع الشعوب غير الأوربية التي زعزع استقرارها التاريخي انهيار النظام العالمي التقليدي، وانتصار ما أطلق عليه ((فيرناند بروديل)) اسم الحضارية المادية، هي كيفية الولوج إلى ساحة التاريخ العالمي وانتزاع بطاقة مشاركة فعلية في الحضارة الجديدة، وبالتالي الخلاص من مخاطر التهميش والأهرمة القاتلة.

وحيثما نجحت الشعوب في إيجاد الرد الإيجابي على هذه المسألة وقبلت بتقديم الثمن المطلوب لذلك والتعديل الممزق في بناها التقليدية السياسية والاقتصادية والأخلاقية أمكن لها الاحتفاظ بوحدتها المادية والمعنوية، والتحول إلى مراكز نشطة للانتاج الحضاري، وبالعكس حيثما أخفقت الشعوب في ذلك لأسباب ذاتية أو موضوعية داخلية أوخارجية، فقدت السيطرة على مصيرها وتهدد مستقبلها، وحكمت على نفسها بالدخول بالرغم منها في مسار خطير يختلط فيه التفكك المتواصل مع الفوضى السياسية والتبعية الاقتصادية والانقسام الوطني والسقوط المعنوي، هذا هو جوهر الأزمة التاريخية التي تقف وراء أزمة الهوية وأزمة السياسة والدولة والاقتصاد معا، والتي لابد أن تتفاقم وتتسع باتساع عجز المجتمعات التي تعيها عن التحكم بالتاريخ وفقدانها السيطرة على الوقائع الموضوعية، وفي هذا السياق، لن تجد الشعوب من خيار آخر أمامها، وفي مواجهة الشعور المتزايد بالتمزق والانحطاط وانهيار المعنويات، واستبداد اليأس بها، سوى خيار العمل بأقصى ما تستطيع من قوة وسرعة، وبكل

الوسائل للخروج من حالة انعدام الوزن والجدوى هذه، وهي الحالة التي تجعل أي جهد مهما كان حجمه، لا قيمة له، وتفرغ تاريخ الجماعات الخاص من أي معنى وجاذبية "[42]

لقد تعرض المجتمع المصري على مدى عقود لنوع من تجريف الهوية وتصحر الشخصية، وإحساس قاتل بالاغتراب حتى وهو موجود في وطنه، فصل عن ذاته، وفقد طريقه، وأخذ يتخبط، تارة يمينا وتارة يسارا، يتراجع إلى الخلف بدون وعي بالمستجدات والمتغيرات العالمية، يندفع إلى الأمام بدون التمسك بالثوابت التي تحفظ عليه كيانه ووجوده، ضاعت البوصلة من يديه، فأصبحت كل البدائل والاتجاهات والمسارات متساوية، فأصبحت التجربة عن غير وعي أو فكر هي سيدة الموقف، والتجربة – في حد ذاتها – نوع من المغامرة، وأي مجتمع يغامر بوجوده وكيانه، تصبح التجربة في تلك الحالة نوعا من المخاطرة، بل مخاطرة غير محسوبة وبالتالي غير مضمونة، لأنها تصبح أسلوبا فجا من العشوائية والارتجالية التي تؤدى – لا شك – إلى الفوضى، كل هذا أصاب وجدانه بالتشوه وعقله بالتشتت، وليس غريبا أن توقف هذا المجتمع عن الإبداع الحضاري، ناهيك عن مسايرة أو السير وراء حركة التحضر والتطور العالمي، ودخل في نفق مظلم من التحجر والجمود والتخلف، بعد أن كان هذا المجتمع – فيما مضى – في طليعة حركة التطوير والتنوير، بل كان الذي يحمل لواء تلك الحركة في المنطقة العربية ويدعو إليها ولها، ويدفع من حوله في هذا الطريق، ذلك لأنه كان قد عرف وأدرك ووعى هويته واكتشف ذاته، فعرف طريقه، وحدد هدفه وجمع إمكاناته وطاقاته وقدراته في بؤرة واحدة، محددة الغرض

---

[42] المحنة العربية: الدولة ضد الأمة – د. برهان غليون (١٣- ١٤)

والإتجاه، وكان على يقين من النجاح، وجاءت إنجازاته لتؤكـد علـى هـذا النجاح وتبرهن على قوة وتماسك هذا المجتمع.

وبعد أن قامت الثورة، على المجتمع أن يعالج كل تلك الجروح، أن يصلح كل تلك التشوهات، أن يضمد كل تلك الندوب الغائرة في الوجدان المصري، نعم كثير من شرائح المجتمع وفئاته قد تكون بعض تصرفاتهم وأفعالهم غير متفقة ومنسجمة مع ما يجب أن يكون، ولكن – إلى حد ما – لهم عذرهم لأن تلـك الشرائح والفئات قد سحقت وطحنت، والبعض ضلل، والبعض غـرر بـه، والبعض خدع، كإنسان أمضي وقتا طويلا في الظلام، ثم خرج به إلى النور الساطع، لا شك سيأخذ وقتا حتى تعتاد عيناه أن ترى في هذا النور الطبيعي، ولا لوم عليه إن أغمض عينيه، أو لم ير جيدا، أو تخبط بعض الوقت، واللوم كل اللوم على الذي جعله يعيش – من قبل – في الظلام.

على المجتمع أن يعيد تركيب وتجميع ما تفكك من كيانه، وما تفـرق مـن نسيجه، وأن يعيد رتق ما تمزق، وأن يعيد استزراع واستنبات ما جف وذبل ومات، وإن لم يسارع المجتمع إلى فعل ذلك، قد ينفرط العقد الـذي نظمتـه الثورة " **والقصد أن الهوية أي التصور الذي يكونه شعب ما عـن ذاتـه لا قيمة لها إلا بقدر ما تساهم من خلال القيم التي تركز عليها والعلاقات التي تشجع على بنائها والإيحاءات التي تثيرها في إعادة بناء الشخصية الفعلية المفككة أو المهددة، وبالتالي ضمان تفتحها واستقرارها. وهو ما لا يمكـن أن تتحقق من دون قيام هذا البناء على الأسس نفسها التـي تـساهم فـي ادماجها في الحركة التاريخية وتعظيم مشاركتها في المغـامرة الحـضارية البشرية، والهوية التي لا تقود إلى مثل هذا البناء تتحول بسرعة إلى وهم**

محبط وتدفع الجمهور سريعا نحو التخلي عنها والتوجــه نحــو خيــارات مغايرة " [43]

حينما يقوم مجتمع ما بثورة، فإنه يبغي من وراء ذلك تصحيح مساره علــى مستويين:

داخليا: من خلال إعادة مفاهيم وقيم ومبادىء يكون قد استخف بها وعبث بها وأعتدى عليها، مثل كرامة الإنسان وآدميته وحريته وحقوقه، تلــك الأمــور التي تشعر الإنسان أنه في وطنه ملاذه وملجأه الأول والأخيــر، وأن هنــاك وشائج وأواصر من الحب والتقدير والانتماء متبادلة بين المواطن ووطنـــه، وأن تلك العلاقة تتوثق وتقوى وتنمو مع الأيام

وخارجيا: من خلال – أيضا– إعادة الوطن إلى مكانه ومكانته إلى المنظومة العالمية، والانخراط في هذا السياق الحضاري العالمي،من خلال العمل الجاد المخلص، والبحث عن سبل واستلهام قدرات وطاقــات لإثــراء الحــضارة العالمية، والإضافة إليها ولو بقدر ضئيل، ولن يتسنى ذلك إلا بالثقة بالنفس، ولن يصل إلى تلك الغاية النبيلة إلا من خلال تحقيق إنجــازات ونجاحــات تبرهن للعالم، أنه يوجد هنا مجتمع ضحى وعلى اســتعداد أن يــضحى وأن يحاول ويكرر المحاولة حتى يعود إلى مكانه الطبيعي الذي يؤهله له رصيده الحضاري، وجوهره الأصيل، ومعدنه النبيل، الذي لــم تنــل منــه المحــن والشدائد بل زادته تألقا وقوة، حينما يصل المجتمع إلى تحقيق هذين الأمرين يكون قد نجح في أن يوظف الثورة التي قام بها وأعاد ليس الثقة إلى نفسه بل الحياة والعزة والكرامة. هذان الأمران ليس أمام الثورة خيار فــي ألا تقــوم بتحقيقهما، وبكل كفاءة وإتقان، لتعويض وإ صلاح ما تم تخريبــه وتــدميره وتشويه من بنى المجتمع، وفي نفس الوقت التوافق والاتفاق مــع الحــضارة

[43] المصدر السابق –(٥٩)

البشرية، بدون تنفيذ هذين الأمرين بصورة حازمة لا ضعف ولا تهاون فيها، وبسرعة بدون بطء أو تلكؤ، فإنه لا قيمة لأي جهد يبذل، ولا لأي خطط أو حركات إصلاحية أو انتفاضات ثورية.

" إن السعي إلى استيعاب الحداثة والاندراج الإيجابي في الحضارة العالمية، أي مسايرة وتيرتها، هو جوهر تاريخ الشعوب المتأخرة وغير النامية ومحرك نشاطها وثورتها وحافزها الأول، وفي سبيل ذلك تبقى الشعوب ووسائلها المستخدمة في الوصول إلى هذا الهدف، سواء أطلقنا عليها اسم الاصلاح أو التغيير أو الثورة الوطنية أو عملية التحديث، لا حساب لها ولا حدود، فهي مستعدة لتكرار الجهد وإعادة التجربة إلى ما لا نهاية حتى تحقق النجاح المطلوب أو تهلك تماما. ذلك أن المقصود ليس شيئا آخر سوى إعطاء أو إضفاء معنى على الجهد الجماعي والفردي، والذي يبقى من دونه أي جهد عبثا لا يقدم أي رضى عن الذات ولا أي عزاء عن الموت والهلاك. ولا يمكن توليد هذا المعنى إلا من خلال تكوين المرجعية العميقة، الأخلاقية والتاريخية التي يقيس عليها الإنسان ثمرة جهده ودرجة تقدمه على خط التقدم التاريخي، ومشاركته في الحقيقة الإنسانية المعاصرة، والتي تنعكس بالضرورة في ما يحصل عليه لقاء هذا الجهد من قيمة واعتراف. هكذا يرتبط تأسيس المعنى ببناء الوعي التاريخي ذاته ومرجعياته المتعددة، كما يرتبط بتعيين مصدر القيمة لأي نشاط وتحديد غايته. إنه يعني باختصار تحديد الاتجاه، أو امتلاك عناصر التوجه الإنساني في العالم والوجود. فعليه يتوقف تحديد سلم الأولويات، وبه يبرر بذل الجهد ويتعين مركز التوظيف الرئيسي لهذا الجهد. ومنه تنبع الثقة بالنفس،

وينمو التفاؤل، وتنشأ من ثم التوجهات الإيجابية التي لا وجود لها من دون الشعور بالرضى والفاعلية واحترام الذات، فردية كانت أم جماعية "[44]

الثورة في معنى من معانيها المتشعبة والكثيرة نوع من التصالح مع الذات، فإذا كانت الذات المجتمعية – قبل الثورة – في حالة خصام وتخاصم، من خلال السقوط في وهدة الاحباط واليأس،لفشل مشروعات التطور والتحضر أو لعدم التفكير والتوجه في هذا الطريق أصلا، وإنكفاء المجتمع على ذاته أو التقوقع داخل تلك الذات، لوجود المعوقات التي تمنع او تصد أو تسد المجالات أمام الذات، حتى وإن لم تقتحم تلك المجالات فمجرد إحساسها يعطيها نوعا من الحرية والباعث والحافز على المشاركة والإنجاز الحضاري، فإنها – الذات المجتمعية – بعد الثورة في حالة انتشاء ؛ لأنها تحررت من كل تلك القيود التي تكبلها، ومنحت الفرصة لأن تستدعي كل طاقاتها وإمكاناتها وقدرتها، وتفجر ما كان محبوس ومكظوم من أماني وأمليات ورغبات، وهذا في حد ذاته بعيد ويرد لها سوائها النفسي ورشدها الوجداني. كل هذا يجعل الذات معدة ومهيئة أن تدخل في اختبار وامتحان لتثبت وتبرهن على جديتها في امتلاك مصيرها والسيطرة والهمنة على ما يصوغ ويشكل ويكون وجودها في الحاضر لصالح الأجيال المتواجدة وفي المستقبل للأجيال التي ما تزال أجنة في رحم الزمن " **وليس هناك ما يقدم للشعوب مثل هذا الرضى عن الذات، والاقتناع بالجهد المبذول، والاستقرار المعنوي، والاطمئنان على المستقبل، ومن ثم الشعور بالجدوى والقيمة، سوى المشاركة الفعلية في انتاج حضارة عصرهم. وليس لإنتفاضاتهم وثوراتهم ضد القوى المحلية والدولية المسيطرة والمعوقة لهذا النشاط من هدف، حتى عندما لا ينجحون في التعبير عن ذلك بلغة عصرية، سوى**

[44] المصدر السابق – (١٤)

التصدي لعناصر الهرم الذاتي والرد على القلق النابع من حالة التهميش الحضاري، وحتى عندما تعلن المظاهر عكس ذلك، ويكون التركيز على حماية الهوية موضوعا شائعا؛ فإن غاية الشعوب ليست مواجهة والتصدي للتقدم في أي حال وإنما الاحتجاج على قصور هذا التقدم وبطئه وغياب الأفاق التي ينتظر منه أن يفتحها، وما يرتبط بهذا الانسداد أو الاختناق من قلق على المصير، وخوف من المستقبل المجهول "[45]

وإذا كانت مصر عظيمة وقادرة قبل الثورة، فإنها ازدادت عظمة وقدرة بعد الثورة، لأنها بمثابة البوابة التي ينطلق من خلالها عالمها العربي والإسلامي إلى اللحاق بمسيرة التقدم والتطور، أو الجسر الذي يعبر عليه هذا العالم لينفرج في مصاف العالم المتقدم ؛ لأن مصر لديها من الخبرة التاريخية والتجربة الإنسانية ما لم يتح لغيرها، وقد نجحت – فيما مضى – في ان تكون القاطرة العملاقة التي سحبت أو دفعت بأكثر بلدان وشعوب تلك المنطقة للتحرر واخذ مكانا في هذا العالم، فثقلها الحضاري وتراثها الثقافي والفكري يؤهلانها أن تكون وأن تكون هناك، وفي كل مكان، وأن تفيض ثورتها ثورات وانتفاضات لكل الشعوب والبلدان التي تتوق إلى الحرية والكرامة، **وتستشرف مكانة عزيزة كريمة " فلست مصر الدولة العربية الأكثر سكانا ورسوخا في التاريخ فحسب، ولكنها هي أيضا الدولة التي اصبحت منذ الحروب الصليبية مركز ثقل الثقافة العربية والإسلامية معا وملجأهما الأمنع وكانت تجربة التحديث العميقة التي شهدتها في القرن التاسع عشر قد غيرت – بالرغم من فشلها – معالم المجتمعالمصري فيها بالعمق، وزودتها بادوات فكرية وعملية لم تكن تتمتع بها أية دولة عربية أخرى في منتصف القرن العشرين "[46]**

---

[45] المصدر السابق (١٥)
[46] المصدر السابق (١٧٠)

المقاومة طبع.... طبع المقاومة.

كثيرا ما وصف المصريون بأنهم خانعون خاضعون مستسلمون، من كثرة ما تعرضوا له من محن وأزمات ومآزق، وما تعاور عليهم من غزاة ومحتلين ومستعمرين، كل هذا قتل في نفوسهم روح المقاومة، أو على الأقل جعل جذوة المقاومة لا تكاد تصدر نورا، ناهيك عن النار، وأن المصريين تعرضوا لحالة من التشذيب أو التقليم أو الاستئناس، فهم مستأنسون أليفون متسامحون، لا يردون طامعا في أرضهم ولا يغضبون على ناهب لخيراتهم، ولا ينفرون لرد غاز عن بلادهم، وأنهم قليلو الصبر عن الجهاد، ضيقو الصدر بأمور وفنون القتال، وأن أيديهم لا تستطيب حمل السلاح كما تسعد وتتوق إلى حمل الفأس، وإن قدر وثاروا، فهم لأخر من يثور، وثورتهم قصيرة الأمد، بطيئة الحركة، محدودة الأثر، وثورتهم لا تهدف إلى تحقيق أهداف أو الوصول إلى مكاسب بقدرما هي تفريغ غضبة وفيض مكبوت وانتفاضة محصور وارتعاشة مقهور وتململ مظلوم.

هذا الكلام وهذا الوصف وهذا الرصد فيه شئ من الحق، وأشياء كثيرة من الضلال والتضليل !

أما أنه حق، فهذا إذا نظرنا إلى المقاومة وفهمنا أنها الجهاد والحرب وحمل السلاح والقتال وإهراق الدماء وإزهاق الأرواح والحرق والتدمير الخ...

لا شك أن المصري يكره ويضيق بهذا النوع من المقاومة، وقد لا يلجأ إليها، وإن لجأ إليها فهو مضطر مدفوع مسوق إلى ذلك، وقد أدرك النظام ذلك، ففي الأمس القريب كان يدفع الفرد مبلغا من المال كي لا يجند في صفوف الجيش، وكان يفعل كل ما يسعفه به عقله كي يجمع هذا المال كي لا يجند،

والمعص كان يقوم بعمل عاهة مستديمة كي يعفى من التجنيد، وتعتبر فترة التجنيد فترة قهر واستعباد وسخرية وظلم وحرمان، وأيضا جالبة الخراب والبوار على صاحبها لأنه سيترك مجال عمله الذي يدر عليه مالا ليكفي نفسه ومن يعول، وإن قدر له أن يعود مرة أخرى – وفي أحيانا كثيرة لا يعود – فقد خسر مصدر رزقه، وليس امامه إلا أن يعمل أجيرا ويحمل الفاس بعد ان هجره وجفاه وتعود على حمل السلاح، لذلك كره أغلب المصريين التجنيد والجيش وما يرمز إليه من أمور الجهاد والكفاح والمقاومة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن المصري فطر على أنه يصلح.. يعمر.. يبني.. يمهد.. يزرع... يغرس.. يروي.. يحصد.. ينشر النماء والخير والحياة أينما وجد، إنه صانع حياة، مبدع ألوان وأنواع وأشكال من الحسن والجمال والبهاء، تعودت عيناه على رؤية الإخضرار والوان البهجة، ألفت أذناه على سماع خرير جداول المياة الصافية وهي تجري نشوى لتسقي الأرض،أنست رئتاه على إحتواء النسيم المضمخ برائحة عنفوان الحياة، مرنت يداه على مداعبة سنابل القمح وفض أغلفة كيزان الذرة، استنام جسده في القيلولة تحت ظلال أشجار الجميز الرزينة المعمرة، تعود لسانه على ثمار التوت المترعة بالحلاوة واللذة، وامتلأت لياليه الصافية المقمرة بالذكريات والأمال العذاب.

رجل هذه طبيعته وهذا حاله وشانه لا يحمل السلاح ليقتل – مختارا – حتى ولو كان على حق، ولماذا يحمل السلاح ليقاوم ؟ إن حياته كلها مقاومة، بل أن وجوده كله قد نذره للمقاومة، ولكن مقاومة من نوع أخر، مقاومة من نوع أنبل وأسمى مقاومة في الحقول والغيطان، كان الوادي عبارة عن مستنقعات وبرك آسنة ووحوش ضارية في البر والبحر ونهر يفيض في أوقات حتى يغرق كل من هو قريب منه وتنتشر الأمراض والأوبئة وتحصد الأرواح،

وفي أوقات يشح حتى تنتشر المجاعات في ربوع الـوادى " وهنـاك مـن السجلات – كتلك المحفوظة في النصوص والعلامات المسجلة على مقاييس النيل القديمة – ما يشير إلى أن فيضانا منخفضا علـى نحـو خطـر، وأن فيضانا بمقدار ٩ أمتار يعد فيضانا مرتفعا بما ينذر بوقوع أضرار للمحاصيل والقرى. ومن ثم، فإن منسوب الفيضان المثالي هو ذلك الذي يتراوح بـين ٧-٨ أمتار، بحيث يكون في مقدور هذه المياه غمر الحياض علـى طـول الوادي وصولا إلى حافة الصحراء، وتنجو في نفس الوقت البلدات والقرى، وتصبح السدود بمثابة طرق للانتقال والعبور، وتتمكن حواجز الميـاه فـي ذات الوقت من البقاء فوق منسوب مياه الفيضان.

لقد فهم المصريون القدماء فهما كاملا كيف أن حياتهم ورخـاءهم رهينـة الانتظام الدوري للفيضان، فالخوف من قدوم فيضان منخفض وما يتبعه من نقص في الطعام كفيل بأن يسبب قلقا وتوترا بين السكان مـع مطلـع كـل فيضان، ومن ثم لم ينظر المصريون القدماء إلى النهر وهباته بنـوع مـن الرضا الذاتي، حتى لو كان الفيضان السنوي وما يجلبه من طبقـة التربـة الخصبة الجديدة ومياه وفيرة للري كافيا لعملية الزراعة على طـول وادي النيل. "[47] ولكى يعيش كان عليه أن يقاوم، ليس هذا فحسب بل من مفـردات حياته اليومية تلك المقاومة على مختلف الأصعدة، يقاوم نهـر يقـاوم أرض يقاوم وحوش، يقاوم لصوص، يقاوم طبيعة ويقاوم حاكم وحكومة،لأن وجود نهر بهذا الطبع المتقلب من عام إلى آخر استدعى وجود حكومة حازمة قوية وفي أحيانا كثيرة تجاوزت حدود الحزم والقوة إلى البطش والظلـم، وكـان يقاوم حاكمه بالصبر والتحمل

---

[47] مصر والمصريون – دوجلاس بريور – و إيملي تيتر – ترجمة د. عاطف معتمد و د. محمد رزق – صفحة (٦٢- ٦٣)

" ولكن إذا كان انتظام فيضان النيل قد جعل من الممكن استمرار وجود حياة مستقرة في مصر، فقد كان يترتب على تذبذب كميته بين عام وآخر نتائج خطيرة. فإذا كان الفيضان شديد الارتفاع يطغى على القرى والمدن ويقهرها ويغرقها مما يجر الدمار إليها، فقد كان النقص في مياه الفيضان ينذر بحلول سنين عجاف، بل قد يفضي إلى حدوث مجاعة، ومن ثم كانت مهمة توزيع مياه الفيضان تمثل دائما مهمة على جانب كبير من الخطورة، كما أن القيام على ضبطه وحسن تنظيمه كان يستدعي وجود حكومة مركزية قوية تضطلع بأعباء هذه المهمة "[48] وإن كان صبره وتحمله للحاكم الظالم بلا جدود، لأن نوعية تلك الحكومة والحاكم المستبد أصبحت سمة تسم هذا المجتمع على مدى طويل وممتد من الزمان، وماذا يفعل أفراد هذا المجتمع إذا كان هذا حتما جغرافيا أن يكون الحاكم على هذا النمط، وإن كان هذا لا يبرر الظلم والاستبداد " ولعل الحكم الأوتوقراطي قد أدى وظيفته في البداية إلى حين حيث وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها، غير أنه لم يلبث أن تعدى نفسه إلى القهر السياسي والاجتماعي حيث أصبح موزع الماء هو مالك الماء والحاجز بين الرقاب هو المتحكم في الرقاب، وفي هذا التحول كانت ملكية الأرض بالتحديد هي الفيصل. فأدوات الانتاج الأساسية في العالم الفيضي الزراعي هي في التحليل الأخير الأرض والماء، فإذا كان الماء دم الحياة فإن الأرض جسمها، وإذا كانت الأرض خامة الزراعة فالماء وقودها. غير انه لما كان الماء في يد الحاكم بحكم البيئة الفيضية، أي كان ((مؤمما)) بشكل ما فقد كان العامل المتغير في المعادلة هو الأرض، فأما أن توزع بنوع من المساواة بين الجميع وأما أن تحتكرها قلة من الأقوياء، وما كان أيسر على من يتحكمون في الماء باسم المجموع، ومن ثم يملكون القوة المسبقة أن يتحكموا في الأرض أيضا

[48] الجغرافيا توجه التاريخ – جوردن إيست – ترجمة د جمال الدين الدناصوري – صفحة (١٤٧)

بالامتلاك والاحتكار – تذكر ((أعطني أرضك وجهدك أعطك أنا ميـاهي)) وبذلك كله تجمعت كل خيوط القوة في يد فرعون حتـى أفسدته السلطة وتحول الحاكم المطلق إلى طغيان وجبروت وكبت وأصبحت الفرعونية هي الإقطاعية والملكية (بفتح الميم) هي بالكسر "[49]

وللإنصاف فلم تكن مصر بؤرة أو مركز للظلـم والاسـتبداد علـى طـول تاريخها، وأن كانت كذلك فمحال أن تنبت الأرض مثـل تلـك الحـضارة العظيمة، وكان الظلم والاستبداد كفيلان أن يشلا يد المصري ويظلما عقلـه ويحجرا وجدانه أن يبدع ويصوغ ما شاء الله له ان يبدع ويـصوغ، ولكـن الظلم والاستبداد كانا فترات استثنائية،أو أن المصري لم يشأ أن يعوقه شيء وإن جل وعظم على أن يستمر في نـسج حـضارته خيطـا خيطـا بأقـل الإمكانات، لا لشيء غلا لأن في هذا كل سعادته وسـروره وسـر وجـوده وبرهان ودليل وجوده، " إن مصر ليست ((ارض الطغيان)) كما يتـوهم البعض، وإن كان هذا قد طغى على اجزاء من تاريخها بعـض الوقـت، لا وليست ((أرض النفاق)) هي، وإن كانت حدثت بعض انحرافات اجتماعية عابرة. وليست وداعة الفلاح وصبره ضـعة واسـتكانة، كمـا أن نظامـه وطاعته ليست خوفا وطمعا وإنما هي خامة الحضارة والتقدم نشاها النيـل ولكن شوهها الإقطاع وقد بقى النيل وزال الإقطاع " [50]

وفي أحيانا يقاوم محتلا وغازيا، نسبة ضئيلة جدا من تلك المقاومة التي يضطر فيها إلى الاستعانة بسلاح، أصبحت المقاومـة سـمة مـن سـمات شخصيته، وطبع من طباعه،ومسلكا من تصرفاته.وإن لم تكن الظروف تمكنه

---

[49] شخصية مصر – د. جمال حمدان – صفحة (٤٧)
[50] المصدر السابق (٦٠)

أو تتيح له أن يعبر عن صور المقاومة وتنعكس في أفعاله وأقواله، فقد كانت أروع وأجل صور المقاومة تتم وتحدث داخل ذاته، وهو أن تظل تلك الذات متماسكة قوية صلبة لا تنثني ولا تتكسر، وإن كان البعض يعدها مقاومة سلبية، ولكن هذا النوع من المقاومة أوجد لديه – مع مرور الزمن وتعرضه لكثير من المحن والشدائد والأزمات – ما يسمى بالجهاز المناعي الحصين، لذلك فهو لا يبالي ولا يكترث كثيرا بما يحدث له ويحدث حوله، حتى وإن تعرض لظلم واعتداء فهو على يقين إن هذا الاعتداء والظلم لن ينال من شموخه وعزته وكبريائه، لذلك كان صبره صبر القوى، وتحمله تحمل الحليم، كالجمال التي تظنها من طول تحملها وصبرها ووداعتها وحلمها، أنها ذليلة ومنكسرة وخاضعة،فهي قد تتلقى الكثير من صور الإهانة، وتتعرض للعديد من أساليب الظلم والقهر والحرمان، وقد يقودها طفل أو أبله أو معتوه أو غبي أو جاهل أو أحمق أو مجنون،وهي طيعة سلسلة منقادة له، ولكن انظر إلى تلك الجمال إذا غضبت ونفد صبرها وتبدلت وداعتها وانتهى حلمها، لن يقف شيء أمامها وستنتقم ممن أغضبها شر انتقام، ذلك هو المصري، إنه في شغل بأمور – يراها هو – أهم وأخطر وأبقى وأفيد، من أن يقاوم حاكما ظالما ويمنعه عن غيه، أو يقاتل دون حق من حقوقه كي يسترده، أو يجاهد في سبيل الحصول على مجد يراه لا معنى ولا مبرر له، إنه مشغول من قمة رأسه إلى أخمص قدميه لصياغة حضارة فريدة لا مثيل ولا نظير لها، أوحاها له النيل، وحفظتها تلك الأرض التي علمته أبجديات الابتكار والإبداع " **وحالما أصبحت الزراعة مجرد وسيلة للحصول على قدر من الطعام جلبت معها ضروبا أخرى من التقدم في أنماط الحياة عند الإنسان، فالمسكن المستقر بالقرب من قطعة أرض مزروعة كان ضروريا وهذا بدوره يسمح بإنشاء مساكن أخرى وحشد الأدوات وغيرها من المتاع، وامكن جلب مزيد من الطعام فاقترن ذلك باتساع الوقت لتحسين الأدوات**

الزراعية وأسلحة الصيد، هذا بالإضافة إلى أن التبصر والعمل المستمر كانا ضروريين للعمليات المتتابعة، من تهيير الأرض والزرع والمحافظة على خلو الأرض من الحشائش سريعة النمو وحماية الغلات من الطيور والحيوانات المغيرة ثم الحصاد. والغلات التي تظهر في مواسم محددة يجب أن تخزن وأن تجهز لها الأوعية ولابد أن تكون هذه الضرورة قد حفزت إلى الفنون كتضفير السلال ووصنع الخزف ولهذه الوسيلة شجعت الزراعة كلا من التقدم العقلي والمادي كا نتج عن تقدمهما ضروب أخرى كثيرة من التقدم الثقافي بعيد المدى "[51]

وكثرة وتعدد وتنوع المغتصبين والمعتدين عليه وعلى أرضه وسمته بسمتين، ظاهرة خادعة وباطنه أصيلة،أما الظاهرة فهي الاستكانة والتسليم والاستسلام وقدرة هائلة لا مثيل لها من الصبر والتجلد والتحمل لألوان عديدة من القسوة والذل والاستبداد والظلم،، وباطنه اصيلة وهي صفات الجندية ن من قوة الإرادة والتصميموالصبر والنظام وطاعة الأمر طاعة تامة، وعدم الطمع والسيطرة على النفس وكراهية الخيانة والوفاء وعدم الغدر، وقد اكتسب السمة الظاهرة، لأن كل الغزاة والمحتلين كانوا أقوى من المصريين، أو تعرض المصريون للغزو والاحتلال وهم في حالة ضعف وتفكك وانحلال، وكان الغزاة والمحتلون – بطبيعة الأمر – في غاية القسوة والشدة معهم، حينئذ كان لا يجد المصري إلا الاستسلام والضعف والاستكانة على الأقل ليبقي على حياته، وتلك السمة كونت طبقة سميكة وصلبة إلى حد ما، لكثرة ما تعرضت له مصر من غزوات، حتى إنها تمنع غير المدقق والمتفحص أن يلحظ ما تحتها من سمة مختلفة ومتناقضة مع السمة الأولى.

ولا تظهر السمة الخفية الأصيلة إلا حينما تستنفر استنفارا صادقا،من المصري بصدق للدعوة الموجهة إليه،ويؤمن أيضا بالقائد والزعيم، حينئذ

---

[51] عرض جغرافي للعالم من الوجهة البشرية – تأليف: ج.ف. أنستد. ترجمة رمزي يسي (٢٢٩- ٢٣٠)

لاتسل عن هذا الشلال الهادر، والمارد الجبار الذي خرج من قمقمه لتحقيق المعجزات

ولكن إذا كانت المقاومة عند المصري طبع ثابت وراسخ في كيانة بالمفهوم الذي وضحناه سابقا، وكانت تصرفاته وأفعاله تبرهن وتدلل وتثبت أن طبعه فطر على المقاومة، هل تغير المصريون عن ذي قبل ؟

هل يمثل المصريون – الآن – وحدة ولحدة، أو يكونون نسيج واحد تتداخل وتتماسك لحمته وسداه ؟

وإذا كان ذلك كذلك، فما مدى متانة تلك الوحدة، وقوة هذا النسيج ؟

هل هوقادر على تحمل التغييرات والتبدلات والتحولات التي تطرأ وتعاوره على مر الزمان ؟

هل هو قادر على تحمل الضربات والصدمات والأزمات والمآزق التي ترميه به الأقدار ؟

أم أن تلك التغييرات والتبدلات والتحولات والصدمات كفيلة أن تنال منه، وتحيل النسيج المتداخل المتماسك إلى أنكاث ؟

الماضي أو التاريخ قد يكون ضوءا كاشفا ليس على الحاضر فحسب، بل قد يمتد إلى المستقبل، هل ضعفت الحضارة المصرية وتفككت وتحللت وسقطت وتبددت من قبل،وفشل المصريون وذهبت ريحهم، من قبل ليكون احتمال هذا قائما وممكنا في الحاضر أو المستقبل؟

التاريخ يقول إن شيئا من هذا لم يحدث، وما كان يمكن أن يحدث، لم يحدث تفكك أو تحلل وبالتالي لم يحدث موت، وإنما حدث تحول وتغيير وتبدل – وهذا شيء حتمي وقدري – وإن كان إلى الأسوأ، أو لم يكن إلى الأمثل، إلا أنه أفضل من الموت " ويبدو أن القول ب ((موت الحضارة المصرية القديمة))لا يتناسب وحجم المظاهر العديدة للثقافة المصرية التي استمرت

إلى يومنا هذا. ومن ثم، فالأرجح القول بأن ما حدث كان تحــولا لا موتــا، لكن كيف كان هذا التحول وما العوامل التي أدت إليه ؟ هل كان ثمة ســبب واحد كغزو خارجي أو قيادة ضعيفة ؟ إن مراجعة ثلاثــة آلاف ســنة مــن تاريخ مصر توحي بأنه من التبسيط المخل القول إن هناك سببا واحدا، بــل جاء التعديل الذي وقع للحضارة الفرعونية نتيجة عمليــة تطوريــة بلغــت ذروتها.

وليس بوسع المرء أن ينكر دور التغيرات التــي وقعــت فــي النظــامين الاقتصادي والسياسي في مصر، وإن لم تكن بدرجة كافية لتجلب انهيــارا، فقد فرض الرومان ضرائب مجحفة على مصر، لدرجة أن المزارعين فــي مصر السفلى هجروا حقولهم الزراعية إلى مصر العليا أو النوبة فرارا من ديونهم الضريبية للدولة. اما الضرر الأكبر الذي ألم بالعافية التي تمتعت بها الدولة المصرية طويلا، فتتمثل فيما قام به الرومان بشكل متزايد من تحويل الموارد المالية التي جمعت من الضرائب في مصر إلــى خارجهــا لــدعم التوسع الإمبريالي الروماني، بدلا من إعادة توزيع هذه الموارد على السكان المصريين على نحو ما كان يحدث في فترات سابقة، ومن الناحية السياسية يمكن القول إن مصر فقدت حقا سيادتها في فترات مختلفة لكل من الفرس والرومان والبزنطيين والعرب، وبدرجة أقل البطالمة والإغريق المقدونيين، وحكمت مصر من حكام من خارج وادي النيل وصــارت بمكانــة الدولــة التابعة، غير أن هذه النظم الحاكمة اشتركت في سمات أساسية، فكلها كانت نظما استبدادية، وقام كل منها على أساس ديني – سواء قداسة الإمبراطور الروماني أو البيزنطي، أو خليفة المسلمين – وهذا سهل عملية اســتيعاب أغلبية الشعب المصري لكافة هذه التغيرات السياسية، إذ كــان كــل نظــام

استبدادي ديني يحل محل الآخر ببساطة، بينما استمرت الحياة اليومية على نحو ما كانت عليه قبل قيام هذا النظام أو ذاك "[52]

ربما يتطرق الخوف والقلق إلى قلوب البعض لما يحدث في مصر الآن،بعد ثورة يناير، وهذا الشعور في حد ذاته يدل على الحب والحرص على مصر، ولكن هل هذا الشعور يستند على أسس موضوعية، ووقـائع حقيقيـة ؟ إن مصر تمر بمرحلة انتقالية، بمرحلة تحول وتغير، ودائمـا تلـك المراحـل محفوفة بالمخاطر والمخاوف، وهذا شيء طبيعي ومنطقي،ولكن الذي يطمئن أن المخاطر كانت – على طول التاريخ المصري – تستفز وتـستنفر أجمـل وأنبل ما في الإنسان المصري، وهو طبع المقاومة ومقاومة الطبع، والمهم أنها تشحذ عبقرية هذا الشعب، وتجعله متألقا متوهجا كما كان دائما.

[52] مصر والمصريون –دوجلاس بريور - و إيملي تيتر – ترجمة د. عاطف معتمد – و محمد رزق – صفحة (٢٨٩)

كلمات من وحي لثوة

١- على ما يبدوا أن الثورة علمت الثوار كيف يصلون إلى القمر ويتجولون بين النجوم، ولكنها نسيت أن تعلمهم كيف يعودون إلى الأرض.

** ** * *

٢- من الحمق والسخف أن تطالب الثائر أن يتوقف ويرجع، فهو لم يكن في نزهة أو عمل كلف به، يعود إذا فرغ منه، إنه قرار اتخذه بملء حريته وكامل إرادته، وربما يكون القرار الأول والأخير الذي قرره في حياته.

* * ** * *

٣ – ضاق ميدان التحرير بالمصريين، ولكنه لم يضق بمصر.

* * ** * *

٤ – هل يأتي وقت نجد نساء مصر قد اجتمعن – وحدهن – في ميدان التحرير.

* * * * * *

٥ – لا نشك في نوايا الذين ذهبوا إلى ميدان التحرير، ولكن نشك في نوايا الذين اصطحبوا زوجاتهم إلى ميدان التحرير.

* * ** * *

٤- كل ميادين مصر والعالم لا تحب ميدان التحرير.

* * ** * *

٥ – ألم تلاحظ أن المصريين قاموا بثورة.....

٦ – لوحدث الثورة في ميدان رمسيس لنام الثوار في عربات الدرجة الأولى.

* * * * * * *

٧ – كل السبل والطرق – والقرارات – تؤدي إلى ميدان التحرير.

* * * * * * *

٨ – لا أظن أن الثورة القادمة ستحدث في ميدان التحرير... ولا في أي مكان في مصر.

* * * * * * *

٩ – الثوار كأصحاب الفرح، يهبون كل شئ في سخاء وأريحية، ثم يعودون إلى بيوتهم خاوية جيوبهم.

* * * * * * *

١٠ – لقد عثرت الثورة على المصريين، وهم – للآن – يبحثون عنها.

* * * * * * *

١١– لم يتعرض محل للحلويات في طول مصر وعرضها للسرقة أو الكسر أو الحرق.

البركة في حلاوة الثورة.

* * * * * * *

١٢ – هل يعاني جمال مبارك الآن من تأنيب الضمير ؟

هو أخد حاجة !

** ** ** **

١٣ – الثائر كالعاشق، يضحي بكل شئ من أجل معشوقته، وفي لحظة يكتشف أنها تزوجت غيره.

١٤ – ما الذي جرأ الشعوب العربية على حكامها ؟

كثرة طلبات الزوجات.

** ** ** * *

١٥ ماذا يفعل الحكام العرب لو استيقظوا فلم يجدوا شعوبهم ؟

– يذهبون للاستحمام.

وماذا تفعل الشعوب العربية لو استيقظت فلم تجد حكامها ؟

– يذهبون إلى أعمالهم !

* * * * * *.

١٦ – ما الحسنة الوحيدة لقانون الخلع ؟

أنه نبه الشعوب إلى حقها.

** ** ** **

١٧ – إذا كانت تلك هي الثورة... فلماذا لا نفعلها لو مرة واحدة في حياتنا ؟ !

** ** ** **

١٨ – الوطن يستيقظ على صرخات الثوار المدوية، ويغفو على أحاديث الساسة المملة.

* * * * **

١٩ – مصر لم تتوقف طوال تاريخها على الضحك مما يحدث لها من مآسي، ولكنها توقفت لحظات وبكت، ثم واصلت الضحك.

* * * * **

٢٠ – المصريون... جمعتهم الثورة، ثم فرقتهم الثروة.

* * * * * *

٢١ – لقد قامت مصر بالثورة، باقي أن يقوم المصريون بثورة.

٢٢– الثوار دخلوا ميدان التحرير مرة واحدة، ولم يخرجوا منه.

وغيرهم خرجوا من ميدان التحرير الآف المرات ولم يدخلوه مرة واحدة !

** ** **

٢٣- من قال إن الكهول وكبار السن قد اشتركوا في الثورة ؟

كيف ؟ وقد ردت الثورة لهم شبابهم.

** ** **

٢٤- من المؤسف أن الثورة حلم جميل.

* * * * * *

٢٥ – متى تطلب الشعوب من حاكمها أن يرحل ؟

حينما لا يؤدي واجباته الزوجية !

** ** **

٢٦ – متى ينام الحكام العرب ؟

حينما تستيقظ شعوبهم.

** ** **

٢٧ – متى تثور الشعوب ضد حاكميها ؟

حينما تكتشف أنه يحب غيرها.

** ** **

٢٨ – لم كانت الشعوب العربية تعامل حكامها كأبنائهم ؟

لأنهم يعطونهم مصروفهم اليومي.

** ** **

٢٩ – عما يبحث الحكام العرب الآن ؟

يبحثون عن شعوب مؤدبة تسمع الكلام !

** ** **

٣٠ – ماذا كان الحكام العرب يقرأون في أوقات فراغهم ؟

أنت متأكد أنهم يعرفون القراءة !

** ** **

٣١ – لوقامت الثورة في شرم الشيخ، فأين كان سيذهب الرئيس ؟
اسألوه.

** ** **

٣٢– التليفزيون المصري كان يضع كاميراته في مغارة علي بابا ليصور ما يدور في ميدان التحرير !

** ** **

٣٣– التليفزيون المصري كان على قناعة ويقين أنه يبث برامجه لإناس صم وبكم وعمي والأكثر أنهم من سكان القمر !

** ** **

٣٤– لم يعد هناك إلا احتمالان لا ثالث لهما، إما الذين قاموا بالثورة في ميدان التحرير مصريون.... أو أنهم... مصريون !

** ** **

٣٥– قد يكون بريئا من كل ما نسب إليه، ولكنه ليس بريئا مما لم ينسب إليه.

** ** **

٣٦ – من أعظم وأبقى وأخلد إنجازاته، دفعه للشعب أن يقوم بثورة.

** ** **

٣٧– مصر كالبقرة الحلوب، باعوا البقرة، وذهبوا يبحثون عن الحليب !

** ** **

٣٨– المصريون كانوا قبل الثورة كاليتامى، لا صوت لا طلبات لا جمعات، وحينما قامت الثورة، أصبحوا كأبناء رجل عاد من دول الخليج، ارتفع

صوتهم، كثرت طلباتهم، تعددت جمعاتهم... الخوف كل الخوف، أن يهرب هذا الرجل، أو أن يبددوا ما عاد به.

** ** **

٣٩ – الثورة في تونس بنت الثورة المصرية، كل ما حدث أن البنت ولدت قبل أمها، أو أن

الأم ولدت بعد بنتها !

** ** **

٤٠ – الشعوب العربية كالأطفال أصابهم الجنون حينما سمعوا عن لعبة جديدة حرموا منها طويلا اسمها الثورة.

** ** **

٤١– متى ستتوقف الشعوب العربية عن الثورة ؟!!

** ** **

٤٤– الشعوب تبحث عن الحاكم العادل، والحاكم العادل يبحث عن الشعوب... ولا أظن أن الاثنين سيتقابلان في يوم ما.

** ** **

٤٥– متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم عرايا ؟!

** ** **

٤٦ – كلهم بدأوا حكام صالحون، ثم تحولوا إلى أباء فاشلين !

** ** **

٤٧– الفرق بين الزوج المستبد والحاكم المستبد، أن الأول يضرب زوجته، والثاني يدلل زوجته.

** ** **

٤٨– إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يتغذى جيدا !

٤٩- مازالت مصر – بعد الثورة – تعيش في ظلال الحكم السابق، وتأكل من ثماره المرة.

** ** **

٥٠- حتى هذه اللحظة كسبت مصر بكل جدارة ثورة، وخسرت في المقابل دولة.

** ** **

٥١- الطريق لا يفرش أمام الثورات بالورد والزهور، ولكن بالشوك والدماء.

** ** **

٥٢- إما أن تقبل الوردة بأشواكها، أو تريح يدك من الوخز، كذلك الثورة.

** ** **

٥٣- لابد أن يكون عمر الثورات قصيرا جدا ؛ لأنها ولدت كبيرة جدا.

** ** **

٥٤- حاولنا أن نلون الثورة بألوان بهيجة، ولكنها أبت....

** ** **

٥٥- الأنبياء أكبر وأطهر وأنقى ثوار في التاريخ، ولكن البشرية تأبى إلا أن يكونوا أنبياء !

** ** **

٥٦- الخوف أن تتفرق دماء الثورة بين المصريين.

** ** **

٥٧- ما العجب أن تقتل الإنسانية ثوارها، ألم تقتل من قبل أنبياءها.

** ** **

٥٨ – لا يوجد ثورة بيضاء، ومن يقل بذلك فهو مصاب بعمى ألوان.

** ** **

٥٩ – أنت المسئول الوحيد إذا أزحت الغطاء عن نفوس تغلي.

** ** **

٦٠ – مخطئ من يظن أن الثورة كعكة طازجة، ولكنها تاج... من الشوك.

** ** **

٦١– الشئ الوحيد الذي يبدأ جد وينقلب إلى جد... الثورة.

** ** **

٦٢– لقد عملوها الشباب، ووقع فيها الشباب !

** ** **

٦٣– هناك شعوب كالنار، إذا ارتوت بماء الحرية ماتت.

** ** **

٦٤– الثورة عمل قام به البعض نيابة عن الآخرين بدون الحصول منهم على توكيل.

** ** **

٦٥– هل هذه هي الثورة؟

سؤال لا أظن ستجد له إجابة.

** ** **

٦٦– بحثت طويلا في المعاجم العربية القديمة عن معنى الثورة، فلم أجد الكلمة فما بالك بالمعنى !!

** ** **

٦٧– متى سيغلق باب الثورة ؟!

٦٨– الدور الوحيد الذي تمثله الشعوب بدون عمل بروفات... الثورة.

** ** **

٦٩– – تعال لنقم بثورة غدا.

– لا.

– لم ؟

– زوجتي ستنظف البيت غدا.

** ** **

٧٠– ما رأيك في ميدان التحرير ؟

– واسع.

** ** **

٧١– ما رأيك في الثورة ؟

– حلوة.

** ** **

٧٢– ما رأيك في المصريين ؟

– عادي.

** ** **

٧٣– ما رأيك في الثوار ؟

ظراف.

** ** **

٧٤– ما رأيك في مصر بعد الثورة ؟

– ماشيه.

** ** **

٧٥– ما رأيك في الأحوال العامة ؟

– مش بطالة.

** ** **

٧٦– ما رأيك في ردود الأفعال العالمية على الثورة المصرية ؟

– متوقعة.

** ** **

٧٧- ما رأيك في أسئلتي ؟

- مملة.

وما رأيك في إجابتك عليها ؟

- أكثر مللا.

** ** **

٧٨- الثورة كالكلمة المبهمة، في حاجة إلى من يزيل إبهامها، ومع ذلك تزداد غموضا.

** ** **

٧٩ – كل يوم تثبت الأحداث أن مصر في حاجة إلى أكثر من ثورة.

** ** **

٨٠ – من يحكم بعد الثورة ؟

أي فرد إلا الثوار.

** ** **

٨١- ماذا لو لم تقم الثورة ؟

لقامت ثورة.

٨٢- لقد رغب المصريون في مصر غير التي يعهدونها، ولكن رغبت مصر في المصريين التي تعهدهم.

** ** **

٨٣- ما أجمل شئ بعد الثورة ؟

الأيس كريم.

** ** **

٨٤- شخص أصيب بجلطة دماغية، وإنسداد في الشرايين، وبسكتة قلبية.... حال مصر قبل الثورة.

** ** **

٨٥- في الثورة تزيل الشعوب كل المساحيق وتترك كل أساليب التمنق والتزلف والدبلوماسية والمجاملة.

في الثورة تخلع الشعوب كل الأقنعة والحجب.

في الثورة تجد الشعوب نفسها- ولأول مرة – في مواجهة صريحة جريئة مباشرة مع الذات.

في الثورة تكون الشعوب كالطفل الذي تركوا له الحرية أن يبكي ويصرخ ويضحك ويقفز ويكسر ويحطم، ثم يتولى المسئولون عنه دفع فاتورة كل ما فعل من حسابه الخاص.

** ** **

٨٦- ماذا لو قام المصريون كل عشر سنوات بثورة ؟

بمناسبة إيه !

** ** **

٨٧- أنا شايف أن أحوال الناس لم تتغير عنها بعد الثورة ؟

كل ما في الأمر أن الثورة لم تصل لهم بعد !

** ** **

٨٨- أنا معك أن الشعب المصري شعب عظيم، ولكن – أحيانا- أفعاله لا تعجبني.

هو وصل إلى العظمة إلا بأفعاله.

** ** **

٨٩- لقد حمت وحفظت وصانت ورعت ثورة ٢٥يناير الجيش المصري !

** ** **

٩٠ – الغريب العجيب والنادر أن تترك مصر لتقوم بثورة، ويسمح لها بذلك.

والأغرب والأعجب والأندر أن يسمح لتلك الثورة بأن تنجح.

** ** **

٩١- لقد اكتشفت أمريكا في إحدى الرحلات التي قام بها كريستوفر كولمبس، ونحن اكتشفنا مصر في ٢٥ يناير.

** ** **

٩٢- كل مصري من الممكن أن يكون لغم ديناميت، ليست الخطورة هنا، ولكنَ الخطورة في اليد التي تضغط عليه.

** ** **

٩٣- ما المكان المفضل الذي كنت تلجأ إليه وقت أحداث ٢٥ يناير ؟

- الحمام.

** ** **

٩٤- أتظن أن الكتاب والمثقفين اشتركوا في الثورة ؟

إن لم يكن وراءهم ما يشغلهم.

٩٥ - أنا هو..... فوجئنا بمصر تقولها في ٢٥ يناير !

** ** **

٩٦- هل من السهل لفرد أن يحكم مصر ؟

- الأسهل أن تحكمه مصر.

** ** **

٩٧ - يجرى له امتحان في منهج لم يقرر عليه ولم يدرسه، ويطلب منه النجاح بامتياز.

الجيش المصري أثناء الفترة الانتقالية !

** ** **

٩٨- نعم، كان النظام الحاكم يحصي على المصريين كل شاردة وواردة، وحماتي... الفرق أن النظام الحاكم خرج من مصر بثورة، وأنا أيضا قد أخرج بثورة.. ولكن من بيتي.

** ** **

٩٩- تفتكر لو جحا موجود كان سيشترك في الثورة ؟

- بدون تفكير، ولكنه سيسأل من بجواره: هو إحنا رايحين فين ؟

** ** **

١٠٠- بعد عقد بعض الزيجات في ميدان التحرير، بدأت الزوجات يتابعن في تحفز واستنفار ما يدور في ميدان التحرير.

** ** **

١٠١- الزوجات أصبحن أكثر لطفا وهدوءا وتسامحا مع أزواجهن بعد ثورة يناير !

** ** **

١٠٢- الباعة الجائلين الذين دخلوا ميدان التحرير كانوا أكثر صدقا وجرأة من بعض السياسيين.

** ** **

١٠٣- البعض نصحني ألا أكتب عن الثورة إلا بعد أن تنتهي الثورة.

على ما يبدو أني لن أكتب مطلقا.

** ** **

١٠٤- قد تأتي ثورة لشعب غير مستعد لها، وقد لا تأتي ثورة لشعب مستعد لها، والثورات حظوظ.

** ** **

١٠٥- الثورة تقلب حال العالم رأسا على عقب، والمطلوب شيئا غير الثورة يعدل العالم وان تسمح الثورة بذلك !

* * ****

١٠٦- ((خلاص.. خلاص.. إحنا مش قمنا بثورة ؟ وعملنا اللي نفسنا فيه، هيا نرجع لشغلنا ونشوف حالنا)) كلمة يود الكثيرون قولهـا، ولكـن لا يقولونها !

******

١٠٧- قبل الثورة كانت تحدث أمور تجل عن فهم الشعب المصري وتحيره، بعد الثورة للأسف لم يتغير هذا الوضع بل زاد !

******

١٠٨- الشعب المصري – بعد الثورة – مثل شخص اشترى أشـياء، ولـم يفحصها بدقة إلا بعد رجوعه إلى بيته.

******

١٠٩- أنا معك أن الثورة شيء جميل وعظيم، وأن مصر كانت في حاجـة إلى تلك الثورة ... لكن....

** ** **

١١٠- يمين ولا يسار ؟ إلى الأمام أم إلى الخلف ؟ هذا قبل ذاك أم ذاك قبل هذا ؟ ويا ترى أيهم أنفع وأفيد ؟ ونختار هؤلاء أم هؤلاء ؟ ونسمع ونـصدق كلام من ؟ وأيهم الأفضل ؟ أمس أم اليوم أم غدا ؟ و...؟ و......؟ و.....؟ و.....؟ أظن أن مصر في حاجة إلى طبيب ماهر ليريحهـا مـن وجـع الرأس!

** ** **

١١١- إحنا مش كنا مستريحين قبل الثورة !

نعم، ولكن راحة كالموت.

** ** **

١١٢- الدليل على عظمة وقوة وقدرة وجبروت وعبقرية مصر، أن بعد كل ما حدث بها ولها، ادخرت بقية من قوة وعزم لتقوم بثورة !

الثورة الحقة... الثورة الزائفة !

متى تكون الثورة حقيقية، ومتى تكون زائفة ؟

أما أن تكون الثورة حقيقية فهذا شئ أساسي وضروري، وإلا لما حدثت، ولما أطلقنا عليها ثورة، فحقيقة الشئ وجوهرة هي التي تظهره إلى الوجود، وتتبدى حقيقته ويتكشف جوهره مع مرور الوقت، نعم أن حقيقة الشئ لا تظهر بالتدريج، ولكن إدراكنا للحقائق ووعينا لها يتم بالتدريج، ويمر بعدة مراحل، ولكن حقائق الأشياء موجودة ومائلة لا أحد ينكرها، وظاهرة لا أحد ينفيها.

إذن حقيقة الشئ إما أن تكون موجودة، أو ليست موجودة، فإذا كانت موجودة فالشئ موجود، ولماذا نفصل بين حقيقة الشئ ووجوده، فهما شئ واحد، على هذا فإذا وجد شئ فهو حقيقة لا شك في هذا، لأن وجوده دليل وإمارة من إمارات حقيقته.

أما أن تكون الثورة زائفة، فهذه جملة غير حقيقية، والطرف الثاني ((زائفة)) ينقض وينفي الطرف الأول ((الثورة))، فلا يوجد ما يسمى بالثورة الزائفة، فإما ثورة أو لا ثورة، إما أن يوجد الشئ أو لا يوجد، كذلك لا يوجد الشئ في صورة غير صورته أو في شكل غير شكله، فهذا وهم، وهذا تضليل، ونحن أول من تكون أحد أسباب هذا الوهم والتضليل، فلا يمكن قبول – مثلا – قول البعض على جنيه مشكوك في أمره أنه جنيه مزيف، فلا يوجد ما يسمى ((جنيه مزيف)) فإذا كان مزيفا فهو ليس بجنيه، وإذا كان جنيها فهو ليس بمزيف، هناك جنيه، وهناك قطعة من الورق رسم أو نقش عليها رسم

أو نقش الجنيه، لذلك فهي لم تزد عن كونها قطعة من الورق، كذلك لا يوجد ما يسمى بالذهب المزيف، إما قطعة من الذهب أو قطعة من المعدن لونها أصفر.

وبالنسبة لموضوعنا، لما أن تكون ثورة أو لا ثورة ، ودليل الاثبات هو في نفس الوقت دليل نفي، وهو ليس دليل واحد بل دلائل، فإذا أثبت - مثلا - وجود فلان في القاهرة، فقد نفيت وجوده في جميع عواصم العالم، فحديثنا عن كون الثورة ثورة، هو في نفس الوقت نفهم منه عن كون حدث ما ليس بثورة.

الثورة قام بها بشر، أو الذين دفعتهم الثورة وساقتهم أمامها بشر؛ وهم لا يقومون بها أو لا أو لا يسمحون أو لا ينساقون أمامها إلا إذا ملأت قلوبهم وعقولهم، وفاضت لتصبح شيئا حقيقيا، كالسيارة لا تسير إلا إذا كانت مهيئة لذلك، بأن كل ترس وصامولة ومسمار يقوم بما هو صنع ووجد من أجله، وإذا تم ذلك على أكمل وجه تسير السيارة سيرا حسنا، وإلا لن تتحرك السيارة وإن تحركت فالحركة - في تلك اللحظة - تترجم عن وجود خلل أو عطل في مكان ما.

فالناس لا يستيقظون من النوم على صوت داع للثورة فيثورون.

والناس لا يذهبون إلى أعمالهم في الصباح فيسمعون هتاف الثورة فيغيرون طريقهم مساهمين في الثورة.

والناس لا يقبعون في بيوتهم أو يجلسون في نواديهم ومقاهيهم فإذا من يشير عليهم بالإشتراك في الثورة فيستجيبون له.

والناس لا يعيشون في أمن وهدوء فيهبط عليهم هاجس الثورة فيلبون هذا الهاجس.

فعل وحدث الثورة أعقد وأخطر من ذلك بكثير، فقد يعيش الناس آلاف السنين ومع ذلك لا يثورون، ولكن مع ذلك لابد أن يأتي وقت ويثورون فيه لأن

الثورة من طبائع البشر، وهذه الطبيعة تتوارى وتضعف كلما كانوا متفرقين متشتتين، وتظهر وتقوى كلما تجمعوا واتحدوا، ونقصد بالثورة هنا مفهومها العام، لأن كل تفكير أصيل ثورة، كل ابتكار واختراع ثورة، كل فعل وسلوك صالح ثورة، كل كلمة طيبة بناءة ثورة، قصيدة الشعر ثورة، المعزوفة الموسيقية ثورة، إشراقة الشمس ثورة، كل ما من شأنه أن يبدد الظلم والظلام وأن يقف أمام الفساد والإفساد، وأن يبني ويعمر ويصلح ثورة، الثورة متغلغلة في كل جزء من حياتنا، منذ أن نولد إلى أن نموت، كل ما أنجزته الإنسانية من تطور وتقدم وتحضر ورقي وعلم وتكنولوجيا كل هذا نتائج الثورة.

كل هذا لم يكن لولا أن الإنسان ثائر بطبعه، وكما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** "

فاليد التي تغير ثائرة، واللسان الذي يغير ثائر، والقلب الذي يغير ثائر، فماذا بقى من الإنسان بعد ذلك ؟

يد.

لسان.

قلب.

كلها أدوات ووسائل أصيلة للثورة، ولكن قد لا تستطيع اليد أن تثور لأنها قطعت، وقد لا يستطيع اللسان أن يثور لأن الفم كمم، ولكن القلب يثور ولا أحد يستطيع أن يمنعه من الثورة حتى صاحبه، ولكنها في طوع وإرادة الله، وقد فطرها على الخير والعدل والحرية.

القلب او الطبع أو الجوهر الإنساني لابد أن يظل نقيا، لا يبدل ولا يغير ولا يطمس، لابد أن يكون في حالة ثورة دائمة ومستمرة، لا جدوى من التغيير باليد، ولا جدوى من التغيير باللسان، إن لم يكن وراء هذين قلب مؤمن إيمانا

حقيقيا بأن الثورة الحقة هي تخليص الإنسان من الجهل والتخلف والظلم والقهر، وكل ما من شأنه أن يهبط بالإنسان من المنزلة والمكانة التي خلقه الله – عز وجل – عليها. ولقد قال الله في حق الإنسان ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ . . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ :

والثورة – كما قلنا – عمل أو فعل أو حدث قام به بشر، وما يقوم به البشر يكون الخير ملتبسا بالشر، ولا يجوز أن نصف ما يقوم به البشر بالخير الصرف، ولا بالشر الخالص، ولا بالحسن المطلق ولا بالسوء المتناهي، لذا فلا يجب أن نسعد بالثورة كل السعادة ولا نحزن بالثورة كل الحزن، فالثورة تخرج من البشر أجمل ما فيهم، وكذلك تكشف عن أقبح ما فيهم، لذلك فالثورة أحسن علاج وأفضل دواء للذين قاموا بها ؛ لأن إذا لخرج البشر أجمل ما فيهم فهم يعبرون عن ذواتهم الشريفة والنبيلة، ويعلنون عن آمالهم وأحلامهم واستشرافهم لحياة كريمة، وإذا أخرج البشر أقبح ما فيهم فهم يتطهرون من مشاعر مدمرة، يتخلصون من رغبات ونزعات تخرج بهم عن سواء البشر إذا ظلت تلك المشاعر والرغبات حبيسة صدورهم ومكبوته في نفوسهم.

ولا يشغلنك أمر الثورة في قليل أو كثير، ولكن ليشغلنك الجوهر في تلك الثورة والحقيقة في تلك الثورة ن والباقي والأصل، وهما كشفت عنه الثورة وأظهرته للأبصار، واعلنته للآذان وأبدته للقلوب والضمائر، الشئ الخفي المضمر وراء كل تلك الأحداث، وهي الشخصية المصرية، وكأن قدر على تلك الشخصية أن يضل عنها أبناؤها – ولكنها ما ضلت عنهم ابدا – وأن

تنعت بنعوت مجحفة من أصدقائها، وأوصاف مغرضة من أعدائها، وأن يعلو على جوهرها الأصيل الكثير من الغبار والتراب، وأن تخمد ويمتد خمودها، وأن تغفو وتشتد غفوتها، ولكن في كل مرة تنهض كالمــارد، تــنفض عــن جفونها الكرى، وتزيل عن وجهها الوضاء الغبار والتراب، وتودع ســنوات السكون، وتكسر وتحطم تلك الأصفاد والقيود التي عرقلت مسيرتها وعطلت انطلاقها.

في كل مرة تعلن للعالم أنه إذا نال الزمن من آثارها وأعمالها وإنجازاتها،فمن الممكن أن ينال منها، فهي تتحدى الزمن بكل كبرياء وعزة.

في كل مرة تدلل وتثبت وتبرهن أنها مازالت قوية وأبية وعزيزة.

في كل مرة تؤكد وتقنع أنها لم تضعف ولم تهن ولم تخدع ولم يغرر بها.

في كل مرة تصدع وتشهد أنها الباقية وكل الظالمين والمفسدين زائلون.

في كل مرة تستوحي وتستدعي رصيدها من خبرتهــا التليــدة وعبقريتهــا الأصيلة ومجدها الأثيل.

في كل مرة تعلو على جراحها وآلامهــا لتواصــل مــسيرتها الحــضارية ومشوارها الإنساني النبيل.

في كل مرة تمد عروقها وتنتفض لتدفع الدماء بين الماضي والحاضر، وتزيل الغربة بينهما وتعيد الألفة والتناغم بين طرفيها.

في كل مرة تخلف ظن أعدائها، وتكون عند حسن ظــن أبنائهــا.. صــادقة مخلصة وفية عفية.

ماذا يريد الشعب المصري ؟

ما الذي تريده الشعوب بصفة عامة؟

حرية... عدل... مساواة... حياة كريمة... نظام صالح وصادق يعمل في خدمة ورفاهية شعبه. كل ما تريده الشعوب في الإمكان تحقيقه وتجاوزه، وتحقيق ما لم يطلبه على المدى العاجل وعلى المدى الآجل، ولا شئ يمنع أن تتحقق كل آمال وطموحات الشعوب، لسبب بسيط أن الشعوب هي التي تعمل على تحقيق تلك الآمال والطموحات، وهل هناك أحد غير الشعوب يقادر على تنفيذ الآمال والطموحات ؟ ولا يوجد احد يتقاعس أو يتخاذل في أن يحقق لنفسه ما يتمناه.

ولكن المسألة ليست سهلة ويسيرة كما يبدو، لأنك في حاجة ملحة وقوية أن تقنع الشعب أن كل ما يفعله وينجزه يعد أو سيعود نفعه إليه وعليه، وأن لا تحاول اقناعه بالقول ومعسول الوعود، وزيف الأماني، ولكن بالأفعال والتصرفات والاجراءات الملموسة والمجسدة على أرض الواقع.

ولا أحد يستطيع أن يخدع شعبا.

في أوقات ما تتخادع الشعوب لحكامها وأنظمتها... تتغافل... تتغابى، ويظن الحكام – لفرط غبائهم وعبطهم – أن الشعوب بالفعل مخدوعة أو غافلة أو عبيطة، وفي النهاية يكتشف الحكام مدى غبائهم هم، ولكن للأسف يأتي هذا الأكتشاف متأخرا جداء والشعوب لا ترحم من يظن بها الغباء أو الغفلة.

نعم، الشعوب في حاجة أن تكون على قناعة أن ما تفعله يعد نفعه إليها،

فمن السهل لأي شعب أن يدرك الفرق بين الأنظمة التى تعمل لمصلحتها الخاصة والأنظمة التي تعمل لمصلحة شعوبها.

من السهل لأي شعب أن يدرك الفرق بين النظمة التي تستبعد شعوبها وتسيرها بالحديد والنار، وبين الأنظمة التي ترفع من كرامة وعزة وشأن شعوبها.

من السهل لأي شعب بين الأنظمة التي تفكر ليل نهار في السبل والطرق والوسائل التي تسعد بها شعبها وتيسر حياته، وبين الأنظمة التي لا تتوانى ولا تهدأ حتى تحيل حياة شعوبها إلى جحيم لا يطاق.

من السهل لأي شعب أن يدرك الفرق بين الأنظمة التي تجعل المستقبل أمام شعوبها مظلما ليضيع في دوامات اليأس والاحباط، وبين الأنظمة التي تجعل المستقبل أمام شعوبها واعدا مزدهرا بالأمال والأماني.

لا يوجد شعب فقير وشعب غني.

لا يوجد شعب متخلف وشعب متقدم.

لا يوجد شعب لا يعشق الحرية والعدل والحياة.

ولا يوجد شعب يحب العبودية والظلم والموت.

ولكن هناك أنظمة أفقرت شعوبها بعد أن كانت غنية.

وأنظمة جعلت شعوبها متخلفة بعد أن كانت متقدمة.

وأنظمة أرغمت شعوبها على العبودية والظلم، وجعلت الحياة والموت صنوان، بل جعلت شعوبها ترى في الموت منقذا ومخلصا لها من حياة كريهة، تلك الأنظمة جعلت شعوبها لا تبصر ولا تسمع ولا تشعر، فقدت كل شئ ن وأهينت، فهان عليها كل شئ.

على هذا فلا يجب تقسم شعوب العالم إلى شعوب متقدمة وشعوب متخلفة، فهذا التقسيم مجحف وظالم، وإنما يجب تقسيم العالم إلى أنظمة مستبدة

وظالمة تحكم شعوبها بالحديد والنار والقمع، وأنظمة عادلة تطبق القوانين والدساتير.

يجب تقسيم العالم إلى أنظمة لعينة كالأمراض الخبيثة التي تدمر وتتلف وتميت شعوبها، وأنظمة صالحة ومصلحة، تحيي الموات وتضخ في عروق شعوبها الحياة والنماء والرفاهية.

لا فائدة من بناء المصانع، واستصلاح الأراضي وبناء المدن والمدارس والجامعات واصلاح التعليم و... و....، لا فائدة من كل هذا إن لم يعلم الشعب عن يقين أن كل هذا وثمار وفوائد وحصاد كل هذا يصب في عروقه، وينتفع به أفراده، لو نجح النظام في اقناع الشعب بأن الشجرة التي سيزرعها هو الذي سيأكل من ثمارها وأن حبة القمح هو الذي سيأكل رغيفها وأن ما يسن من قوانين وينظم من تشريعات يبتغي مصلحة وصالح أغلبية الشعب وأن... وأن....، في طرفة عين سيكون هذا الشعب في مقدمة شعوب العالم من حيث التقدم والثراء والرفاهية والرخاء، وعلى درجة وقوة اقتناعه، على قدر سرعته وكفاءته وقدرته على الوصول إلى الهدف المنشود.

أي حاكم لمصر سعيد الحظ !

نعود إلى سؤالنا الأول... ماذا يريد الشعب المصري ؟

لا أظنني أبالغ في القول لو قلت إن أي حاكم للشعب المصري سعيد الحظ، بالرغم أن كل حاكم كان يأتي كان يصور مدى مشقة وعسر وصعوبة المشاكل والقضايا والتي تجعله مطالب بفعل المعجزات لحلها، وأننا شعب كثير الشكوى كثير التململ، كسول متخلف، من الصعب قيادته، وأن الحاكم له الجنة، لأنه من الصابرين على بلاوي هذا الشعب الغريب والعجيب،

وتبدأ أبواق النظام في خلق شعب – موازي للشعب المصري – لا وجود له، فيصدق الشعب انه غير موجود، والموجود هو الشعب الوهمي – الذي يتصف بكل تلك العيوب والمساوئ – الذي خلقته وأوجدته أبواق النظام ووسائله الإعلامية، والمضحك والمبكي في نفس الوقت، أن الشعب يبدأ في التعامل مع نفسه – الشعب الوهمي – على أن هذا حقيقة، وينسى أو يتناسى الشعب جوهره الحقيقي والأصيل.

مع العلم أن الشعب المصري – لا اقول أنه من اعظم وأصل الشعوب – قد مر بتجارب وهزائم وانتكاسات وظروف وأحوال أثبتت أن هذا الشعب لديه القدرة والكفاءة أن يعيش تحت أي مستوى منخفض ومتدنى، ومع ذلك يظل متماسكا واقفا على قدميه، رافعا هامته إلى السماء، مشرقا جبينه بنور العزة والكرامة، وأنه حمال مشقات، كالجمال الصيلة التي تقطع الصحراء المحرقة والظمأ والعطش يكاد أن يفتت أكبادها، ومع ذلك لا تتوقف عن السير وفوق ظهورها أحمال ثقال.

إن أهم دليل على عبقرية وعظمة هذا الشعب انه بالرغم مما مر بـه – ولا اظن أن شعب آخر مر بما مر به – مازال هذا الشعب موجودا على الأرض، دعك من أي شئ ءخر، ومن أي مقارنة تعقد بين الشعب المصري وأي شعب آخر ن هنا المقارنة كاذبة مضللة مجحفة، دليل على غباء الذي يعقد مقارنة بين شعبين، وإذا قارنت لا تقارن بين شعب وءخر في مدى التقدم والعلم والرخاء والثروة والمستوى الحضاري و..... و.....

ولكن قارن بين شعب مر بأزمات ومآزق وانتكاسات وهزائم كفيلة ان تقضي عليه، ومع ذلك خرج منها كالذهب المصفى الإبريز، أكثر تماسكا وأشد بريقا، وبين شعب انكسر وتهاوى من أول ضربة.

الشعوب كالرجال، لا يمتحن الرجل بما في جيبه من أموال وما لديه من عقارات وغيره، ولكن يمتحن الرجل بالشدائد والأزمات، ففي لحظة قد يفقد

كل تلك الكنوز ويفقد – أيضا – نفسه، ولكن الرجل القوي في إرادته وشجاعته وإيمانه، حتى لو لم يكسب شيئا من مغانم الدنيا فهو على الأقل قد كسب نفسه، الأبية على المآزق، الصلبة على الأزمات، القوية في مواجهة كل ما يأتي به الزمن من نكبات.ومن كسب نفسه فقد فاز بخير ما في الدنيا من مغانم.

نعم، عبقرية هذا الشعب في صبره الأزلي، في قدرته الأسطورية على التحمل، وأنه عاش ويعيش تحت مستوى لا يليق بشعب أصيل له كل هذا الانجاز الحضاري، وله كل هذا التراث الهائل وتلك الصفحات المشرقة المضيئة في كتاب التاريخ الإنساني. عبقرية هذا الشعب انه مازال موجودا، وما زال واقفا ومازال حيا تتدفق في عروقه حبه وعشقه للحياة، لا تقل لي كل الشعوب موجودة ومازالت واقفة، نعم، ولكنها لم تتعرض ولم تمتحن ولم تمتهن ولم تبتلى كما أبتلي هذا الشعب.

ماذا يريد الشعب المصري ؟

الغريب والعجيب أنه لا يريد شيئا !!

لأنه طوال عمره لم يأخذ شيئا، وطوال عمره يعطي، من أولاده وشبابه وعمره ودمه وفكره، شعب طبع على أن يعطي، سر وجوده وبقائه، المنح في أريحية منقطعة النظير، شعب نبيل، تعلم أو ورث ذلك الطبع من نيله الميمون، وأرضه الطيبة، وسمائه الصافيه الحانية، فلم يكن في يوم بخيلا أو شحيحا، ولم يجرب البخل والشح.

أمعقول هذا ؟! شعب لا يريد شيئا، وإنما يريد أن يعطي ؟

معنى هذا أن الحاكم إذا سأل الشعب المصري: ماذا تريد أيها الشعب العظيم ؟

سيجيب الشعب: لا أريد شيئا، وإنما ماذا تريد أنت لأعطيك إياه ؟

هذا ما حدث على مدار تاريخ هذا الشعب، وما زال يحدث. فكل حكـــام
هذا الشعب قديما وحديثا أخذوا من الشعب، وأخذوا الكثيـــر والكثيـــر، ولـــم
يعطوه شيئا، وإن أعطوه فهو النزر اليسير، وحتى هذا عادوا وأخذوه، أو رده
الشعب إليهم، ولكن أضعافا مضاعفة.

عندئذ نتساءل: والحرية والعدل والمساواة والكرامة و.... و..... أليست كلها مطالب وحقوق يريدها الشعب المصري ؟

لا، ليست مطالب يطلبها، فتعطى له أو تمنع عنه، إن شاء منحها الحاكم له، وإن لم يشأ لم يمنحها.

وليست حقوق يطلبها، فينعم بها الحاكم أو يحرمه منها.

ولكنها أساسيات وضروريات.

الحرية والعدل والمساواة والكرامة ليست حقوق، ولكنها أشمل وأصـــل مـــن ذلك. الحرية كالهواء الذي نتنفسه، والنور الذي نرى به، أنت لا تطالب مـــن أحد أن يسمح لك أن تتنفس، أنت لا تستأذن أحدا أن يمنحك النـــور لتـــرى، هناك خلط، وهذا الخلط الحادث يؤدي إلى تضليل، فالأساسيات والضروريات لا يتصور الإنسان أن يوجد بدونها، بدون الحرية والعدل

والمساواة، لا يوجد إنسان، وإن وجد فهو أي كائن آخر إلا أن يكون إنسانا، تلك الضروريات والأساسيات ليست في حاجة إلى إقـــرار أو إثبـــات، وإن أحللنا الضروريات والأساسيات محل الحقـــوق، أصـــبح فـــي الإمكـــان أن تعطيهما أو تمنعهما شأن الحقوق، فأي حق من الجائز ان نتمتع بـــه، ومـــن الجائز أن نحرم منه ونمنع عنه، لذلك هنا ما يسمى بصيانة الحقوق، أو إقرار الحقوق أو المطالبة بالحقوق أو منح الحقـــوق، ولـــيس هـــذا حـــادث مـــع الضروريات والأساسيات. الحرية والعدل والمساواة من هذا القبيل.

فمنطقيا لا يوجد شعب يطالب بحريته، فإذا كنت تطالب بحريتك الآن، فمـــن الذي سلبها منك من قبل ؟ وكيف عشت وتعيش بدون حرية ؟ ثم من يملـــك

منح حريتك ؟ من الذي جعلته قيما على حريتك وتطلبها منه ؟ ونفرض أنه استجاب لطلبك ومنحك حريتك، فأنت بذلك تكون قد أعطيته الحق أن يصادرها ويأخذ اليوم ما منحه بالأمس، بهذا المفهوم تأخذ الحرية صفة ((المنة)) قد يمنها الحاكم على شعبه، وقد يحجبها، وإن منحها فله فضل المنح والمن، وإن حجبها – فلا لوم ولا تثريب – فهو ليس ملزم أن يمن، فالمنان له الخيار أن يمن أو لا.والحرية ليس مفهوم معنوي أو مقصد يطلب لذاته، وإنما هي لبنة أساسية في بنيان المجتمع، أو هي خيط رئيسي من نسيج الأمة،ويوم يعيش المصريون كرماء على أرض وطنهم، وقد تخلصوا من الظلم والاستبداد والجهل والمرض والحرمان والحاجة والتبعية للغير، إذا حدث كل هذا يكون المصريون قد أصبحوا أحرارا عن يقين " **والواقع أن المرء ليس حرا إلا من خلال تنظيم اجتماعي تتأتى له فيه إمكانات التفتح الكامل. ومن ثم كان الوصول إلى لب مشكلة الحرية غير متأت من طريق مواجهتها باعتبارها خصيصة ذاتية تصد المجتمع عن صاحبها، بل على العكس من ذلك عن طريق اعتبارها تنظيما اجتماعيا، وعدم النظر إليها على أنها أعلى من الصرح الاجتماعي، بل مجرد حجر من احجار بنيانه الضخم. وقد يكون حجرا من أجحاره الأساسية إلا انه على أي حال جزء من البنيان كاملا. فالأمر ليس أمر الاعتراف للفرد باستقلال وهمي، بل تحريره وتخليصه من القصور والنقص والعوز والتبعية ليجد في النهاية حرية أثبت مقاما وأجدى نفعا** " [53]

وفي النهاية إذا أراد الشعب المصري شيئا فهو يريد ان يكون نفسه، أن يكون ذاته الصادقة الحقيقية القوية، ذلك لأنه ولعقود مضت فصل بين الشعب المصري وشخصيته، ضالل عن ذاته، غرر به، حاولوا أن يطمسوا تلك الشخصية أو يغيروا من مكوناتها ومقاوماتها، ولكنه اد إلى ذاته، واسترد

[53] في النظرية العامة للحريات الفردية – د.نعيم عطية (٢٢)

شخصيته وبدأ يعمل لأنه حصل على حريته، أوأنه حصل على حريته فبـدأ بالعمل، أيا ما كان الأمر فالعمل والحرية والإرادة أمر لا تنفصل عن بعضها

" قال الفيلسوف ليبنيز إن الحرية عبارة عن قدرة المرء على فعل ما يريده، ومن عنده وسائل أكثر هو اكثر حرية لعمل ما يرده عادة. ويمضي فـولتير فيقول: عندما أقدر على ما أريد فهذه حريتي.

وإزاء ربط القدرة على العمل بما يراد عمله تاخذ حريتي صورة علاقة بين ما أقدر عليه وما أريده – علاقة تتأثر بمختلف الأسباب التي من شأنها أن تؤثر على القدرة على العمل من ناحية وإرادة العمل من ناحية اخرى " [54]

[54] المصدر السابق (٢٣)

أغنياء الثورة وفقراؤها.

الحروب والثورات حركات شديدة العنف ممتدة الأثر والفاعلية زمانا وعمقا في المجتمعات الإنسانية، إنها كالزلازل التي ينتج عنها إعادة تشكيل وتكوين المجتمعات: والمجتمعات تمر بهذين الظرفين بحالات فوضى وسيولة، لا شئ يبقى في مكانه، حركة دائبة ومستمرة لا يحكمها شئ؛ بل هي تبحث عن مركز ثابت أو نواه تنتظم حولها، ولكن تمضي زمنا بدون أن تعثر على هذا المركز الثابت، فقد اختفت أو ذابت أو اختفت المراكز، وإن وجدت فلا ثبوت ولا استقرار لها، فقد وجدت مراكز كثيرة، كل منها يحاول أن يجذب ويحاول ان يهيمن ويسيطر، وهذا ما يحدث الفوضى في الحركة، والسيولة في الحدث، إذن هناك عدم انتظام في الحركة لعدم وجود مركز ثابت ومستقر في المجتمع – كما كان قبل الثورة – وهذا من شأنه أن يعطي للمجتمع أو يخلق للمجتمع أو يجد المجتمع نفسه في حالة غريبة وعجيبة ونادرة فكريا ووجدانيا، هناك أفكار أو قناعات أو معتقدات انهارت أو اهتزت أو تسرب وزحف إليها الشك في صلاحيتها، وبالتالي في مبرر وجودها وبقائها، وفي نفس الوقت لم يحل مكان تلك الأفكار والمعتقدات أفكار أخرى، وإن كانت هناك قابلية بل ضرورة ملحة وعاجلة أن تتم عملية الإحلال تلك. وبين إنهيار الأفكار والمعتقدات والقناعات، وإحلال مكانها أفكار ومعتقدات وقناعات أخرى، يمر المجتمع بحالة يكون كل شئ قابل لتحلل والتفكك

والتلاشي، وأيضا يكون كل شئ قابل للتشكل والتماسك والتواجد، وتلك مـــن أهم واخطر الفترات والحالات والظروف التي يمر بها المجتمع، حالة غريبة ونادرة، فهو – المجتمع – أضعف وأوهن ما يكون، وهو في نفـس الوقــت أقوى وأمتن ما يكون.

أضعف وأوهن ما يكون بسبب حالة التحلل والتفكك والتلاشي.

وأقوى وأمتن ما يكون لأنه في حالة ثورة، والمجتمعات لا تقوم بـالثورة إلا إذا كانت في زروة قوتها وعافيتها.

فالمجتمع في تلك الحالة كالجنين الذي خرج توا من بطن أمه، فهو ضــعيف كأشد ما يكون الضعف، في حاجة إلى أيدى الأخرين تدفئه وتطعمُه وتحميه، وهو قوي كأشد ما تكون القوة، لأنه تحمل ضغوطات واحتكاكات وتــوترات وتشنجات وانقباضات هائلة وغاية في القسوة، وصدمة للخروج والتواجد في عالم يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي تكون ونمى فيه، وهو – الجنين – إن لم يكون قويا بما فيه الكفاية ما تحمل كل هذا وهو مجرد قطعة من اللحم الغض الطري.

تدرك فئة – بل فئات – من المجتمع بوعي وخبث ومكر ودهاء، تدرك الحالة التي يمر بها المجتمع، وتجدها فرصة – وهي حقا فرصة ذهبية – ينبغي ألا تمر بدون حلبها إلى أخر قطرة، والاستفادة منها، ومحاولة جني أكبر قدر من الثمرات، وحصد أكبر عدد من الجوائز، واصطياد أكبر نصيب من الغنــائم.

وهم – الفئات – أصناف من التجار والسماسرة

ويعملون ويشتغلون في كل شئ، وتختلف نوعية تجارتهم باختلاف فكــرهم وتوجهاتهم وأهدافهم، بدءا بالاتجار في الأشياء المادية كي يجنوا ثــروات لا حد لها، وإنتهاءا بالإتجار في الشعارات والإيدلوجيات كي يحتلــوا مواقــع ومناصب ليسوا مؤهلين لها.

الصنف الأول من التجار ينطلقون ليفعلوا ما يشاءون، فليس هناك رادع ولا وازع من قانون ولا سلطة حكومة ولا سلطة رأي عام، أما الحكومة فقد زالت، وأما الرأي العام فهو مشغول وغير منتبة، حتى وإن تنبه فهو لا يعبأ ولا يكترث، فهناك أشياء أهم يراها تمس مصير المجتمع وتقرر بقاءه وتحدد استمراره، وتتعدد صور تصرف هؤلاء من اعتداء على الأراضي الزراعية والبناء عليها، ورفع أثمان سلع غذائية، و ((تعطيش)) السوق لنوعيات معينة من البضائع والسلع، لتحقيق أكبر قدر من الربح، – وأيضا – الاتجار في المخدرات والسلاح، وتجار النوع الأخير ينشطون أو تنشطهم عصابات تهيئ الجو والمناخ كي تروج تجارتهم بنشر الرعب والفزع في المجتمع، وهنا تنشط شركات الحراسة والتأمين وتغالي وترفع من أثمان خدماتها التي تقدمها، فهذا موسم الرعب، والسلعة ترتفع ثمنها إذا اشتد عليها الطلب، فهنا – أيضا – يتحكم قانون العرض والطلب.

في تلك الحالة كل شئ يستغل استغلالا شنيعا، فالمناخ يساعد على هذا، ويسمح بأن تخرج الثعابين والذئاب والتماسيح والغربان والجرذان والخفافيش، ناشرة كل أنواع الشرور، كل شئ وأي شئ مستباح، فلا قانون ولا وازع ولا رادع ولا مانع ولا حاجز، حتى وإن كانت البلد والمجتمع يعيش أسمى وأرقى وأنبل حالاته، وهم – التجار – لا شان لهم بكل هذا، فلا شئ يمنعهم أن يتجروا حتى في الدم والأرواح.

أما النوع الثاني من التجار، فهم خليط من أصناف البشر، منهم من هو منحدر إلينا من غياهب القرون المظلمة والظالمة، يريد أن يرجع ويرجع العالم إلى الوراء حاملا فوق ظهره بضاعة فقدت صلاحيتها منذ أمد بعيد، ولم تعد تصلح لشئ إلا وقودا للنار، ولكنه يعلق عليها أملا أن تعود عليه بالربح الوفير، وهو يتخذ الجدران والأرصفة مكانا يعرض فيه بضاعته،

ويغري بها الغدي والرائح، محذرا ومتوعدا الناس بالويل والثبور إن هم أعرضوا عن بضاعته، فهي – كما يغريهم بذلك – المنقذة لهم في الدنيا والمنجية لهم في الآخرة، ومنهم من يصب على رؤوس الناس اللعنات، لأن ما فعلوه يعد – في نظره ورأيه – مروقا وخروجا وتمردا وعصيانا للدين والديان، وأنها – الثورة – فتنة ملعونة وملعون من أشعلها، وأنها ستلتهمهم التهاما، ولن تبقى ولن تذر حتى يصبح المجتمع قاعا صفصفا !

ومنهم من يخرج علينا من أصفاد وأغلال السجون، يسير متباهيا فخورا في سرابيل المجاهدين، معتبرا أن الجريمة التي ارتكبها والسنوات التي قضاها وراء القضبان، كل هذا يؤهله أن يكون في المقدمة والصدارة، ليس هذا فحسب بل أن يكون الهادي والمرشد إلى سواء السبيل.

ومنهم من كان يمثل سدنة وأعمدة النظام الذي قوضته الثورة، فهو أصبح – بقدرة قادر – أول المدافعين والمؤيدين والمرحبين والمصفقين للثورة، وهو أول – كذلك – الفاضحين والكاشفين مساوئ وعورات ومخابث النظام السابق متبرءا مستغفرا باترا أي علاقة تربطه بالنظام.

ومنهم من كان يحمل المباخر وينشد الأشعار والمدائح، مشيدا بحكمة وبصيرة وسداد رأي الجالسين على دست الحكم، منافقا كاذبا متملقا، فإذا به يكسر مباخرة فوق رؤوسهم، ويلعن أباءهم وأجداهم، ويدبج وينظم الأشعار والأهاجي مشهرا بخطلهم وغبائهم وجهلهم وسوء تصرفهم، وأنه كثيرا ما وجه إليهم النصح وسدد إليهم صائب الرأي، ولكنهم لم ينتصحوا ولم يسمعوا له رأيا.

ومنهم من يسير مختالا متباهيا، يحمل شهاداته وخبراته وانجازاته فوق ظهره، مزكيا نفسه، مشيدا بها، عارضا مدى أهميته، وانه خير من يقود سفينة الأمة في هذا البحر الهائج المظلم المتلاطم الأمواج، وأنه هو – وحده – القادر على قيادة السفينة إلى بر الأمان .

ومنهم....

ومنهم.....

ومنهم......

كل هؤلاء تجار يتجرون بالقيم والمبادئ وبـالأرواح والـدماء وبالحاضـر والمستقبل، ولا يعبأون أن يطأوا وهم مندفعون أمام لهاثهم وسعارهم الحـق والخير والجمال.

يتصرفون تصرف الملائكة وهم الشياطين.

يلبسون مسوح الرهبان وهم الجلادون.

يرتدون ملابس الواعظين وهو المفسدون.

يدعون أنهم يحملون أنوار التقدم وهم الخفافيش.

يعلنون أنهم رسل السلام والخير، وهم أول دعاة الحرب والشر.

يظهرون بمظهر العقلاء والحكماء، وهم الحمقى والجاهلون.

يوحون بسمت الكياسة والفطنة، وهم السفهاء السذج.

يمثلون أدوار الضحايا الضائعين وهم القتلة المأجورون.

هؤلاء هم أغنياء الثورة، أما فقراؤها فهم الوقود التي اشتعلت بهـم الثـورة، قدموا كل شئ، دماءهم ومهجهم وأرواحهم، ولم يأخذوا أي شئ، إنهم ملـح التاريخ في كل العصور حالما يذوب فلا تستطيع أن تحدد مكانه أو زمانه ، إنهم كالعبير الذي يفوح ويضوع من كل الأزهار والورود، ولكن لا تستطيع أن تلمسه، إنهم أرواح الربيع الذي كـسا أرض الـوطن بالحريـة والعـزة والكرامة والفخر، ولكن لا تستطيع أن تمسك بهم،إنهم كدفقات نـور فجـر قدسي نشر ورش الطهر والنقاء في ربوع الوطن،ولكن لا تستطيع تبقيـه أو تديمه، إنهم كالقديسين الذين تسمع عنهم أطهر وأعذب المواقف والكلمات ولا تستطيع أن تتقابل معهم، إنهم كالأنبياء أحيوا الرمم، وهدوا العصاة، وأضاءوا

الأرض عدلا وخيرا وسلاما وجمالا ويعز عليك أن تراهم حتى في المنام.إنهم الشهداء ومن هم في مصافهم، شهداء الحرية والعدل والحق، نذرهم الله – عز وجل – ليكونوا أية من آيات الإيثار النبيل، وعلامة من علامات التضحية الصادقة، ودليل من الدلائل الدامغة، على أن في داخل هذا الإنسان الكريم قبسا مستعرا بنار الثورة، ونور الحق، وأنه لا يرتضى عن الحرية والكرامة والعزة بديلا حتى لو كان الطريق إليهم هو الموت، فليمت هانئ البال، كي يعيش غيره مرفوع الرأس وضاء الجبين.

الدين والثورة

تعتبر الرسالات السماوية – بصفة عامة – من أعظم وأكبر وأهم الثورات التي شهدتها الإنسانية، بل هي من أشمل وأصل الثورات قاطبة، بل أي ثورة من الثورات التي يقوم بها البشر لابد أن ترتبط بسبب ما بالدين، هذا إذا نظرنا إلى الدين تلك النظرة الرحبة الشاملة، ولم نقصر مفهومه على تلك النظرة الضيقة التي ينظر أغلب الناس إليه من أنها مجموعة من الممارسات الفعلية والعملية والقولية، إذا قام بها الإنسان فقد أدى ما أوجبه عليه الدين، وبعد ذلك يعيش قرير العين هانئ البال، مستريح الضمير.

فإذا كان البشر يسعون إلى الحرية سعيا، ويحلمون بها في ليلهم، ويتغنون بها ولها كل آن وحين، ويضحون بكل شئ ويستهينون بأي شئ في سبيل أن يعيشوا أحرارا، فإن الإنسانية لم تطرق آذانها ولم يمس شغاف قلبها دعوة مثل الدعوات الدينية التي دعت وألحت في الدعوة أن لا يستعبد أحد أحدا، ولم تجز أي دعوة أو رسالة أن يخضع إنسان لإنسان خضوعا تاما، فهذا حق الله وحده لا يشركه فيه أحد، فعبودية الإنسان لا تكون إلا لله الواحد الأحد، أما دون ذلك فلم تُبح ولم تسمح الدعوات الدينية، ليس هذا فحسب بل قاومت ذلك مقاومة شديدة، وأهابت ودعت ورغبت البشر إلى كسر وتحطيم والتخلص من أي وكل الصور وأشكال الخضوع لأحد من البشر، لأن معنى الخضوع لبشر ما، إلى مكانة عليا لا يشاركه فيها أحد، وهذا يخوله الشعور بالكبر والإحساس بالتميز، وبالتالي يقوده هذا إلى أن يظن أنه من صنف آخر، أرقى وأعلى من بقية البشر، لذا فهو يحاسب ولا يحاسب، ويسأل ولا يسأل، ويعاقب ولا يعاقب، والناس بالنسبة له مجرد عبيد يفعل بهم ما يشاء،

إن أراد أحياهم وأعاشهم بالطريقة التي يريدها، وإن أراد أماتهم، وقد ضرب القرءان من الأمثلة الكثير، هؤلاء الذين ظنوا أنفسهم – وهو في غفلة – أنهم ليسوا ملوك مستبدين ظالمين متجبرين فحسب بل آلهة، فهم أدركوا أن في وعي الناس وفي وجدانهم وفي فطرتهم أنهم لا يخضعون ولا يسجدون إلا لله إذن فليكونوا آلهة كي يخضع ويسجد الناس لهم، وعذبوا ونكلوا وقتلوا من يعترض على تلك الألوهية الزائفة، وتأتي الدعوات والرسالات السماوية لتثور على تلك الآلهة البشرية، أو البشر المتألهة، وتدعوا الشعوب لتثور وتنزل هؤلاء من فوق عروش الظلم والاستبداد، تدعوهم ليحطموا تيجان القهر والقمع، تدعوهم ليكسروا جدران سجون العبودية والذل، لتفتح لهم الفاق والسبل والطرق والدروب ليعرفوا الإله الحق، وليتعموا بعزة وشرف وكبرياء وفخر العبودية لله الواحد الحد، الذي خلق البشر أحرارا، وغرز في جبلتهم حبهم وعشقهم للحرية.

على مر العصور ارتبطت بالدين مفاهيم غريبة عنه كل الغرابة، بل متناقضة وجوهره الواضح الناصع، وتم اقحامها في تفسير وتأويل بعض نصوصه بشئ من التعنت والتشدد المتعمدين، وتوازى مع تلك العملية أضعاف أو تهميش أو تغييب أو التعتيم على خطوط ومراكز ومواقع المقاومة في الدين ضد تلك العملية، وبمرور الوقت وتوالي الأجيال صار الغريب عن الدين هو المألوف، والمتناقض هو المتوافق، والمرفوض هو المقبول والاستثناء هو القاعدة، وتبعا لهذا صار تأويل عدد من النصوص يدعو إلى الخضوع والاستسلام والاستكانة والرضا بالظلم والصبر على الذل والهوان، ومن ناحية أخرى توقير وتبجيل واحترام والارتفاع بمكان ومكانة رموز الحكم السلطان والأمر والنهي، ولم يعد الأمر بالنسبة لهم أمر عقد اجتماعي، يتضمن حقوق وواجبات بالنسبة للحاكم، وحقوق وواجبات بالنسبة للمحكوم،

ينبغي للطرفين رعايتها والحرص عليها، وان في أحيانا كثيرة ينكث الحاكم هذا العقد، وأنه – في هذه الحالة – يحق للمحكومين أن يطالبوا الحاكم برعاية والحفاظ وصيانة هذا العقد، وإلا خرجوا عليه. إلا أن بعض التفسيرات للنصوص لم تسر على هذا النهج القويم ويرجع ذلك لأسباب منها:

- سيطرة وهيمنة رجال السياسة والحكم على العقل الجماعي للأمة، وخضوع أغلب العلماء والكتاب والمثقفين لهم، وارتضاء تلك الفئات من صفوة الأمة تلك الهيمنة والسيطرة، أما من خلال الترهيب والتخويف والتنكيل كي لا يقاومون سيطرتهم وتحكمهم، وأما من خلال الترغيب والإغراء والتمكين كي لا يقاومون هيمنتهم، ليس هذا فحسب وإنما ليكونوا ضمن الأدوات والوسائل في تثبيت حكمهم وسيطرتهم على مقدرات البلاد والعباد !
- جزء كبير من الكتابات والتفسيرات تمت في عصور تأخر وضعف للعقل العربي – تلك الكتابات لسوء الحظ تمثل مرجعية لبعض المفكرين والمثقفين في العصر الحديث – وحينما يكون العقل ضعيفا، فهذا الضعف ينسحب على كل نتاجه الفكري، وتتمثل نواحي الضعف في فقدان القدرة على المقاومة، ناهيك عن الثورة أو الرغبة في التغيير.

- تعرض الكثير من الأقطار العربية – بل كلها بصورة أو بأخرى – للغزو الإستعماري، واستتبعه غزو فكرى وثقافي، كان هدفه الأول والأخير القضاء على هوية الفكر الوطني، أو إضعافه أو استئناسه أو شغله بقضايا أو موضوعات الغرض منها إفقاد الثقة في النفس، وفي نفس الوقت تكريس وتأصيل وزرع أو استزراع فكرا أجنبيا في التربة العربية، يستمد أصوله من الغازي والمستعمر لضمان بقائه

وخلق تبعية له. ونجح الغازي في ذلك نجاحا منقطع النظير، فالبرغم من تخلص تلك الأقطار والبلاد والشعوب من الاحتلال،إلا أنها ظلت تابعة فكريا له، أو ظلت في أسر تلك القيود التي وضعها المستعمر، ولم نعد نرى فكرا خالصا يعكس الهوية العربية أو الشخصية العربية الخالصة، بل فكرا مهجنا و مشوها، فلا هو يحمل في نظمه وأطـــره شخصية الغازي، ولا يعكس ملامح العقل العربي، وإنما خلـــيط، لا شكل ولا قوام له، أوصال متقطعـــة وخطـــوط متقاطعـــة، وأبنيـــة متناقضة، وهياكل متهاوية، وكيانات يأكل بعضها بعضا.

- فشل وإفشال ونكث وانتكاسة المشاريع والحركات الراغبة في التحرر والتخلص من تلك التبعية، وفقدان الثقة والأمل في حركات مستقبلية، كل هذا جعل الفكر العربي يتراجع ويـــستدير باحثـــا ومنقبـــا فـــي الماضي، وهذا – في حد ذاته – أخطر ما تعرض لها الفكر والعقـــل العربي، لأن طبيعة العقل الاندفاع إلى الأمام والانسياح واستكـــشاف المجهول، وليس إعادة أو اجترار ما سبق أن أنتجه أو توصل إليـــه، تلك هي السقطة الكبرى أو الزلة الشنيعة التي لم يقـــم منهـــا العقـــل العربي للآن، وأصبحت تلك سمته أو طريقته في مواجهة الأزمـــات والمآزق، فهو لا يحاول الخروج منها من خلال إيجاد حلول مبتكرة، وإيجاد حلول غير مسبوقة، وإنما ييمم شطر الماضي، إيمانـــا منـــه بعظمة هذا الماضي وعظمة ما وصلت إليه الأمة، ومسلك العقل هذا لا يدل إلا على فقدان الثقة في النفس وبالتالي عـــدم القـــدرة علـــى المواجهة، والخوف من المجهول واستكشافه، وإن واتته الجراة فـــي بعض الأحيان، فهو يتجه إلى المستقبل في شكل دائري، وتلك ليست حركة وإنما وهم للحركة، وغالبا ما يؤدي الوهم إلى الضياع

وأيضا يتجه العقل العربي إلى الأمام وهو مثقل بأحمال وتراكمات الماضي، وهذا من شانه ان يقلل من حرية حركته وقوتها وسرعتها. بل هذا الأمر يعرقله ويشتته، لأنه يريد أن يدمج أزمنه في زمن واحد، هذا الدمج يفقد صاحبه البوصلة والاتجاه ولا يدري أهو يتجه إلى الأمام أم إلى الخلف ؟ أم هو واقف لا يتحرك ؟

- ولأن العقل العربي مر بكثير من التجارب والعصور كان مهددا في بقائه، فقد بذل جهودا جبارة للحفاظ على كيانه والتشبث والتمسك بالبقاء، فقد اكسبه هذا نوعا من التسلط وعدم التسامح – إلى حد ما – والنرجسية والتعالي والغرور، وأحاط نفسه بحواجز تحميه، ودروع تحفظ عليه كيانه وتلك الحواجز والدروع ادت الغرض منها، ولكنها في نفس الوقت عزلته عمن حوله، وجمدته واوقفته عن الحركة.

- الأنظمة أو الأحزاب أو الحركات أو الشخصيات التي حكمت بعد رحيل المستعمر، مثلما أبقت على المرافق والمشاريع التي اقامها المستعمر لتسيير حركته وتدعيم وجوده، كذلك أبقت على نظم وطرق ووسائل وآليات السيطرة والهيمنة على الشعوب.لتستعملها هي في قمع شعوبها، ليس هذا فحسب بل زادت من إحكامها وقبضتها وسيطرتها؛ بل ابتكرت واخترعت وتفننت في إبداع أشكال أخرى، مسوغة ومبررة عملها هذا أنها تريد حماية نفسها من الأخطار الخارجية والداخلية، وانشغلت بهذا أو قل كان هذا شاغلها الأكبر، وهذا كان الطريق المذلل والممهد لقيام ما يسمى بالدولة البوليسية. وهي تلك الدولة التي تسخر كل إمكاناتها في حماية نفسها والحفاظ على بقائها، حتى لو فقدت المشروعية في البقاء والاستمرار. واعتبرت أن أي صوت أو تيار أو اتجاه ناقدا أو معارضا لها هو

عدو في المقام الأول، ولم تهتم بإقامة جسور من الحوار أو التفاهم أو للتصالح أو التوافق للمصلحة العليا، وإنما حاولت – ونجحت في ذلك نجاحا عظيما – القضاء عليه الأتجاه الناقد او المعارض، وإن لم تستطع القضاء عليه فقد شنت عليه حملات مسعورة لا تهدأ لتشويه والتشكيك في أهدافه وأغراضه.

- كان هناك كتابات ونظريات ومجهودات فكرية ودعوية لتخويف الشعوب من الثورة، وقرنت بلفظ ((الفتنة)) وأنه على الشعوب تحمل كل ألوان الظلم والاستبداد والاضطهاد، فكل هذا أهون وأخف وأيسر من الفتنة، ولم نجد كتابات موضوعية علمية تعرف مفهومَ الثورة، والفرق بينها وبين الفتنة.

- كان هناك عدد لا بأس به من الكتاب والمفكرين على مر العصور وفي مختلف البلدان العربية يعتمدون في معاشهم وبقائهم على الطبقة الحاكمة، وهؤلاء يرون في بقاء تلك الطبقة واستمرارها، بقاء لهم، ودوام لتلك الإمتيازات التي يحصلون عليها، لذا فقد جاءت كتاباتهم لتحرم وتجرم وتمنع الخروج على الحاكم طالما لم يبطل ركنا من أركان الدين صراحة وجهرا، لذلك نجد أغلب الحكام يبالغون في بناء المساجد، واهتموا اهتماما ظاهريا بالدين، لخلق وهم لدى شعوبهم، أنهم يرعون الدين رعاية كاملة، ونلاحظ هذا في الألقاب التي كانوا يطلقونها على أنفسهم، فكلها مشتقة من لفظ الدين، أو منسوبة الله – عز وجل –، أما أن يفسد الحاكم أو يظلم أو يقهر أو يقمع، أو يصادر حريات ويحجب أراء، ويحجر على أفكار أو يسئ استخدام سلطاته، فكل هذا ليس خروجا عن الدين، لأنه إذا كان هناك ظلم وفساد واضطهاد وقهر من الحاكم للمحكومين فهذا ضرر – والكل

يجمع على هذا – ولكن – في ظنهم – الخروج عن الحاكم الظالم الفاسد المفسد أكثر ضررا وقد يؤدي إلى ضرر أكبر وخطر أفدح يصيب العباد والبلاد، لذلك فالخير كل الخير – في ظنهم ورأيهم – أن يبقى الوضع والأمر على ما هو عليه، وتستمر الحالة بدون تغيير أو تبديل، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، لذلك توالت سلسلة غريبة وعجيبة ونادرة من الحكام الفاسدين، وأحاطوا أنفسهم أو أحيط بهم بطانة فاسدة لا تصلح ولا يرجوا منها أو لها صلاحا أو فلاحا.

- أغلب الثورات أو الحركات أو الانتفاضات التي حدثت على مر التاريخ لم يحالفها التوفيق، ولم تصل إلى تحقيق أهدافها العاجلة، ولم يجنى ثمارها، وكانت تكاليفها فادحة في وقتها – وإن كان هذا لا يقلل من قيمتها وأهميتها – هذا أوحى للوجدان العربي بعدم جدوى تلك الانتفاضات والثورات والحركات، والمؤسف أن المعارضين لها أو خصومها أو أعدائها قاموا – بعد فشلها أو إفشالها – بالطعن في مشروعيتها وتشويهها وتسفيهها، ووصف القائمين بها بالمروق من الدين والتمرد على السلطان والعصيان لأوامر أولي الأمر، ووصفهم بالخيانة وسجنهم أو التنكيل بهم وإعدامهم، كل هذا رسخ في الوجدان أو شكل نوعية رد الفعل الجمعي من أي دعوة للثورة أو التغيير، فالثورة قرين الخراب والدمار وتعطيل المصالح، وفرصة ذهبية للسوقة والذعار والشطار والغوغاء والسفلة، أن يعيثوا في الأرض فسادا، وينشروا فيها دمارا، كل هذا جعل فئات كبيرة من الأمة تقف من الثورة موقفا ليس في صالح الثورة،فهم يلا يمتنعون عن تأيدها فحسب، بل قد يصل الأمر إلى إنكارها ومقاومتها، إن لم ينكروها أو يقاوموها فهم يقفون موقفا سلبيا، وكأن الأمر لا يعنيهم

في قليل لأو كثير، أو من قريب أو بعيد، الغريب في الأمر والخطير والمؤسف أنه قد حدث للوجدان العربي ما يشبه حالة التصحر، فمهما قذفت رياح التغيير من بذور الثورة، فإن مآل تلك البذور الجفاف والموت، وامتلأت سماء الفكر العربي – لذلك – بغيوم اليأس والقنوط، وتأصل شعور بعدم جدوى أي انجاز فكري، هو في الأصل دعوى إلى الإبتكار والتجديد والخروج من أسر الجمود، فكل هذا مرفوض ومصادر، فأصيب العقل بالشلل، وتليفت مناطق ومراكز الابداع والابتكار.

– التباعد الزمني – إلى حد ما – بين الحركات والثورات والانتفاضات، جعل الخط التحرري أو التيار الأستقلالى أو الاتجاه نحو التغيير متقطع الأوصال، ومنع التواصل، وكانت كل الحركات أو الثورات وكأنها تبدأ من نقطة الصفر، وهذا من شأنه أن يبدد جهد ومجهود الحركات المتعاقبة، والمفروض أن تكون تلك الحركات مثل قصب السباق يسلمها سابق للاحق ن ولكن لأن قدر تلك الحركات او الثورات معلق على شخصية الزعيم أو المفجر الأول أو البطل، فإن الزمن كان يطول ويمتد حتى يجود القدر بتلك الشخصية التي كانت تستنهض الهمم وتستنفر الجهود، وكانت الشعوب تتعلق بشخصية القائد أو الزعيم، وليس بدوره أو عمله، وحينما كان يخرج من دائرة الأحداث والحدث كان من الصعب أن يقوم أحد غيره بدوره أو عمله ؛ لأن الجماهير شخصنة الدور، بمعنى أنها لا تستعيض بأحد آخر يقوم بالدور أو الفعل، لذلك ارتبطت كل الحركات والانتفاضات – غالبا – بشخصيات معينة، وليس بأدوار وأفعال أو مهام، وهذا من شأنه أن يحدث فراغا هائلا بعد رحيل القائد، وأيضا يخلف فى وجدان الشعب إحساسا بالفقد والضياع، وتبدأ فترة غالبا ما تطول في البحث عن البديل أو انتظار المجهول.

انتكاسة الدولة

- **مبادئ أولية**

الدولة كالكائن الحي يمر بمراحل نمو متعددة آخذة في التطــور والارتقــاء، وكل مرحلة وما تحفل به من تغيرات وتبدلات وتحولات تقود وتؤدي وتنتج المرحلة التالية لها، وهكذا في سلم متسلسلة ومتتابعة ومتعاقبة درجاته بدون انقطاع او توقف أو تلكؤ أو تمهل، ويجب أن تتصف مراحــل النمــو تلــك بالصدق والعمق والشمول:

الصدق.. فلا يجدي – هنا – الكذب أو التزوير أو التزييف أو حتى التجميل، لابد أن يشهد ويقر الجميع أن الدولة صادقة في كل ما تنجزه – وهي قــادرة بما توافر لديها من أدوات وآليات – وما لم تنجزه، ذاكرة الأسباب الحقيقيــة لعدم إنجاز ما لم ينجز،وهذا في حد ذاته دليل على قوة الدولة ن فهــي لــن تواتيها الجرأة والشجاعة أن تعترف بما لم ينجز إلا إذا أنجزت، وهذا – مــا أنجز – شافع لها – وإن كان لن يخلي مسئولياتها لما لم ينجز.

العمق.. لابد أن يكون النمو والارتقاء في الأساسيات، في الأعمدة والثوابت التي تحفظ كيان وجوهر وحقيقة الدولة، هناك دولة يغلب على أدائها صفة ((الديكور)) والواجهات أو الشعارات، تقيم وتنشأ مراكز ومؤسسات وأنظمة أو تسمح وتساعد على قيام جمعيات ومراكز بحثية وإعلامية، ولكن عمل كــل تلك الأشكال لا يتعدى السطح، ولا يستطيع بأى حال من الأحوال النفاذ إلــى العمق، مثل دولة تقيم نظاما برلمانيا ن وفي نفس الوقت غير مسموح بحرية الرىأي أو الفكر أوالنقد، وتوجد أحزاب متعددة وكثيرة، ولكن غير مــسموح بتداول السلطة، بل هناك احتكار للسلطة والحكم، وهناك منظمات في طــول

البلاد وعرضها لحقوق الإنسان وآدميته وكرامة وشرف الإنسان يمتهن ويغتصب في طول البلاد وعرضها، هناك مدارس ومعاهد وجامعات ومراكز علمية وبحثية تسد عين الشمس، ولكن لا تلمس ذلك في فكر ووجدان الناس، فكل هذا ليس له مردود فكري أو ثقافي أو حضاري، فالمستوى العام للمجتمع في تلك الأمور متدني للغاية، كأنك – في تلك الحالة – أتيت إلى شجرة وقطعتها من فوق الأرض تاركا الجذور في بساطن الأرض، وأخذت في غرس الساق في مكان آخر، وتنتظر من الساق اخضرارا وظلالا وثمارا، ولكن بمرور الوقت ستجد العفن تسرب على الساق وانتقل إلى الأغصان والوراق، وبعد قليل يذبل كل شيئ ويسقط، ذلك لأنك فصلت بين الساق الموجدة فوق الأرض وبين الجذور المتغلغلة في أعماق الأرض.

الشمول، يجب أن تتصف مراحل النمو بالشمول، وتلك طبيعة الكائن الحي، ففي الداخل كل الأجهزة تنمو باتساق منتظم وبوتيرة واحدة، وفي الخارج أيضا، ويحدث تناغم بين الداخل والخارج، فدولة متقدمة ماديا، ومتأخرة فكريا وثقافيا، كأنها دولة عرجاء تسير على قدم واحدة، ودولة تهتم بالفكر والثقافة وتهمل الجانب المادي دولة شوهاء ومسخ، وأحيانا في بداية مرحلة ما يظهر اهتمام بجانب على جانب، وتهتم الدولة ببناء وتأسيس كيانات ومؤسسات محددة ومعينة – ترى أن المرحلة تتطلبها دونا عن غيرها، – غافلين أنه يجب ألا يستجيب لأي مرحلة مهما كانت احتياجاتها، لأن حاجة الإنسان مقدمة على أي شيء آخر، وحاجة أي إنسان تتصف بالشمول، وأن اعمل أن أرضي فيه جميع النواحي التي تؤكد على هذا المعنى، فالإنسان جسد وروح، ولابد أن يحدث نوع من التوازن – إلى حد ما – بين الإنشان، ولكن جميع الدول تهتم بالعمل على إرضاء الجانب المادي ؛ بسبب انه أكثر إلحاحا ولا يمكن تأجيله، بل هو مطلوب بصورة عاجلة ودائمة ومستمرة، والأهم – بالنسبة للدول – أن المرافق المادية والمشروعات العملية والحيوية

يمكن إدراكها ولمسها بالحواس، والانجاز فيها يعطي الدولة إحساسا بالرضا، من خلال مباركة رعايا الدولة، وهذا بعض المصادر التي تستمد الدولة منها شرعيتها، ولكن تلك المرافق والمشروعات مهما كانت عملاقة، كما سببت الرضا والإعجاب بسرعة، قد تنطفي تلك الهالة وتزول من حولها – ايضا – بسرعة، لأنك في حاجة إلى البحث عن إنجازات أخرى ؛ لأن الحاجات والرغبات والمتطلبات المادية لا حدود ولا نهاية لها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، إن كانت تلك المشروعات قد غيرت من واقع على الأرض، إلا انها لم تغير من شيء داخل الإنسان، لم تطوره لم ترتقي به، أو أنك طورته وارتقيت به أفقيا، ولكنك لم ترتق به رأسيا، نجحت أن تبني كيانا – ولا أقول إنسان – خاويا أجوف، عاجزٌ عن التفكير الإبداعي،أن يضيق غضاقة مبتكرة، لا يستطيع ان يبني لسبب بسيط أنه لم يبنى من الداخل، أو قل انه بني من الداخل، ولكن وفق ما تريده وترغبه الدولة وليس مع ما تتفق مع حقيقة وجوهر الإنسان، وإذا غفلت عن هذين الأمرين فأنت لا تبني وإنما تخرب هذا الإنسان وتدمره، وتضع نهاية لكيانه ووجوده، فالبشر لا يوجهون وفق مشيئة أحد،وإنما وفق حقيقتهم وجوهرهم التى خلقهم الله عليها.

وعلى الدولة – أي دولة – الا تفرط في تلك المبادىء الثلاثة ؛ لأن هذا هو عماد شرعيتها وتبرير لوجودها ومسوغ لبقائها ومؤيد لاستمرارها.

- دور الدولة

دور الدولة في الدول النامية أو المتخلفة دور هام وخطير عنه في الدول المتقدمة، ففي الدول المتقدمة أصبح دور الدولة دورا رشيدا، يتلخص في الحماية والحفظ والصيانة والتنظيم، والدولة تأخذ مسافة من مؤسسات المجتمع وآلياته ووسائله التى تدير المجتمع او يدار المجتمع من خلالها،

وهي تتدخل بقدر معلوم ومحسوب إذا دعتها الظروف والضرورة إلى ذلك، وتلك مرحلة من المراحل المتقدمة التي يصل إليها المجتمع، ويكون في غنى عن التدخل الفج والمتغلغل في أمور المجتمع والناس، الدولة هنا ((كالمايسترو)) الذي ينظم حركة مختلف الآلات الموسيقية ويوائم ويوافق بينهم؛ كي لا يشذ أحد عن الهدف العام الذي ينشده مؤلف اللحن، كذلك الدولة تنظم حركة ومسيرة وفاعلية مختلف المؤسسات، كي تسير كلها في مسار واحد وهوتحقيق الهدف الذي يبتغيه المجتمع. والدولة في البلاد النامية أو المتخلفة لا تستطيع ان تاخذ هذا الموقف، ولا هي تخطط له ولا تنوي ان تصل إليه في المستقبل العاجل أو الآجل، حتى لو أرادت فلن تمكنها الظروف والأوضاع من ذلك، مع أنها الأقوى والأقدر بما تملكه من وسائل وادوات " **تبرز((الدولة)) باعتبارها المؤسسة الأقوى، القادرة على تعبئة الموارد وتوظيفها وممارسة النشاط الاقتصادي بأشكاله المختلفة "**[55].

فخذ – مثلا – دور الدولة في مجال الاقتصاد – الذي يعتبره البعض من أهم أدوارها بل وأخطرها – في الدول النامية، ستجده دورا غريبا وعجيبا ويمثل عبئا على الدولة لا طاقة لها به، ومع ذلك لا محيص للدولة ان تقوم به ن مع انها – في احيانا كثيرة – تفشل في القيام بهذا الدور بصورة او أخرى " **أما الدور الإقتصادي للدولة في النشاط الاقتصادي في بلدان العالم الثالث فيرتبط بظروف جد مختلفة، كما يتخذ أشكالا، وتنجم عنه آثار يستحيل وضعها في سياق واحد مع تلك التي سادت وتسود في العالم المتقدم، غربه أو شرقه. وليست خصائص اقتصاديات بلدان العالم الثالث وسماتها الاجتماعية الثقافية العامة هنا أيضا بحاجة إلى تذكير: فانخفاض مستوى المعيشة للغالبية من السكان وتخلف اساليب الانتاج، وسيادة الاقتصاد الزراعي سمات تجمع بينها جميعا، وفوق ذلك فإن تلك الدول رغم تخلفها،**

[55] مصدر تراجع نفسها – د. أسامه الغزالي حرب – صفحة (٧٧)

تعيش في العصر، ويتعايش فيها الحاضر والماضي، وتعاني بالتـالي مـن ازدواج يشكل كثيرا من خصائصها، مثل الانفجار السكاني وثنائية الاقتصاد، ومعاناتها من التبعية الاقتصادية للعالم المتقدم "[56]

الحالة المصرية: لا أحد ينكر أنه في مرحلة من المراحل التـي مـر بهـا المجتمع المصري كانت الظروف والأوضاع تقتضي أن تتدخل الدولة بكـل ثقلها ليس في مجال الأقتصاد فحسب بل في كل مرافق ومناشط المجتمع، لا سيما وهو يمر بمرحلة تحول وتغير فـي نظامـه الإقتـصادي والـسياسي والاجتماعي، وحالة المجتمع في تلك المرحلة – عادة – تكون في حاجة إلى قوة مركزية قوية تقود وتدفع وتيسر وتذلل، كي تصل بـالمجتمع إلـى بـر الأمان " في هذا السياق وفيما يتعلق بدور الدولة تحديـدا، تقـدم الحالـة المصرية مثالا بارزا لدور الدولة في النشاط الاقتصادي في ظروف بلـدان العالم الثالث، سواء من حيث دوافعهذا الدور أو من حيث ملامحه وأبعـاده أو من حيث آثاره ووظائفه. وبعباره محددة فإن الحالـة المـصرية تبـدو كتجربة متكاملة لاقتصاد شبه ليبرالي، شهد – في لحظة معينـة – تغيـرا حاسما اضطلعت بمقتضاه الدولة بالدور الرئيسي في النـشاط الاقتـصادي ومارست دورها ذلك بكل أبعاده وتداعياته، ثم اخذت تظهر بعد فترة نتـائج ذلك الدور المتسع سلبا وإيجابا، بما في ذلك الدعوة إلى التقييم والمراجعـة الشاملة له. ولا شك أن ((الحالة المصرية)) هي من الحالات المحظوظـة في العالم الثالث، التي عرفت وما تزال طوفانا من الكتابـات [illegible]. ولذلك فإن الكتابة حولها لا تعوزها البيانات والتحليلات، ولكن تظل هنـاك

[56] المصدر السابق (٧٥)

دائما إمكانية لإلقاء الضوء على زوايا جديدة في تلــك القــضية المثيــرة: صعود وسقوط دور الدولة في الاقتصاد المصري "[57]

ولكن أدوار الدولة لا تقتصر على النشاط الإقتصادي فقــط، فللدولــة أدوار أخرى كثيرة، والأمر الذي يجب الا نغفله، أن الــدور الإقتــصادي يعتبــر المؤشر أو المقياس أو المعيار الذي يتحدد على أساسه نجــاح الدولــة فــي أدوارها الأخرى، ولم لا نقول أن كل أدوار الدولة مرتبطة ببعضها ارتباطــا حيويا فالخاصية بين تلك الأدوار كخاصية الأواني المستطرقة، النجاح فــي دور ما يتبعه النجاح والتوفيق في بقية الأدوار " أيضا، **فربمــا لــن نكــون بحاجة إلى التذكير، بأن تلك القضية – أي قضية دور الدولة فــي النــشاط الاقتصادي – هي قضية سياسية بمثل ما هي اقتصادية، بل لعلها بالأساس سياسية، وليس ذلك بالأمر المستغرب في تحليل أوضاع بلدان العالم الثالث عموما، حيث السياسية تسبق الاقتصاد وتحدده. وربما كان ذلــك جــوهر المشكلة كلها: أي إخفاق الــسياسة وتخلفهــا كــسبب لإخفــاق الاقتــصاد وتخلفه!"[58]**

علاقة معقدة

للدولة في المجتمع المصري دور لا يماثله أي دور في بقية المجتمعات فــي العالم،ولا ندري – منذ البداية – من الذي أنشأ الأخر، الدولة هي التي أنشأت المجتمع أم المجتمع هو الذي أنشأ الدولة ؟ أم أن كليهما ساعد فــي إنــشاء الأخر بقدر متساو ومتوازن ؟ " **وهكذا ومنذ القدم، تطابقت في مصر – كما قال بارسونز – حدود الدولة مع حدود المجتمع، ولكن الأهم من ذلك، هــو أن السلطة المركزية أصبحت سلطة وحدانية لا تقبل التجزؤ أو اللامركزية،**

---

[57] مصر تراجع نفسها (٧٦)
[58] المصدر السابق (٧٦)

وكانت دائما قوية مسيطرة، وفي الفترات القصيرة التي ضعفت فيهـا تلـك السلطة المكزية ((خلال حكم أسرة الإمبراطورية الوسـطى فـي مـصر الفرعونية، وخلال الحكم العثماني في القرن الثامن عشر)) ساءت أحـوال المجتمع وانتشر الإضطراب والكساد والخراب والمجاعات ولم يكن غريبا – في هذا السياق – أن الشعب المصري الذي اتسم بالتدين الشديد منذ ماضيه السحيق، عرف مفهوم – الملك – (الإله) أو الفرعون – الإله)) "[59]

أيما كان الأمر، فإن الظروف التي تعرض لهـا المجتمـع علـى مختلـف الأصعدة وعلى تعدد واختلاف المراحل التاريخية القديمة والحديثة، دفعـت الدولة بل اضطرتها أن تأخذ دورا متعاظما ومهيمنا ومسيطرا على المجتمع، وإن لم يعترض أو يرفض المجتمع، إلا أنه لم يؤيد ولم يرحب بهذا الأمر، أو قل إن تلك الظروف الضاغطة التي مر بها المجتمع لم تعطه الفرصـة ولا الوقت أن يتأمل ماهية تلك العلاقة، أو يرشد من أمرها ويهذب من شأنها، أو أن الدولة لم تتح ولم تسمح للمجتمع أن يتدخل في أمر – رأت هي ذلك – لا يجوز أن يتدخل فيه بأي صورة من الصور، وكأن هذا الأمـر – بمـرور الوقت – أصبح عهدا بين الطرفين أو عقدا غير مكتوب يلتزم فيه الطرفان، بأن يترك المجتمع الدولة تمارس فيه دورها ووظيفتها بدون تتدخل من منه، ويقبل المجتمع قوانين وقرارت الدولة بدون اعتراض أو تعقيب، وهذا راجع إلى أمرين، إما أن القرارات والقوانين كانت في صالح أغلب أفراد الـشعب، او أن قوة المجتمع كانت من الضعف والهوان بحيث لا تقدر على الاعتراض أو تغيير تلك القوانين والقرارات، أو أن المجتمع كان قويا وصحيحا وعفيا، ولكن الدولة كانت أكثر قوة وأكثر صحة وأشد عافية.

---

[59] المصدر السابق (١٥٢-١٥٣)

"وسرعان ما التزمت الدولة بالتعليم المجاني لكل المـواطنين، وبتقـديم الرعاية الصحية شبه المجانية، وتوفير الإسكان الرخيص لهـم، وضـمان تشغيلهم بعد تعليمهم، وإتاحة فرص الترفيه والراحةوالتسلية، وفـوق كـل ذلك التزام برفع مستوى المعيشة بتخفيض الأسعار لتكـون فـي متنـاول الجميع، وتوفير كافة الأجهزة والمستلزمات المعيشية للأسرة، وكان ذلك في الحقيقة جزءا من (عقداجتماعي) ضمني، بين الدولة والمواطنين، تنـازل فيه المواطنون عن حقوقهم في المبادرة الاقتصادية أو الـسياسية للدولـة لتقوم هي نيابة عنهم بكل شيء، في مقابل أن يقدموا لها الولاء والطاعـة، بل والتأييدالحماسي، وهو ما ادى – بالضرورة – إلـى تكـريس الـسمات ((السلطوية)) للدولة "[60]

ارتضى المجتمع أن تكون العلاقة بينهماعلى هذا الـنمط والـوتيرة، ورأى المجتمع – لأسباب كثيرة – أن في هذا راحة لهوإلقاء كل العبء والمسئولية على الدولة، وإن كان فيه سلب واغتصاب لأهم حق من حقوقه،وهو مشاركة الدولة فيما تقرره من قرارات أو تسنه من قوانين، دعك من أن يقوم بـإلزام الدولة بما يراه ويريده،وقبلت الدولة بتلك العلاقة – لأسباب كثيرة – وإن كان فيه تكاليف لها بأعباء ثقال، وإن كان أعطاها كل ومطلق الحرية والتفـويض الكامل أن تفعل ما تشاء بدون رقيب أو حسيب.فإن هذا الأمر أورث المجتمع المصري التواكل والتراخي والاعتماد الكامل على الدولة في تسيير أمـوره الحياتية حتى الهين منها والتافه، وأورث الدولة عدم الأخذ فـي الاعتبـار أن هناك مجتمعا لابد أن يكون له قدر أو نصيب في الحكم،وحظ فـي نقـد أداء ورؤية وجهد في التقويم والاصلاح. لقد كان المجتمع المصري – وما زال – يعلق كل مشاكله الهين منها والضخم على الدولة، فالدولة بمثابة (الجنـي) الذي يخرج من القمقم ويلبي كافة وكل طلبات أفراد المجتمع، فالعلاقة بـين

---

[60] المصدر السابق (١٠٢)

الدولة وأفراد المجتمع في المقام الأول تلبية المطالب والاستجابة لها بأي صورة من الصور، والذي أكد على نوعية تلك العلاقة ن وأصبحت على درجة عالية من السلبية من طرف، وعلى درجة عالية من الإيجابية بالنسبة للطرف الثاني، والمسئول عن ذلك – وهذا وضع مذري وينذر بحدوث مصائب وكوارث مستقبلا – هي الدولة المصرية نفسها، من خلال الدور الذي رأت وتصورت أن تلزم نفسها به وتقوم بتأديته على خير وجه.

إذن هنا طرف خامل كل الخمول، وطرف نشط النشاط كله، وتلك علاقة شاذة وغير سوية

لأن الطرف الخامل سيتقلص ويذبل ويضمر ويصبح وجوده كعدمه، والطرف النشط سيظل ينشط بدون توقف شاغلا نفسه بكل الأشياء وأي الأشياء إلى أن يسقط سقوطا مريعا لأول اختبار لقوته ومناعته ؛ لأنه قد استنفد كل جهده وطاقاته ولم يدخر منهما شيئا لما تسفر عنه الأحداث أو الأيام " الدور المتوحش للدولة والذي جعلها تتجه لأن تستحوذ على كافة فروع النشاط الاقتصادي – انتاجيا كان أم خدميا – وبشكل مبتسر ومرتجل في أحيان كثيرة جعلها تفقد قدرتها على القيام بوظائفها الأساسية، ولقد مر على جيلنا حين كنا فيه نسخر بشدة من اولئك ((الليبراليين الجامدين)) الذين قصروا وظيفة الدولة على ((الدفاع والأمن والعدالة)) ! على أساس أن منطق العصر يفرض تدخل الدولة لتحقيق الكفاية والعدل، أي العدل الاجتماعي وفي ظل هذا المنطق توسعت سلطات الدولة الناصرية لتشمل كل شيء واي شيء. ووصل المر إلى حد أن كلفت القوات المسلحة بإدارة مرفق النقل العام بالقاهرة، عندما عانى هذا المرفق من مشاكل...

غير أن هذا الدور الاجتماعي والاقتصادي المتنامي للدولة وايا كانت عوائده الإيجابية، لم يشفع لها عند المواجهة مع العدو الخارجي، وفشلت في إحدى وظائفها الصلية والأولية، أي: الدفاع عن تراث الوطن، ولا شك أن أي

مصر ي كان يفضل – في ٥ يونيو١٩٦٧–أن تفلح الدولة الناصرية في الدفاع عن أرضه أكثر من أن تفلح في إدارة المجتمعات الإستهلاكية، أو إنتاج الأفلام السينمائية " [٦١]

معضلة الدولة

الدولة هي القادرة على تحقيق الجنة الموعودة للمجتمع،وأن توفر له أقصى حد من التقدم والرفاهية والرخاء، وهي القادرة – أيضا – أن تحول المجتمع إلى جحيم لا يطاق، هي القادرة أن تجعل أفراد المجتمع يسبحون بحمدها والثناء عليها وبذل كل غال ورخيص في تقويتها وتدعيمها، وهي السبب في جعل أفراد المجتمع يهاجمونها ويتمنون تخريبها وتدميرها ويعملون على زوالها، والتخلص من كل أثر ينتمي إليها،ذلك لأن بيدها كل الوسائل والأدوات والآليات التي تمكنها من فعل هذا وفعل ذلك، وتلك هي معضلة الدولة: **فلا يمنع تقديس الدولة المحبطين منها أو المهمشين بسبب سياستها من النزوع إلى تدميرها، ولا يعني تدميرها هنا إلا الانتقام منها، ولا يترجم في البحث عن أي بديل لفكرتها كحامل للمجتمع وضامن له وكافل ومرشد، وهذا يفسر تجاذب مجتمعاتنا بين وضعين، وضع تحتل فيه الدولة كل فضاء مادي ومعنوي، وتظهر الدولة فيه كمصدر لكل إنجاز، ووضع نقيض تماما يسود فيه رفض الدولة والانتفاض عليها وتحقيرها والانتقام منها، ونحن ننتقل من دون مقدمات من الثورة في سبيل الدولة إلى الثورة على الدولة، فهي بقدر ما تمثل هذه الداة الخطيرة للتقلب وقلب الأوضاع وتثويرها، تهدد بأن تتحول إلى مهد الانقلاب وعلة التنازع والصراع لكن الدولة تبقى سيدة المقام ويبقى النفوذ إليها والتحكم بها غاية كل نزاع "**[٦٢]

[٦١] المحنة العربية: الدولة ضد الأمة – د. برهان غليون – صفحة (٢٩٧)
[٦٢] المحنة العربية: الدولة ضد الأمة – د. برهان غليون (٢٩٧)

لم نعد المجتمعات تستطيع أن تعيش أو تمارس حياتها بدون وجود الدولـــة، وذلك لأمرين:

- إنه الجهاز أو التنظيم الأوحد – حتى الآن – الــذي يــستطيع إدارة شئون المجتمع على مختلف المستويات سواء كانت مادية أومعنوية، مع الأخذ في الاعتبار ماضي المجتمــع وحاضــره والتفكيــر فــي مستقبلة... هو الدولة، وعلى ما نرجح لا لا يوجد شكل آخر أو نظام أو آلية غير الدولة، بل انه في بعض المجتمعات – ونحــن منهــا – يرتبط مصير المجتمع ارتباطا عضويا بالدولة، فسعادة المجتمع بيــد الدولة، وشقاؤه بيد الدولة وقوته وتماسكه، وضعفه وتفتته راجع إلى حالة الدولة، بمعنى أن الدولة تملك من أمور وشئون المجتمع مــا لا يملكه المجتمع من أمور وشئون نفسه، " لكن مأســاة هــذه الدولــة **التحديثية وعظمتها تكمنان في حقيقتها التاريخية التي تجعل منهــا أقوى آلة للارتقاء بالمجتمع حضاريا، واعظم وسيلة لسلب إرادتــه وتعميق تفتته واغترابه في الوقت نفسه، ولا يعادل ما تثيره هــذه الدولة من مشاعر التقديس إزاء مثالية أهدافها إلا ما تــدفع إليــه ممارستها المادية ومحدودية إنجازها من التبرم والاحباط والرفض** [٦٣].

- إن المجتمع الدولي لا يعترف إلا بهذا الشكل او النظام ليتعامل معه، ويمد إليه جسور الحوار والتفاهم، ويقيم معه علاقات من شــأنها ان تضع المجتمع في السياق العالمي للحضارة الإنسانية، وبــدون هــذا المجتمع سيعيش منعزلا ومتوقعا، وهذا يؤدي – لا شك – إلى تقهقره وتخلفه عمن حوله، ومن مهام الدولة الرئيسية – أي دولة – أن تدفع بالمجتمع ليس لمجرد أن ينخرط في الحضارة العالمية بل ليكون من

[63] المصدر السابق (٢٩٥)

المساهمين فيها ولو بقدر ضئيل يتناسب مع إمكانياته " والواقــع أن الدولة لا تنجح هنا في الاحتفاظ بالشرعية إلا بقدر ما تؤكد في كل خطوة تخطوها، وفي كل حركة تقوم بها مقدرتها على رعاية التقدم والرد على المطالب والآمال، أو باختصار على تحقيق الاندماج في الحضارة، إن وجودها نفسه لا يأخذ معناه إلا لأنهــا تجــسد فــي عقلانيتها ورشدها وحــسها التــاريخي والعــصري وأخلاقيتهــا، التعويض المباشر عن غياب المعنى والوعي والأخلاق في مجتمــع يتمثل نفسه ككتلة هلامية، ومثال للجهل والأمية واللاعقلانية " [64]

الدولة هنا كأنها بطاقة تحقيق الشخصية للمجتمع،والتي علــى أساســها سيتعامل المجتمع الدولي معه، وبالتالي سيحدد نوعيــة العلاقــة التــي سيتعامل من خلالها معه. إذن المجتمع في مسيس الحاجة إلــى الــدول داخليا وخارجيا، وعلى هذا فمبدا وجود الدولة مبدأ بدهي ولا يتصور ولا يتخيل وجود مجتمع بدون دولة، وإذا كان هناك رفض ونقد للدولة، فهو رفض ونقد لنوعية تلك الدولة وأسـلوب أدائهــا والوســائل والآليــات والتقنيات التي تستعين بها أو الفكر والأيديولوجية التي تعتمدها وتتبناها في طريقة تعاملها مع مع مجتمعها داخليا، وكذلك مع المجتمــع الــدولي خارجيا " **بالتأكيد يمكن القول اليوم أن الدولة بفضل ما حققته من تعزيز للتوازنات الخاصة التي تقدم عليها، وبسبب المكاســب التــي حققتهــا للمجتمع على صعيد الخدمات، مهما كانت طبيعتها، لم تعد مهددة فــي مبدأ وجودها، ولكن هذا لا يمنع ان الدولة سوف تظل تعيش هنا، طالما لم تنجح بعد في التكون كدولة وطنية وديمقراطية تحت التهديد الــدائم بعدم الاستقرار، وهذا السياق الصعب لعلاقة الدولة بالمجتمع والأمة هو الذي يجعل الفروق بين فترات الأزمة وفترات الاستقرار، فترات الوحدة**

[64] المصدر السابق (٢٩٣- ٢٩٤)

وفترات الانقسام، فترات الانجاز وفترات الإخفاق ضعيفة جدا وأحيانـا صعبة الادراك في مسار المجتمعات التابعة "[65]

على هذا فعلى الدولة ألا تشغل نفسها بتدعيم وجودها ؛ لأن هـذا أمـر مفروغ منه ولا يختلف اثنان عليه، ولكن ينبغي عليها أن ترتقـي بهـذا الوجود وتسمو بكيانها، من خلال الالتصاق بالمجتمع واسـتلهامه القـيم والمبادىء التي ينشدها، إنها إذا فعلت ذلك – وليس أمامها خيار آخر – تكون قد منحت لوجودها قيمة خلقية، ونفخت في كيانها روحا من شانها أن تحقق للمجتمع ليس ما ينشده في الوقت الحاضر فحسب، ولكـن مـا يمكن ان ينشده مستقبلا، أنها تفتح للمجتمع آفاقا ومجالات للتقـدم الجـاد والتطور الخلاق " إن الدولة الحديثة ولدت مباشرة من فكرة ان الدولة مسئولة عن مصير الجماعة ومستقبل كل فرد فيها، وهـوالمر الـذي يبعث فيها روحا أخلاقية توجهها في خطواتها وتحثها علـى تحسـين الأوضاع ونشر المعرفة وتطوير التقنيات وتشريع القـوانين ومعالجـة الظلم وترقية التنظيم بدل التسليم للأمر الواقع، وفي هذا السـياق ولـد المفهوم الجديد للسياسة: الاهتمام بالمجتمع بـدل اسـتغلاله لتحقيـق أهداف لا تنبع مباشرة من حاجات تقدمه المادي الواضح سواء أكانـت أهدافا مجيدة أو وضيعة ن دينية أو دنيوية، وهذا التصور هـو الـذي سمح بنشر سوق سياسية أعني ساحة تتصارع فيها شـرائح النخبـة الاجتماعية المتعددة والمختلفة وتتنافس على تحقيق التقدم للمجتمـع، بدل أن تغرق في الصراع على السلطة وتغرقها معها بوصفها غنيمـة حرب أو وسيلة ردع عقائدي "[66]

[65] المصدر السابق (٣٠٠- ٣٠١)
[66] المصدر السابق (١٣٧)

لابد أن يشعر أفراد المجتمع بروح الدولة تهدي وترشد وتلهم، وتبدد مشاعر القلق والاحباط والحيرة وسوء الظن، بأن تؤصل وتدعم وتقوي القانون والعدالة والمساواة، واحترام حقوق الإنسان، ولابد أن تكون هي الضامن – وليس الناقض والمعتدي والمخرب والمدمر – لكل تلك القيم، وأولى لها أن تفعل ذلك بدلا من أن تقوي وتزيد من قوتها المادية التي تحاول بها إرهاب أو ردع أو تخويف المجتمع أو أي تيار يبغي إصلاحها أو تقويمها أو نقدها " **فالدولة التقنية الحديثة هي في الواقع بنت الدولة الوطنية الحديثة، دولة الأمة والإرادة الواحدة، والقانون والعدالة الموضوعية، أي الموحدة التي تطبق بالتساوي على الجميع، والتي يقوم على خدمتها موظفون مدربون يخضعون في ممارستهم هم أنفسهم لقواعد محددة لا تتبدل بتبدل بشخص الحاكم أو المحكوم، وينطبق ذلك على إدخال مفهوم القانون الذي تطور في معارضة الأشكال المختلفة للقضاء الخاص الذي كانت تمارسه قوى غير مركزية دنيوية أو دينية والتي لم تكن القوانين المطبقة فيه واحدة في ما يتعلق بالجماعة السياسية كافة، ولم تكن كذلك مطبقة بشكل واحد على الجميع، بل والتي ليس لتطبيقها نفسه اي ضمانة حقيقية واضحة. ومن هذا النمط الجديد للدولة، دولة القانون، تنبع الحاجة لمفهوم السيادة والديمومة التي تدافع عنها الدولة الحديثة بقوة، فالسيادة والديمومة من الشروط الضرورية لتحقيق هذا النمط من القانون العام الموضوعي والمستقل، وغيابهما يحرم الدولة من أن تكون المرجع الأعلى وبالتالي الضمانة الفعلية لتطبيق القانون، كما ان شخصنة العدالة يمنعها من الاستقرار ويحد من الطابع العقلاني لتطبيقها** " [٦٧]

---

[67] المصدر السابق (١٣٧)

ولكن إذا كان للدولة كل تلك الأهمية والخطورة، والأثر البعيد المدى على المجتمعات في حاضرها ومستقبلها، فما الذي يؤدى إلى تراجع هذا الجهاز والتقهقر والانتكاس ؟

وكيف يحدث هذا الأمر في بلد ((مصر)) كانت من أقدم من عرف شكل الدولة ؟

ليس من سبب واحد يجعل هذا الجهاز الضخم المعقد العتيق ينتكس وإنما جملة أسباب تتجمع وتتكتل لتشكل قوة تحارب-وتصارع بل وتقاتل بشراسة حتى تؤدي في النهاية إلى انتكاس الدولة.

وهذا لا يتم في يوم وليلة ولا على مدى سنوات، انتكاس الدولة يتم ويكتمل على مدى عقود من الزمن، ويمر بعدة مراحل كل مرحلة تسلم للأخرى.ومن الأسباب التي تؤدي إلى انتكاس الدولة:

- مركز الحاكم في الدولة المصرية

مرت كل المجتمعات الإنسانية بمرحلة تأليه الحاكم أو تقديسه أو تبجيله او إحاطته بهالة ومكانة متميزة ومميزة، بحكم الصلاحيات التي خولها له المحكومون أو التي استحوذ عليها ومنحها لنفسه، أو منحها له المحيطون به. ولكن تلك المكانة بدأت تأخذ وضعها الطبيعي والمنطقي بتطور المجتمعات وتدرجها في مراحل التقدم، ومن خلال سعي الأمم والشعوب والمجتمعات سعيا حثيثا على خريتها، والوقوف أمام أي نص أو شخص يحاول الانتقاص من تلك الحرية، وكانت الثورات والانتفاضات والاصلاحات أو ما حدثت كانت في وجه هؤلاء الحكام الذين تصوروا أن الشعوب إرث يرثونه، وبمقتضى هذا التصور، للحاكم مطلق الحرية في ان يفعل ما يشاء بدون حسيب أورقيب، والمحكومون ان يفعل بهم ما يشاء بدون اعتراض أو احتجاج.

جاءت الثورات والكتابات والمفكرون والمصلحون والثائرون على مدى التاريخ الإنساني ليصححوا هذا الاعوجاج ويقوموا هذا الانحراف ويزيلوا هذا الفساد، وقدمت الإنسانية الكثير من التضحيات لتحقق هذا الممل والهدف والغاية الغالية والنبيلة، لا أن ينزلوا الحاكم من عليائه ويهبطوا به من سماواته فحسب، بل يكون لهم الأمر والشأن في اختياره، والأمر كذلك – إن شاءوا – في عزله وإبعاده، ومحاكمته ومحاسبته عما جنت يداه وعما قدم وأخر، ووضعوا من القوانين ما يغل يده ويحد من سلطاته، ويقلل مكن صلاحياته، حتى وصل المر في الدول المتقدمة إلا يستطيع أن يقطع بأمر ذي شان أو يبت في مسألة هامة إلا بعد مشاورة وموافقة وتأييد المحكومين الممثلين في مؤسسات تشريعية.

كل هذا – كما قلنا – كان نتيجة كفاح طويل وجهاد مرير، لكي ينزل الحاكمون على رأي المحكومين، وتكون سلطتهم هي المنفذة والماضية وليس العكس. ولكن لأمر ما في الدول العربية مازالت مكانة الحاكم، لا نقول إنها كما كانت في الماضي – فالثورات التي حدثت وتحدث زلزلت من شان تلك المكانة والمنزلة – ولكن مازالت لا تماثل ولا تشابه وضع وركزومكانة الحاكم في الدول المتقدمة، فلا قانون يحد من سلطاته، أو يقلل من صلاحياته، فما زال رأيه هو الرأي وكلمته هي المنفذة بدون مراجعة أو اعتراض. وكل الأضرار والمصائب والكوارث التي تتعرض لها الشعوب والأمم نابعة من هذا الوضع، فالدولة بجميع مؤسساتها ومرافقها وتوابعها تختزل في شخصية الحاكم الفرد الإنسان، هنا ارتبط شيء ثابت وراسخ وباق بإنسان متغير ومتذبذب وفان، ليس هذا فحسب بل علقت مصير ملايين من البشر بحاضرهم ومستقبلهم بمشيئة ورغبة ومزاج ورؤية وعمل وتفكير شخص، إنه وضع مأسوي، بل هو عبثي بكل معنى الكلمة، وربما تخلف الشرق والدول العربية خاصة ومصر على وجه اخص راجع إلى هذا الأمر،

كيف لتلك الملايين من البشر يتوقف سعادتها أو شقاؤها على فرد، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده " إن هذه القيمة المحورية للفرد في التاريخ السياسي المصري، وتجسيده للدولة، ربما تفسر حقيقة أن نهضة مصر وانكسارها في اغلب مراحل تاريخها إنما ارتبطت ((بالحاكم)) بشكل مباشر، فارتفعت بفتوحاته وهوت بإخفاقاته، ومالت وفق تفضيلاته وأولوياته، وهل يمكن هنا – إذا اقتصرنا على العصر الحديث – أن نغفل ما فعله محمد علي عندما نقل مصر في ثلاثة عقود من بلد غارق في التخلف بكل ابعاده إلى اكبر قوة صناعية عسكرية في إقليمنا،وأمتدت فتوحاته إلى السودان وحدود الأناضول مرورا بالجزيرة العربية وفلسطين وسوريا وجبل لبنان، إلى حد أرغم القوى الأوربية أن تتحالف لكسر طموحاته وتقليم أظافره ؟

الأمرنفسه ينطبق على ما فعله الخديوي إسماعيل وجمال عبد الناصر، وألم يغيرأنور السادات – في ثلاث سنوات فقط – توجهات مصر الداخلية والخارجية من النقيض إلى النقيض: من الإشتراكية إلى الانفتاح الإقتصادي، ومن الحزب الواحد إلى التعدد الحزبي، ومن الحرب ضد إسرائيل إلى السلام معها ؟ "[68]

نعم، في الماضي السحيق كانت هناك ظروف وأوضاع وأحوال جغرافية وتاريخية ومحلية وعالمية حتمت أن يكون الحاكم على تلك الصورة، وإن كانت كل تلك الظروف لا تبرر هذا الوضع،وإنما هي رغبة وطمع ونهم وشره الحاكم الفرد مطلق الصلاحيات غير محدود السلطات، إلا أن تلك الرغبة من الحاكم لم تقابل برفض أو اعتراض من قبل المحكومين، وبدأت تلك الهالة تقوى بمرور الوقت، ولأخذت الفجوة تتسع بينهما أو يترفع ويتعالى وينعزل الحاكم عن المحكومين.زالت تلك الظروف والأوضاع والأحوال، ولكن ظلت

[68] مصر تراجع نفسها – د. أسامه الغزالي حرب – (١٥٣)

مكانة الحاكم في نفوس وعقول المحكومين، نعم، هي لا ترتقي ولا تصل إلى ما كانت عليه في الماضي، ولكن ظلت سلطاته وصلاحياته تخلق منه وضعا شاذا وحالة مربكة، وظرف – لا شك – يؤدي إلى كوارث مأساوية "ولكن التراث السياسي المصري الذي يعود إلى أيام الفراعنة، يعبر عن نموذج معاكس تماما، وربما يبدو غريبا ان ترجع بتفسير الأوضاع السياسية في مصر آلاف السنين إلى الوراء، ولكن الحقيقة البسيطة التي بررت ظهور السلطة المركزية القوية منذ ذلك التاريخ السحيق ن لا تزال قائمة حتى الآن، أي حقيقة وطبيعة علاقة المصريين بنهر النيل، وما يترتب عليها من تنظيم للدولة والمجتمع " [69]

إنه شبح ينحدر إلينا من الماضي السحيق، ومع ذلك فما زال يجد له مكانا، ويجد من يرحبون به ويدعونه، هؤلاء الذين لا يحبون ان يندفعوا إلى الأمام، لأنهم ليسوا مؤهلين لذلك، أو لأن كل مصالحهم متعلقة بهذا الماضي المقيت واشكاله المتهاوية ورموزه المتعفنة، وهم وإن كانوا لا يجرأون على إعلان وتأييد تلك الفكرة وهذا الوضع – صراحة – إلا أنهم لا يرفضونها بل ويحبذونها، ولكن في مواربة وتدليس، لأنهم يخشون أن يستفزوا مركز المقاومة ومواطن الاعتراض من المحكومين.

اختلال في البنية السياسة للدولة

لابد أن يكون هناك توازن بين أجهزة ومؤسسات الدولة، فلا يطغى ولايهيمن جهاز على جهاز ولا مؤسسة على مؤسسة،وإن حدث ذلك – وقد حدث في بنيان الدولة المصرية مؤخرا – فهذا نوع من السرطان، قد يستشري في كيان الدولة ويقوض بنيانها، وللأمر ما، تجد مؤسسة أو جهاز معها كل الصلاحيات ومكزة فيها كل الفاعليات، وتملك من أمور الدولة ما تملكه بقية

[69] المصدر السابق (١٥٢)

المؤسسات او الأجهزة، وهذا امر ينذر بالخطر، بل يشكل تهديـدا للتوافـق والتناغم بين لجهزة الدولة ومؤسساتها ؛ لأن أي مؤسسة تحصل على مزيـد من الصلاحيات أو تعز بأي اهتماما اكثر، هذا يكون علـى حـساب بقيـة المؤسسات، فههنا قوة يقابلها ضعف هناك، وهنا مزيدمن الصلاحيات يقابلها سحب أنتقاص صلاحيات في جهة لخرى، هنا فعالية ونشاط يوازيها جمـود وخمول في ناحية أو جهة اخرى من الدولة.

ودائما نجد تلك المؤسسات التي تتميز بنوع خاص، هي القريبة أو الملاصقة للحاكم، فلأنه يتمتع بنوع من التميز والاسـتثناء والـصلاحيات المطلقـة، والقرارات النافذة، فهذا الوضع يضفي على القريبينمنه سواء كانوا أشخاص أو مؤسسات نفس الهالة التي يتمتع بها، والدولة مثل السفينة إن لـم تـوزع الأحمال على متنها بالتساوي والعدل فقد يميل أحد جانبي السفينة، ومع أول عاصفة – مهما كانت هينة– قد تغرق تلك السفينة " إن هذا الثقـل الـشديد والاستثناء للحاكم الذي تتجسد فيه ((الدولة)) فـي مـصر لا يوازيـه إلا الضعف الشديد لكل ما عداه ممن مؤسسات خاصة ما يمكن ان نعتبره مـن مؤسسات ((المجتمع المدني)) وبعبارة أخرى فإن الظاهرتين: قوة الحـاكم المجسدة لسلطة الدولة – من ناحية – وضعف المؤسسات التي يفترض أن تقوم بين الحاكم والمحكومين – من ناحية اخرى – تبدوان متكاملتين فـي التريخ الاجتماعي والسياسي لمصر، وتعودان إلى نفس الأسباب الجغرافية والاجتماعية وترتبطان بنفس الثقافة السياسية " [٧٠]

---

[70] المصدر السابق (١٥٣)

انعدام تداول السلطة

تلك المكانة المهيمنة والمسيطرة لمركز الحاكم في الدولة تلقي بظلالها القاتمة على كل شيء في المجتمع، فهناك القمع والظلم والتسلط والاستبداد، لأي صوت أو تيار أو فكر يطالب بأي أو بأدنى تغيير لهذا الوضع، ويقوم النظام بعملية تجريف جبارة للنخب في المجتمع حتى تنعدم البدائل للوضع القائم، أو لكي لا تظهر شخصيات قد تسرق الأنظار أو تحوذ على أعجاب وتقدير عامة الشعب، وقد دأبت السلطة من عهد سحيق أن تقوم بعملية استئصال أو بتر لكل ما من شأنه أن يمثل بادرة ممكنة لتداول السلطة، على هذا فلا تنتظر ديمقراطية أو حرية رأي، وطالما غابت الديمقراطية وحرية الرأي عن المجتمع فلا تنتظر أي خير أو تقدم في هذا المجتمع، فهذا المجتمع مقهور أو مسجون، مكبل بكل أنواع وأبشع وأسوأ القيود، هنا لا يبحث الحاكم أو النظام على ما يفيد المجتمع أو ما يعمل على تطوره أو تقدمه، إنه في شغل عن كل هذا، شاغله الأهم والأوحد هي الوسائل والأدوات والاساليب التي يستعين بها ليظل متشبثا بالحكم ومتمسكا بالسلطة، مع التضحية في ذلك بمصلحة المجتمع ويأمن وسلامة أفراده، والنظام يعتبر هذا الأمر معركته الخيرة ومعركة المصير بينه وبين المجتمع " **تشكل ظواهر انعدام آليات التداول الطبيعي للسلطة، واحتكار مراكز القيادة من قبل نخبات لا تتمتع في أغلب الأحيان بالحد الأدنى ممن الأخلاق المدنية والكفاءة المهنية وغياب الحريات العامة وتفاقم الانتهاكات اليومية لحقوق الإنسان، وفرض المراقبة السياسية والفكرية على الأفراد وهيمنة السلطة الشخصية من النمط الأبوي، والخلط المتزايد والفاضح بين الدولة والحزب الواحد والقبيلة أو الطائفية،وتعميم إجراءات العسف السياسي والقانوني والتمييز المكشوف بين المواطنين والقمع والعقاب الجماعيين، كل هذه الظواهر التي لا يمكن أن تخفى على عين مراقب، تشكل الحقيقة اليومية للسلطة في**

المجتمعات العربية، وتعكس القطيعة التي لا تكف عن التفاقم بين الدولة والمجتمع " [71]

تحولت الدولة إلى دولة فرد، فهو كالنواة أو المركز الرئيسي، أما المجتمع بأفراده فلا وجود لهما، وإن كان فهو وجود مهمش او وجود مستغل، والذي يزيد من فداحة المأساة أن يكون هذا الحاكم منتميا إلى حزب، أو بمعنى أوضح أن يكون هناك حزب منتمي إلى هذا الحاكم،

يتحول هذا الحزب إلى غول يغتال الدولة ويستنزفها لمصلحة ومنفعة أفراده، مستبعدا ومقصيا بقية أفراد المجتمع، ولا يتوقفون عند هذا، بل هم ينشرون الفساد والدمار والخراب في جميع ربوع الوطن، فلا رادع ولا وازع لهم يمنعهم عن ذلك " **وعندما أصبحت الدولة دولة الحزب والطبقة والمصلحة الخاصة، وصارت وظيفتها تمكين أصحاب المصالح والجماعات المسيطرة من احتكار الثروة والسلطة التي تسمح لهم في الاندماج وحدهم في الدورة الرأسمالية العالمية والحضارية،أصبحت تنتج عكس القيم الحديثة التي كانت في أصل شرعيتها، أعني قيم التمييز والقهر والعصبية، فتهدمت فكرتها لدى عامة الشعب، وضعف إيمان النخبة الاجتماعية نفسها بها وطال تلك الفكرة الحديثة التي احتضنتها وأصبحت كوسيلة ومبدأ في الصميم "** [72]

أكذوبة الاستقرار:

هناك مستجدات ومبررات محلية وأخرى عالمية تستدعي إحداث تغييرات وتجديدات في بنيان الدولة وكيان المجتمع كي يتواءما ويتوافقا مع تلك المستجدات،هذا من ناحية ومن ناحية اخرى أن مصالح الناس تستدعي وضع قوانين وتشريعات تحتوي تلك المستجدات او تتعامل معها مما ييسر أمر

[71] المحنة العربية: الدولة ضد الأمة – د. برهان غليون (١ ٠ ،
[72] المصدر السابق (٢١٧-٢١٨)

الناس ويحقق لهم ما يرجونه من نفع وفائدة،ولكن لم يحدث سن مثـل تلـك القوانين أو وضع مثل تلك التشريعات، ووقع الناس فـي عنـت وتعطلـت مصالحهم، وتعقدت معاملتهم، وحدث هذه بصفة ملحة في السبعينيات، ففـي هذا العقد تعرضت مصر لكثير من التحولات والتغيرات، منها ما كان محليا ومنها ما كان إقليميا ومنها ما كان عالميا، هنا تحتم الـضرورة والـصالح العام أن يؤخذ في الاعتبار والاهتمام تلك التغيرات لنتعامل معها بكل صدق وموضوعية وواقعية، رائدنا في ذلك تحقيق مصلحة المجتمع، وإن لم يحدث ذلك، سيجد المجتمع نفسه في مأزق حرج وأزمة خانقة تتفاقم مـع الأيـام، وبتوالي المستجدات والمتغيرات التي لا يتوقف سيلها ومسارها " ولا شك أن **مصر شهدت – خاصة منذ منتـصف الـسبعينيات – تطـورات اجتماعيـة واقتصادية عميقة، تستلزم إحداث تغييرات تشريعية كبرى تواكبها، ولكن ما حدث بالفعل أنه – بدافع من الحرص على الاستقرار والتخوف من عواقب التغيير – لم تتحقق تلك التغييرات التشريعية الكبرى، وبدلا من ذلك غمـا ظهرت حالات ووقائع جديدة ومتفاقمة لا تجد التشريع الذي ينظمها وإمـا انه وضعت قوانين ولوائح تعالج امورا جزئية هنا وهناك... واضيفت إلـى ترسانة القوانين القائمة، على نحو كثيرا ما يعوق المعاملات الاجتماعيـة والاقتصادية أكثر مما ييسرها "[73]**

وأن يحدث في المجتمع – بحكم أنه مجتمع حي ومتطور ومتقدم – تغييرات وتحولات وتبدلات، فهذا شيء طبيعي ووضع منطقي، والوقوف ضد تلـك المستجدات والمتغيرات أو عدم الاستجابة لها، هـو نـوع مـن التحجـر والتصلب، والتحجر والتصلب صور أو مظاهر من المـوت،ولكن الحـاكم وحزبه يرون أن أي تغيير فيه الكثير من التهديد لوجودهم وبقائهم،لذلك فهم يقفون أمام كل وأي تغيير، ويـضعون العقبـات والعراقيـل أمامـه، بـل

[73] مصر تراجع نفسها – د. أسامة الغزالي حرب – (١٨٥)

ويحاربونه، معلنيين انهم يريدون الاستقرار، مع ان ما يريدونه ليس استقرارا ولكن جمودا وموتا،فهم يلبسون على الناس ويدلسون عليهم،نعم، فإن الهدف الأسمى لأي مجتمع هو الاستقرار، وهو في حقيقته نهاية مراحل متعددة ومتلاحقة ومترابطة ومتتابعة، يمر بها المجتمع،مراحل من التقدم والتطور والرقي والارتقاء المادي والمعنوي، ويستقر المجتمع حينما يستقر أفراده، ولا يستقر الأفراد إلا حينما يشعرون بالأمن والأمان على حاضرهم ومستقبلهم، وأن كرامتهم وآدميتهم وإنسانيتهم مصانة ومحاطة بسياج من القانون، وإن كل ما يحلمون به موجود ومتوافر في ربوع وطنهم، وأن جميع المجالات والأفاق مفتوحة أمامهم لتحقيق ذواتهم وتأصيل شخصياتهم... إذا شعر الأفراد بالاستقرار سينعكس هذا على المجتمع كله،والمسئولة على ذلك كله هي الدولة، ليس مسئولية تنفيذ، ولكن مسئولية فتح سبل وطرق أمام أفراد المجتمع، وحث وحض وتشجيع وتذليل أي صعوبة تحول بينهم وبين تحقيق وتنفيذ آمالهم،وتحويل أحلامهم إلى واقع معاش، فإذا كانت الدولة حريصة على توفير هذا كله، فهي – لا شك – واصلة هي والمجتمع على مستوى من الاستقرار لا مثيل له، فإن أهملت هذا وغفلت عنه،وانشغلت وشاغلت نفسها بأمور أخرى، بأن سعت لتحقيق مصلحة حزب، أو مصلحة فئة معينة من فئات المجتمع أو...أو.. فسوف نجد المجتمع كأنه ساحة اضطراب وفوضى وتنازع وتدابر وخصام وصراع وعنف وتقاتل " **وأهم وأبسط معاني الاستقرار هو انعدام أو ندرة العنف والاضطراب في المجتمع، فالنظام السياسي المستقر هو ذلك النظام الذي يعاني مظاهر مثل الانقلابات، ومحاولات الاغتيال، وأعمال الاحتجاج الجماهيري مثل المظاهرات والاضطرابات والاعتصامات...إلخ، ومع ذلك فإن هناك مظاهر أخرى للاستقرار السياسي مثل استقرار المؤسسات السياسية واستقرار السياسات العامة، والاستقرار التشريعي... إلخ، والاستقرار السياسي قد يكون مطلوبا**

لذاته ولكنه أيضا شرط ضروري للازدهار الاقتصادي والاجتماعي، وعنصر لقوة الدولة في مواجهة العالم الخارجي "[٧٤]

ولكن في أحيانا تعجز الدولة – لأسباب كثيرة – عن جلب الاستقرار للمجتمع، ولكنها لا تعجز عن إحداث شكل أجوف للاستقرار، بان تخلق وهما لدى المجتمع، وذلك من خلال تسخير كل وسائل الإعلام التي تملكها، بأن المجتمع يشهد تقدما وتطورا، لا مثيل له، وهناك نمو في الميزانية وانخفاض في نسبة التضخم،والأرقام والحسابات – التي لا يفقه أحد منها شيئا – تدلل وتبرهن على ذلك،ومجتمعنا أفضل وأحسن حالا من كثير من المجتمعات الأخرى،وأن على المجتمع أن يقبل يده ظهرا لباطن، أن وفرت له الدولة هذا القدر من مستوى المعيشة حتى ولو كان متدنيا بعض الشيء، وان الدولة مثقلة بالأعباء والمهام الثقال، الدولة هنا كالطبيب الفاشل، الذي لم ينجح في علاج مريضه، فحاول أن يقنعه أنه سليم ومعافي، قد يقتنع المريض بذلك ويتصرف تصرف الإنسان السليم، ولكن في حقيقة الأمر هو مريض، وأن الذي نجح فيه الطبيب أنه أوهمه بل وخدعه ولم يعالجه كي يسير في طريق الشفاء **" الحرص الشديد على ((الاستقرار))أدى في أحيان كثيرة إلى وجود ((شكل)) الاستقرار أو ((مظاهره)) دون مضمونه أو أن يكون الحفاظ على قيمة الاستقرارقد تم مقابل التضحية بقيم سياسية أخرى أكثر حيوية وديمومة " [٧٥]**

ولتأصيل وتأكيد هذا الوهم، يعمد إلى الإبقاء على كل شيء بدون تغيير أو تبديل حتى الأشخاص في أماكنهم ومناصبهم، حتى لو ظهر وثبت أنهم غير صالحين،أو فاشلين أو فاسدين، أو انهم استنفدوا واستهلكوا ولم يعد لديهم ما يضيفونه، أو أنهم وصلوا إلى سن

---

[74] المصدر السابق .

[75] المصدر السابق ١٠٠، ٤

ومرحلة متأخرة ينبغي فيها أن يحالوا للتقاعد، كي يحل غيرهم لديهم من القوة والحيوية والفكر والإبتكار ما يثروا به المجتمـــع، وهنـــاك مبررات تحتم – إلى حد ما – بقاء مسئول ما في منصبه على غيـــر المعتاد، وهو أن توجد استراتيجية أو خطة أو مشروع عملاق يـــراد تنفيذه والانتهاء منه، وأن الخير كل الخير ان يبقى هـــذا المـــسئول لإكمال هذه الخطة أو المشروع " **ثبات واستمرار سياسةعامة معينة هو أمر مرهون – أساسا بوجود استراتيجية واضحة للحزب الحاكم أوالحكومة، وفي هذه الحالة فقط، فإن استمرارية المسئول الملتزم بتنفيذها يكون شرطا مساعدا على استقرار تلك السياسة وليس هذا الشرط الأساسي** "[٧٦] وبقاء المسئول بـــدون مبـــرر مـــن مـــصلحة المجتمع، هذا الوضع يخلق ما يسمى بمراكز القوة، وذلك من خلال بقاء المسئول مدة طويلة في منصبه، ولا يوجد من مبــــررات بقائـــه جدارته أو كفاءته أو إنجازات تحسب له،كل ما في أن هناك شـــبكة علاقات اجتماعية، لرعاية مصالح شخصيات بعينها او فئة محـــددة، أو تنفيذ خطة ما أومخطط، بالتأكيد ليس في مصلحة المجتمع أو في صالح أفراده" **فإن استمرارية بعـــض المـــسئولين فـــي مـــواقعهم التنفيذية لفترات طويلة يمكن أن يخلق مراكز للنفوذ وشبكات مـــن العلاقات والمصالح الخاصة، ما لم تتوافر رقابة فعالة، سواء مـــن جانب السلطة التشريعية أو من جانب الصحافة والرأي العام أو من جانب الهيئات الرقابية الرسمية، وليست ظاهرة الـــشللية ومراكـــز القوى بغريبة عن السياسة المصرية، ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا الوضع من سلبيات على نوعية وتوجهات السياسة العامة، فـــضلا عن استمراريتها، فوجود تلك المراكز للنفوذ وما يخلفه مع الوقـــت**

---

[76] المصدر السابق (١٨٣)

من شبكات من العلاقات والمصالح يمكن أن يخلق توجهات تختلف أو تتناقض مع توجهات السياسة المعلنة في مجال بعينه، كما أن هذه الشبكات قد تتحكم في اختيار القيادات بمعايير ذاتية تؤثر على كفاية تنفيذ السياسات العامة "[77]

غياب القانون

يعتبر القانون من أهم دعامات الدولة، وإذا كان يغتفر غياب أي دعامة من دعامات الدولة – لسبب ما – فإنه لا يغتفر بأي حال من الأحوال غياب القانون ؛ لأن لا شيء يمنح للدولة شرعيتها ومبرر وجودها، واستمرار بقائها مثل القانون، فهو بمثابة روح الدولة، أو الدماء الطاهرة النقية التي تضخ في في كل خلية من خلاياها، ليصح كيانها ويقوى بنيانها، ومن أول واجبات الدولة وأهمها، العمل بكل جهد على توفير ضمانات لتنفيذ القانون بكل حرية وعدل على أرضها، وأي دولة تختار هذا الطريق فقد اختارت الأمن والسلامة، ووصلت من أقرب طريق إلى التقدم والتطور لمجتمعها وأفراد هذا المجتمع،ولا مناص لأي دولة أو أي جماعة من أن تتحرى تطبيق القانون ؛ لأن بدون ذلك سينتشر الظلم، وإذا انتشر الظلم وافتقد العدل، فهذا بشير للفساد والخراب، ما هي إلا فترة قصرت أم طالت حتى تتقوض أسس الدولة وينهار بنيانها، لأن العدل أساس الملك، فلا بقاء ولا دوام لأمة أو دولة لم تؤسس على العدل، وأكثر شيء يسرع بزوال الأمم أو الحضارات أوالدول أو الأنظمة هو الظلم بقول الحق تبارك وتعالى مبينا عاقبة الظلم:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾يونس: ١٣

[77] المصدر السابق (١٨٣)

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الكهف: ٥٩

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النمل: ٥٢

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ الأنعام: ١٣١

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ هود: ١١٧

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنبياء: ١١

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ الحج: ٤٥

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ الحج

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن

تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المائدة: ٤٥

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ القصص: ٥٩

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل: ٩٠

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ الأنعام: ١١٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة: ٨

الأيات السابقة بينت أن للظلم نتيجة واحدة، وهي الهلاك والدمار، وكأن أسوأ ما تبتلى به الأمم والشعوب والدول هو الظلم، وتستطيع المجتمعات أن تتحمل كل ألوان المعاناة والمكابدة إلا الظلم ن وفي الإمكان ان تدوم وتستمر الدول والأمم وقد ابتليت بكل أنواع الابتلاءات والآفات إلا آفة الظلم، فلا يوجد شعب ما لديه القدرة على احتمال الظلم إلى ما لا نهاية ن ولابد ان يأتي وقت ويثور هذا الشعب، ليدفع عن نفسه الظلم، لأن إذا كان أي شيء وكل شيء له مبرر ومسوغ، فالظلم هو الشيء الوحيد الذي لا تجد له مبررا أو مسوغا، هذا بين الأفراد بعضهم وبعض، والأمر يكون أوقع إذا كان متعلقا بالدولة، فما مبررالدولة – وهي القادرة والمهيمنة والمسيطرة – ألا تقيم العدل وتعمل على تنفيذ القانون ؟!

بل ما مبرر الدولة ان تكون أول الخارقين للقانون ؟

نعم، فالدولة المصرية في العقود الماضية دأبت وداومت على عدم تنفيذ ما يصدر من أحكام قانونية إذا كانت تلك الأحكام تمس مؤسسة من مؤسساتها أو هيئة من هيئاتها، وبذلك اعتبرت نفسها فوق القانون، ولا أحد يعلو فوق القانون، ولكن هناك من يتصادم مع القانون، وأيضا هي تعمل على تنفيذ ما يحلو لها من أحكام القانون ولا تنفذ ما لايحلو لها، فهناك الألاف من المسجونين السياسيين أصدرت المحاكم بشأنهم أحكاما بالبراءة، وتمضي عشرات السنين وهم قابعون وراء جدران السجن، وهناك أحكام بشأن مؤسسات وهيئات بان تحل لأنها جاءت عن طريق التزوير، ومع ذلك بقيت متحدية إرادة القانون وإرادة المجتمع، أصبحت الدولة ترعى وتؤيد وتبارك خرق القانون، وحفل تاريخ الدولة المصرية الحديثة بما يسمى ((مذبحة القضاة)) وأخذت تتدخل بشكل فج بل وقح في سير العدالة، وأصبح هناك قضاة بعضهم مرضي عنهم، تمنح لهم كل الإمتيازات والمنافع ؛ لأنهم يسيرون مع الدولة حيث سارت ولو في طريق الباطل، وهناك قضاة بعضهم

مغضوب عليهم وملعونون من قبل الدولة ويحاربون في كل شيئ حتى في لقمة العيش، ذلك لأنهم أرادوا يرتفع صوت الحق فوق كل صوت، وترتفع ألوية العدالة فوق كل لواء.

معيار اوحد يظهر لك مدى تقدم الدولة أو مدى تخلفها، إذا رأيت القانون ينفذ بكل حزم وحسم، فأنت في دولة متقدمة متطورة قوية.

إذا رأيت الدولة لا تتحكم ولا تسيطر ولا تهيمن في سير العدالة، فأنت في دولة متقدمة متطورة قوية.

إذا رأيت القضاة لا سلطان عليهم سوى الحق ولا حافز لهم سوى العدل فانت في دولة متقدمة متطورة قوية.

ولأن الدولة المصرية أتى عليها حين لم تنفذ القانون أو لم تعمل على تنفيذه، وهيمنت على سير العدالة ظننا منها ان هذا في صالحها فقد نخر وامتد الفساد إلى الرأس وإلى النخبة أو المفروض أن يكونوا كذلك، والفساد ينتقل – كالوباء – بالعدوى، وحينما ارادت تطبيق القانون عجزت عن ذلك، لأن الأمر خرج عن يدها، وأيضا غدا طبق القانون فسوف يعري نواحي قصور وعجز وفساد أجهزة الدولة، وهذا من شأنه أن ينال من مفهوم الاستقرار الذي تحاول الدولة أن تدعمه وتقوية " وعند المقارنة بين ((متاعب)) **تطبيق القانون وبين ((مغانم)) السكوت عنه، فإن الغلبة ستكون للاختيار الثاني، انطلاقا من الحفاظ على الاستقرار! ويبدو أن هذا المعنى للاستقرار وجد أكثر من تطبيق له في عديد من نواحي حياتنا العامة، بحيث بدات تتراكم ظواهر عديدة لانتهاك القوانين والأعراف، وأصبحت على درجة من التضخم والتشابك بحيث تزداد تكلفة مواجهتها أكثر وأكثر، مما يجعل**

السكوت عنها شرطا ((للأستقرار)) وليس العكس ! وأصبح مفهوم ((تجنب المشاكل)) مفهوما مسيطرا في سلوك كثير من القيادات التنفيذية ![78]

الوقت من أسلحة الدمار الشامل

أن يقف شخص بدون أن يتقدم أو يتطور، هذا في حد ذاته كارثة ؛ لأن في الوقت الذي يقف فيه – والكون والعالم كله يتطور ويتقدم بسرعة مذهلة من حوله – سيفقد هذا الشخص التوافق والتواصل والتفاهم مع من حوله، وبالتالي سيصبح منعزلا وغريبا، وخارج السياق، ولما أخرج من السياق فقد أسقط ولم يعد له وجود فهو لا يشعر بمن حوله، لأنه هدمت وقطعت جسور التفاهم والتوافق والتواصل بينه وبينهم، وهم لا يشعرون به ؛ لأنه اختفى من عالمهم بعدم السير بنفس سرعتهم أو مجرد محاولة اللحاق بهم.

هذه كارثة بمن يقف ولا يتقدم، فما ظنك بمن يتقهقر ويتراجع ويعود إلى الوراء ؟ نعم هو يسير ولكن عكس عقارب الساعة، إن الكارثة هنا مضاعفة، بل نحن في حاجة إلى لفظ آخر

لأن الألفاظ والكلمات لا يوجد من بينها ما يصور هذا الأمر المأسوي لحال الدولة المصرية !

فيما مضى كانت حالة الدولة المصرية – إلى حد ما – تجسد صورة من صور الدولة الناهضة الفتية التي تاخذ بأسباب التقدم والتطور، وبدات تنظر فيما حولها بوعي وإدراك وتصلح من أمرها وحالها ووضعها، وتحاول جادة ومخلصة أن تساير وتجاري وتلحق بركب العالم المتقدم، لا سيما ولديها كل الأسباب التي تؤهلها لتكون واحدة من أسرة العالم المتقدم، لم يكن الأمر – حينئذ – إلا في حاجة من الوقت ومزيد من الجهد والإخلاص والجدية وتجميع وتوحيد الطاقات والإمكانات لتحقيق هذا الهدف الذي تصبو

[78] مصر تراجع نفسها – د. أسامة الغزالي حرب – (١٨٢)

إليه كل الأمم والشعوب، وبالفعل تم إنجاز مشروعات وأعمال تبشر بكل خير، وتؤكد وتبرهن أن الدولة تسير في الطريق الصحيح نحو هدفها، ولكن مؤخرا غيرت الدولة المصرية الدفة، وحولت من اتجاه أشرعتها، وتم تجميد أو إيقاف أو حل أو إلغاء أو تعطيل أو محو أو تبديد كل المشروعات والبرامج والطاقات والإمكانات والخطط والأهداف المزمع تنفيذها، بل التي بدأ تنفيذها بالفعل،وبدأت تؤتي ثمارها، سيقول البعض ان هذا حدث للظروف خارجة عن إرادة وطاقة الدولة المصرية، نعم، ولكنها صادفت هوى وقبول الدولة، أو لم تستنفر تحدي وعناد الدولة، فالطريق - عادة - للدول التي تريد تحقيق ذاتها وتجسيد أحلامها لا يكون مفروشا بالورود، وإنما هناك الأشواك والعقبات والمعوقات والعراقيل، وهناك - أيضا - العزم والتصميم، والدليل على ذلك أن كثيرا من الدول مرت بما مررنا به، بل لم يكن متوافرا لديها ما كان متوافرا لدينا، ولم تكن مهيئة كما كنا مهيئيين، ولم تعجز وتنفذ ما كنا قد أنجزناه ونفذناه، ومع ذلك نجحت فيما لم ننجح فيه، وحققت ما عجزنا عن تحقيقه، إذن ما سبب تقهقر الدولة وتراجعها، ما سبب هذا العجز والتقصير والتفريط " فإذا كان التساؤل البدهي الذي يثور هنا: **لماذا بدأ حدوث هذا التراجع في الدولة في مصر ؟**

فإن الإجابة ليست بسيطة وربما كانت أهم أركان تلك الإجابة أن ذلك التراجع لدور الدولة لم يكن ظاهرة ((مصرية)) فقط، ولكنه - في الحقيقة - ظاهرة عامة عرفها عديد من بلدان العالم الثالث التي مرت بظروف مشابهة في نفس الفترة الزمنية ويعني ذلك أن هذا التراجع جاء نتاجا منطقيا لطبيعة التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي عرفته تلك البلاد في أعقاب استقلالها، فضلا عن التأثيرات الكاسحة التي تعرضت لها، فالتنظيم السياسي الواحد لم يعد قادرا على استيعاب القوى السياسية والاجتماعية التي نمت في المرحلة السابقة، والمصاعب التي واجهتها

المشروعات العامة سواء بسبب تداعيات نموذج التنمية الذي ساد أو بسبب الأعباء الباهظة التي وقعت على عاتق الدولة ((وزاد منها بقـوة أعبـاء الحروب بالنسبة لمصر)) أتاحت الفرصة لغزو القطاع الخاص خاصة مـع تدفق أموال بلاد النفط ((في حالة مصر أيضا)) وهذه الأثقال التي حملتها الدولة أثرت تدريجيا على قدرتها على تقديم السلع والخـدمات أو تـوفير العمل للمواطن، والاحتكار الثقافي للدولة تهاوى أمـام منجـزات التطـور العلمي والتكنولوجي في مجـال الاتـصال وأجهـزة التـسجيل والفيـديو والتليفزيون، وتعرضت أقصى القرى والنجـوع لتـأثيرات أفـلام الفيـديو الأمريكية والأوربية واليابانية والهنديـة مثلمـا انفـردت بهـا كاسـيتات المطربين والفنانين المحليين البعيدين عن سطوة الدولة ورقابتها " [79]

عجز القائمين على أمر الدولة المصرية

لو أن عفريتا سلط على الدولة المصرية كي يخربها ويفسدها ما استطاع كما فعل القائمون على أمرها !

مع أن الدولة المصرية من أعرق الدول التي عرفها التاريخ، وأشدها تماسكا وقوة، هل تلك العراقة هي سبب ما تعرضت وتتعرض له الدولة ؟ أيـا مـا كان الأمر فإن الدولة المصرية دونا عن بقية الدولة – في فترة من تاريخها – متخبطة مترددة، متراجعة، متباطئة، متكاسلة، حائرة، دائما تنقض غزلها من بعد قوة، بعيدة عن الرشد والسداد، قريبة من الغـي والفـساد، ضـالة ومضللة، حار شعبها في أمرها، وهي تأخذ به بعد أن عصبت على عينيـه، وتذهب به مذاهب شتى، تارة يمينا وتارة يسارا، لتكن الإشتراكية، لنجـرب الرأسمالية، نغلق الأبواب والنوافذ على أنفسنا، لنزيل الأبواب والنوافذ وليكن الانفتاح، لنحل الأحزاب ويبقى حزب واحد أفضل وأحسن، لتعود الأحـزاب

[79] المصدر السابق (١٧٤- ١٧٥)

مرة أخرى، لتمتلك الدولة كل شيء ويكون ثمة قطاع عـام، لتبـع الدولـة القطاع العام وتكون الخصخصة.

قوانين تسن، وشرائع تشرع، لا القوانين تنفذ ولا الشرائع تتبع، أشياء تعلـن في العلن، وأخرى تحدث وتجري في الخفاء، تحمل نفسها ما هي في غنـى عنه، وتتخلى عن مما لا مناص من تحمله. دولة بتلك المواصفات والملامح لابد أن يكون الاجهاد والتعب قد نال منها، وأن تعجز عن السير، ليس هـذا فحسب بل نحمد الله أن مع كل تلك العثرات والأخطاء والخطايـا والفـساد والتدمير والتخريب التي منيت به ولقيته وتلقاه ما زالت واقفة على قدمين ن وإن كانت تترنح، ما زالت تسير وإن كان حبوا، وما زالت تحيا وإن كانـت بمشقة ومعاناة

ولا سبب لكل هذا سوى القائمين على أمرها، أو القيادات الذين يخططـون ويرسمون، فلا تنظيم، ولا نظرة مستقبلية، لا عقل يبتكر ويبدع، لا منطـق يؤسس أويربط أو يجمع، كل الأمور التي تجعل شكل أو كيان الدولة متماسكا صلبا متينا غير موجودة، أما ما يؤدي بكيان الدولة إلـى التفكـك والتحلـل والضعف والزوال فموجودة وبوفرة تثير العجب !

الغريب والعجيب والخطير أن إصلاح كل هذا في الإمكان، وفـي الطـوق والقدرة، وأن ما حدث في ((يناير)) دليل وبرهان أن هذا الشعب لديه مـن الإرادة والتصميم والعزم والرغبة في الحياة الحرة الكريمة، ولديه الرغبة أن يصحح كل تلك الأخطاء ويقيل دولته من عثرتها، ويخرجها من انتكاسـتها، ويزيل كل تلك المفاسد التي عرقلة مسيرته نحو التقـدم والتطـور، ولابـد للشعب المصري أن ينجح في ذلك لا لشيء إلا لأن النجاح هو قدره وهـو رهانه الأخير " **لكن الملاحظة الأولية تشير إلى أن جميع المجتمعات التـي تفقد رهاناتها التاريخية، في هذه الحقبة أو تلك تدخل لا محالة فـي أزمـة عميقة عقائدية واجتماعية وسياسية وبالعكس، نجد الدول التي نجحت في**

تجاوز تخلفها وحققت اندماجها الطبيعي في النظام العالمي قد حلت مشاكلها السياسية والاجتماعية الداخلية، وصارت دولا ديمقراطية وصناعية وتقنية، وشاركت أكثر فأكثر في بناء الحضارة العالمية، بل لقد تفوق بعضها على سابقه حيث احتفظت فيها النخبة ببعض القيم التراثية الوطنية والجماعية "[80]

إن الشعب المصري قد عرف طريقه، وأدرك أن هناك مهام صعبة، وواجبات ثقيلة لابد أن ينهض ويقوم بها، وها هو يشق طريقه بكل ثقة وثبات نحو التحول الديمقراطي الذي حرم منه طويلا، وكان أحد أسباب – إن لم يكن كل أسباب – تخلفه وتراجعه، وتخليه عن مكانه ومكانته في عالمه العربي، والعالم الخارجي، وسوف ينجز كل مراحل التحول في أمن وسلام، لأنه شعب راق – رغم كل الغبار الذي يثار – يستحق كل الخير والرخاء "

إن التقدم نحو الديمقراطية أو فتح الطريق أمام التحول الديمقراطي المنشود يحتاج إلى توفير شروط موضوعية أساسية في مقدمتها ضمان التنمية الاقتصادية والاجتماعية الثابتة والمستقرة وتامين آليات التوزيع العادل معا لثمارها. وليس من الممكن تحقيق هذه الشروط في ظروف الاقتصاد العالمي الراهن من دون خلق المجالات والأسواق الواسعة أي من دون توسيع دائرة الاستثمار وسوق العمل والاقتصاد معا، ويفترض كل هذا حث الخطى من أجل تنظيم تعاون عربي شامل وجدي "[81]

---

[80] المحنة العربية: الدولة ضد الأمة – د. برهان غليون – (٣٠٤)
[81] المصدر السابق (٣٠٦)

الخاتمة

ما بين كتابة تلك والفصول ونهايتها،– وهي مدة وجيزة للغاية بمقياس التاريخ ومقياس الأمم والشعوب – مرت مصر – وما زالت تمر – بأحوال وظروف وأزمات ومآزق، لا أظن أنها مرت بمثلها في تاريخها القديم أو الحديث، وأن تلك الأحداث لن ولم تمح من ذاكرة مصر مهما امحت وتبددت وتلاشت ذكريات من وجدانها. والخيط الرئيس – بل الخيوط – الذي ينتظم تلك الأحداث هو الحيرة والقلق والاضطراب والخوف والحذر، والتقلب صباحا ومساءا بين الأمل واليأس، الرجاء والإحباط، والتفاؤل والتشاؤم، اليقين والشك، الحقيقة والوهم، الهدى والضلال، الصواب والخطأ، الفرح والحزن، الرضا والغضب، الصدق والزيف،

حالة عجيبة وغريبة ونادرة وخطيرة وجدت مصر نفسها فجأة – وبدون مقدمات – مستغرقة فيها، تلك الحالة جعلتها حائرة مترددة متخبطة متعثرة،حذرة متوجسة خائفة، إلى درجة دفعتها أن تشك – أو تهتز ثقتها – فيما حدث في ((يناير)) أهو ثورة أم غير ذلك ؟!

مع أن ما حدث في ((يناير)) أعظم ثورة في تاريخ مصر القديم والحديث، وذلك – في رأيي – لأمرين:

الأول:أن في يناير تطهرت وتخلصت مصر من كل ذنوب الإفراط والتفريط، واتهامات التكاسل والتخاذل والاهمال والخضوع والخنوع والاستكانة والاستسلام والذل والظلم والقمع والاستبداد، دائما تتهم مصر بأنها ((أرض الطغيان))، وأنها((هي لمن غلب))، دأب المؤرخون المغرضون والكارهون والحاقدون والأعداء على أن يجعلوا من هذا الضلال والوهم حقيقة وصدقا، ولبس على البعض هذا الاختلاق والافتراء، حتى من بعض أبنائها المغرر بهم والذين خدعوا عن حقيقة وطنهم، في يناير صدرت شهادة شفاء وعافية، وصرخت مصر بأعلى صوتها حتى تسمع العالم والتاريخ، وتحركت وانتفضت وثارت، وضاءة الجبين، شامخة الهامة، قوية الكيان صحيحة البدن، سليمة النفس، بلا امراض بلا آفات بلا عجز، اغتسلت مصر وتطهرت من كل ذنوبها وأخطائها في حق نفسها، كما لم تغتسل من قبل وتطهر بالنور والنار.

الثاني:في يناير لم يتم إقصاء الحاكم عن منصبه أو إبعاده عن مركزه أو تنحيه عن كرسيه، لأن هذا من الممكن أن يحدث بدون ثورة، ولكن تم إقصاء وأبعاد وتنحية الحاكم من قلوب وضمائر وعقول المصريين، إن مركز الحاكم – أي حاكم – في مصر منذ الأبعاد السحيقة في التاريخ حتى قبل ثورة يناير، له وضع خاص ومميز ومتميز، لا يماثله أي وضع للحاكم في أي أمة أو حضارة أخرى،إن جذور تقديس الحاكم متغلغلة ومتأصلة في وجدان الشعب المصري، ونظرة على الطقوس والمراسيم تبين تلك المكانة المقدسة للحاكم " **كان تأسيس الملكية شأنا مركزيا بالنسبة للدولة والحكومة المصرية. ولا يمكن تتبع منصب الملك بشكل مؤكد إلا بدءا من الأسرة صفر فقط، ولكن المصريين أنفسهم يعتقدون أن الملكية تعود إلى ((عصر الآلهة)) وهو عصر أسطوري حكمت فيه الآلهة مصر. وأسطوريا، كان جميع الملوك**

يعتبرون نسل الآلهة الأوائل، وكان كل ملك يمثل تجسيدا للإله الذي خلف اباه أوزوريس على الأرض، في حلقات متصلة من التسلسل المباشر. بل إن الملوكالمعروف بانهم لا ينتمون إلى الدم الملكي (مثل، حور محب ورعمسيس الأول) ارتدوا العباءة الأسطورية لحورس. ومن ناحية أخرى، كان المعروف عمليا أن الملك عرضة للموت، ولكنه يتميز عن رعيته بطبيعته ذات الوجه المتعددة، والتي يعبر بعض مظاهرها عن الألوهية. وبرغم أن الإدراك الحسي لألوهية الملك تغير عبر الزمن، فإن ادعاءات الألوهية، كأن يكون الملك من نسب إلهي، وصنع أيقونات تؤكد على طبيعته الإلهية، والاحتفالات (خاصة في الدولة الحديثة) التي كان الملك يتحول فيها إلى شكل الإله آمون، كل ذلك لم تكن له ضرورة ما دام الملك يعد مقدسا بشكل روتيني. اما العلامات الأكثر تحديدا في رمزيتها والتي تم توظيفها لتمييز الملك عن رعاياه، فتكمن في رموزه الملكية مثل: الإزار الملكي، المسمي بالشنديت shendyt، ولحية الشعر المستعار الناعم، والتيجان المتنوعة والصولجانات: العصا والمدرس.

وكان يتم التعبير عن شخصية الملك ذات الأوجه المتعددة باسمائه وألقابه، ونعوته، فكان يشار إليه بشكل أكثر شيوعا بالإطناب المهذب ((جلالته)) أو يشار إليه بدءا من الأسرة ١٨، ب ((البيت العالي)) براعا pr-aa، وهو اسم مقر إقامته الذي اشتق الإغريق منه لقب ((فرعون ~pharaoh))، وكان لقبه الأكثر شيوعا news bity، ((ملك مصر العليا والسفلى)) يعكس معنى الثنائية والتوازن الواضحين للغاية في التفكير المصري، كما كان لقبه الاخر الشائع صارع sa ra ((ابن رع))يعكس كلا من ارتباطه بإله الشمس وابتعاده عن التكافؤ الحقيقي مع الإله.

وكان الناس يمجدونه في نصوص المدح بوصفه ((الإله الكامل))، و ((الإله العظيم)) و ((الإله الذي يعيش الناس بواسطة طبيعته)) وبتلك الوسيلة يميزونه عن رعاياه.

وكان يتم التعبير ايضا عن الشخصية المعقّدة للملك بواسطة لقبه الرسمي الخماسي ومن السرة الخامسة وما بعدها، كان لقبه يتضمن اسمين، كل منهما يحاط بخرطوش بيضوي، وهو رمز هيروغليفي يدل على ((الخلود))، ولعل هذا يشير إلى أن الملك كان يحكم مصر كلها للأبد، وكان الاسم الأول من هذه الأسماء الخرطوشية هو الاسم الشخصي، الذي اتخذه الملك عند التتويج، ويشير نص من عصر حتشبسوت (الأسرة ١٨) إلى ان هذا الاسم كان يؤلفه القراء من الكهنة، وكان يعلن عن التتويج، وكان الاسم الثاني في الخرطوش هو اللقب، وهو اسم عائلة الملك، مثل الأسماء المتكررة أمنحوتب، وتحوتمس، ورمسيس.

وخلال عهد الأسرات كان الملك (nesu) يمثل رأس السلطة السياسية والدينية، فقد كان ملكا مطلقا طوال مدة حياته، وكان يؤدي دور رئيس موظفي الدولة التنفيذيين، والرئيس الأعلى للعدالة، وقائد الجيوش، والكاهن الأكبر، وكان مسئولا عن ترسيخ النظام الكوني للعالم المتجسد في ماعت، وكان منصب الفرعون يتولاه عادة الرجال، مع العلم أنه كان هناك ثلاثة على الأقل من الفراعنة النساء (نيت إقرت من الأسرة ٦، وسبك نفرو من الأسرة ١٢، وحتشبسوت من الأسرة ١٨).

وكان نموذج وراثة العرش أبويا، فكان الابن الأكبر عادة يخلف أباه، وبرغم أن السيدات الملكيات كن يتمتعن بالنفوذ، فإنه لا يوجد دليل يدعم فكرة أن الوارث للعرش كان عليه أن يتزوج امرأة من نسب ملكي ؛ وبالفعل لم تكن الزوجات الرئيسيات لتحتمس الثالث، وأمنحتب الثاني، وأمنحتب الثالث من عائلات ملكية. وكان يتم ضمان العرش أحيانا بواسطة الوصاية المشتركة

على العرش للأب والابن، اما إذا مات الملك تاركا وارثا صغير السن، فإن أحد أعضاء الأسرة الملكية كان يمكنه أن يؤدي دور الوصي بالنيابة عنه، مثل حتشبسوت التي كانت وصية على تحتمس الثالث.

ونظريا كان الملك يقود كل الأنشطة، اما في الواقع فإنه كان يتم تعيين آلاف الموظفين الذين كانوا يعملون كمستشارين وموظفين، بتسلسل هرمي معقد، لكي ينفذوا أوامر الملك وأمنياته، وأثناء الدولة القديمة، كان معظم كبار الموظفين أعضاء في العائلة الملكية، ولكن بحلول الدولة الوسيطة والمتأخرة أصبحت هناك فئة محترفة إلى حد بعيد من عمال الخدمة المدنية، ولكنها في الواقع كانت تتألف في الغالب من رجال الطبقة العليا "[٨٢]

من غجيب الأمر أن صلاحيات ووظائف الرئيس الملك، أو الملك الرئيس في العصر الحاضر تتطابق كثيرا من صلاحياته ووظائفه قديما وكما قال شوقي – رحمه الله:

وأحوال خلق غابر متجدد تشابه فيه أول وأخير

نعم، في يناير تم نزع واستئصال جذور تلك المكانة للحاكم المصري التي زرعت ونمت على مدى آلاف السنين، ذلك الشخص الذي اختزلت في شخصه مصر كلها، وكانت تنام بنومه وتستيقظ باستيقاظه، وتمرض بمرضه، وتشفى وتسلم بشفائه وسلامته، في يناير تم تقويم هذا الإعوجاج، وتصحيح هذا الانحراف، نجحت مصر تتخلص من هذا القيد الذي أدمى قلبها وعقلها آلاف السنين، لتتولى هي بعد ذلك بكل حريتها وملء إرادتها اختيار حاكمها، وكما قال شوقي:

زمان الفرد يا (فرعون) ولى ودالت دولة المتجبرينا

---

[82] مصر والمصريين – دوجلاس بريور- إيملي تيتر- ترجمة: د. عاطف معتمد و د. محمد رزق – صفحة (١٣١ وما بعدها)

وقال: شر الحكومة أن يساس بواحد   في الملك أقوام عداد رماله

إن لم تنجز ثورة ((يناير)) إلا هذين الأمرين لكفاها فخرا.

كتبت تلك المقالات في تلك الأجواء، التي تتلبد بالغيوم والسحب أحيانا، فتحجب الرؤية، وأحيانا تصفو وتصحو فتجعل الرؤية طيبة، وكانت المقالات أحيانا ترجع إلى الوراء، وأحيانا تندفع إلى الأمام، تتعمق إلى الجذور، وأحيانا تسير فوق الأرض تدرس وتفحص بعض الظواهر، وترصد وتسجل بعض الوقائع،وكان شاغلها الأكبز – المقالات – هو تلمس أو الإمساك ببعض ملامح وحقيقة وجوهر الشخصية المصرية، وأثر الأحداث والزمان عليها، وبعض الظروف والاحوال التي احاطت بتلك الشخصية مؤخرا وأثرت فيها.

وبعد... هل سيكتب لتلك الثورة النجاح والتوفيق، والوصول بمصر إلى بر السلامة والأمان؟

هل سيقدر لهذا الشعب أن يحقق ما يرجوه من حياة حرة كريمة تليق به ؟

هل ستتخلص الأمة من كل معوقات ومثبطات التطور والتقدم ؟

ليس أمام مصر سوى الأمل والرجاء والعمل، ولم يخونها أملها في يوم من الأيام، ولم يتخل عنها رجاؤها أبدا، ولم يخذلها عملها قط.

السيرة الذاتية للمؤلف:

الاسم / محمود محمد القليني
عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة عضوية عاملة رقم: ١٩٧٧
الهاتف: ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩
الهاتف المحمول: ٠١٦١٤١٤١٢٤
البريد الإلكتروني: mahmoud elkelleny@yahoo.com

الأعمال المنشورة:

١) إنهم يذهبون قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة ١٩٨٢
٢) الدجال والشيطان رواية مركز معروف بالإسكندرية ١٩٨٥
٣) إخناتون والكهنة مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٥
٤) محنة الإمام أحمد بن حنبل مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٩
٥) مصرع الخراساني مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة
٦) بوظا في مجلس الشعب مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة
٧) غائب لا يعود مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة
٨) الفكر الإسلامي ومستجدات العصر كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥
٩) عش حياتك سعيدا كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفرالدوار ٢٠٠٥
١٠) النساء فقدن عروشهن كتاب مكتبة الإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦

١١) العمرية في رحاب عمر بن الخطاب كتاب مكتبة العلم والإيمان بدسوق ٢٠٠٨
١٢) أمير الصحافة العربية كتاب بستان المعرفة ٢٠١٠
١٣) شخصية موسى النبي كتاب بستان المعرفة ٢٠١٠
١٤) الإسكندرية عناقيد العشق والغضب رواية بستان المعرفة ٢٠١٠
١٥) بلد راكبها عفريت مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١١

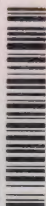


هذا الكتاب

عبارة عن تأمــلات لثورة يناير 2011- وللمكان و الزمان وبينهما الانسـان- الـذى لم يحدث مثله فى تاريخ مصر القديم والحديث. وبالرغم من هذا فهو فعل إنسـانى. أو لنـقل حدث قدرى صادف هوى وقبولا. بل الذين كانو على شوق وترقب وانتظار. وأى فعل أو حـدث يمت للبشر بصلة واصره يلتبس فيه الحق بالباطل. الهدى بالضلال. الصواب بالخطأ. الصدق بالكذب. فالثورات الانسـانية نار ونـور. قد تحرق وتدمر. ولابد لهـا من شهـداء وضحـايا كما أنها تسبب الكثير من الشقاء والالم و المعاناة. وهى نور تنير للشعـوب و الالـم طريقها وسبيلها الى الحرية والعزة والكرامة' وقد كتب على مصر والمصريين ألا يصلو الى غايـتهم إلا انهم يقدموا الأرواح الطاهرة والدماء الذكية. وما يتناسب وعظمة ما تحصل عليـــة وفصول الكتاب لم تغفل ان تقف طويلا امام هذا الكيان و البيان اذى خلق خلقاً (مصر) فى هــذا المــكان الفريد والنادر والخطير من العالم. ومامر به- على مر التاريخ- من أزمات ومــأزق ومحــن. جلت وصقلت وصفت. هذا المعدن الفريد العبقرى للشخصــية المصـــرية.

ولعل هذا الكتاب يكون قد وفق- بعض التوفيق- ان يلقى ضوءاً- ولو ضئيلاً- على جـانب من جوانب هـذا الحدث العظيم الجلل. ايضاً على جانب من جوانب الشخصية المصرية التى نالـها ولحـق بها مؤخراً- الكثير من التغيير و التبديل. والذى نرجو ان يكون للأفضل و للأحسن.

الناشر





لنشر وتوزيع الكتب
0452211495-0121151237
E-mail:bostan_elma3rafa@yahoo.com